

حتى يكتمل البناء

خواطر في التربية الدعوية

عبد الرحمن ضاحي

حتى يكتمل البناء


بسم الله الرحمن الرحيم

المُقدِّمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المُرسَلين، سيدنا محمد وعلى آله وصَحبه أجمعين؛ أما بعد:

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]؛ فقد حدَّد اللهُ تعالى في القرآن غاية الخليقة، واستعمل لتلك الغاية أفضلَ خَلْقه (الأنبياء والرُّسُل)؛ ليكونوا حَمَلة الرسالة التي تهدي الخَلْق وترشدهم، وليكونوا سببًا في نجاة مَن آوى إلى سفينة معرفة الله وعبادته، وارتضاء منهجه وشرعه دستورًا لحياتهم.

ولمَّا كانت وظيفةُ الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أشرفَ الوظائف لِصِلَتها بغاية الله ﷻ من خَلْق العِباد؛ وَرِث ذلك الشرفَ الرَّبَّانيَّ العاملون في حقل الدعوة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[2]؛ فصاروا مَشاعِل نورٍ يُضيئون للناس طُرُق الهداية كلَّما أظلَمَتْ

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) يوسف: ١٠٨.

عليهم مَشاغِلُ الدُّنيا، ويُقرِّبونهم إلى ربهم كلَّما شَرَدَتْ بهم أهواءُ نفوسهم.

إنَّ وظيفة الدعوة والتربية من أجَلِّ الوظائف التي نَتَعبَّد بها لله ﷻ؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وعلى مدار قرونٍ سابقةٍ؛ قد خَرَجَتْ بفضل الله ﷻ ثم بفضل العاملين في التربية الدعوية المُستمَدة من المنهجِ الرَّبَّانيِّ والمُستضِيئة بمنهج نبيِّه الكريم ﷺ نماذجُ مُسْلِمةٌ فريدةٌ حافَظَتْ للأُمة على خَيْرِيَّتها ووسطيَّتها وعِزَّتها، وكل تلك النماذج -على تنوُّع تخصُّصاتها- مَثَّلَت التربيةُ مُكوِّنًا رئيسًا في تشكيل شخصياتها؛ فالتربية هي العامل المشترك لكل العاملين في الدعوة، والمَنبع الرئيس لبقية أودية كوادر العمل إلى الله ﷻ.

ومع اشتِدَاد غربة الإسلام في عصرنا، وازدياد وسائل أعداء الدِّين في غواية شباب الأُمة، والتضييق على العاملين في الدعوة إلى الله ﷻ؛ ازداد الاحتياج إلى تطوير أساليب التربية وطُرُقها؛ لمُوازَنة ما طرأ من خَلَلٍ في موازين الأُمة السلوكية والعَقَدية والتعبُّدية، وعلى الرغم من البذل فإنَّ هناك قصورًا ملحوظًا في الجانب العملي داخل الحقل التربوي، وخُروقًا داخل الحصن يجب أنْ تُرمَّم. وقد خَطَطتُّ بعضَ المقالات التي أحاول بها ترميم ما طرأ على البناء التربوي من تصدُّعاتٍ وخُروقٍ؛ عن طريق زيادة رصيد الجانب النظري والعملي الذي يخدم العاملين في الحقل التربوي؛ عسى الله أن يجعل من هذا العمل إضافةً ينتفع بها مَن يقرأه من العاملين في الحقل.

وقد قسَّمتُ الكتاب إلى بابَيْن:

الباب الأول: مقالاتُ المُرَبِّي؛ وهي عبارة عن مقالاتٍ مُوجَّهةٍ إلى الجانب

---

(١) فصلت: ٣٣.

الشخصي عند المُرَبِّي، وعيَّنتُ فيها بعض الأمور؛ مثل: بناء المُرَبِّي لنفسه وعلاقته بالمُتَرَبِّي، وبعض الإشكاليات التي تواجهه في العمل.

الباب الثاني: مقالاتُ الكِيَان؛ وهي عبارة عن مقالاتٍ مُوجَّهةٍ إلى الكِيَانات التربوية، سواء كانت تعمل بشكل مؤسسي أو بغير ذلك؛ تَحدَّثتُ فيها عن بعض القضايا والإشكاليات التي تواجه الكِيَانات العاملة في التربية في واقعنا المعاصر.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتقبل هذا العمل وينفع به،
وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم

كتبه/ **عبد الرحمن ضاحي**

يوم الجمعة (٢٩/ رمضان/ ١٤٤١هـ)،

الموافق (٢٢/ مايو/ ٢٠٢٠م)



الباب الأول: مقالاتُ المُرَبِّي

إليك أيها المُرَبِّي:

«إذا الداعية لم تَكُن فيه مُبادَرة، ولم يَكُن منه بَذْل؛ لم يَنْفَعْه أن نَقُصَّ عليه القَصَص، أو نَقْتَبِسَ له الخُطَط»

محمد أحمد الراشد



١ - الظاهرة التربوية

كلمة «تربية» أصلها لُغةً من الفعل «رَبَّى»، وتُستخدم في التعبير عن الشيء المطلوب له التنشئة والإنماء والإصلاح؛ فـ«ربَّى الولدَ» بمعنى ثقَّفه وهذَّبه وأدَّبه، و«ربَّى الشيءَ» بمعنى نمَّاه وزاده؛ وهذا ما كان يفعله قدوة البشرية ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم، فكان بعد ركوبهم سفينة الهُدى معه؛ يرعاهم ويحوطهم بمُمارَسة دوره التربوي في توجيههم وتهذيب نفوسهم وإصلاحهم؛ مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾[1]؛ والتزكية هنا جاءت بمعنى «التربية والإرشاد» كما قال صاحب الظلال رحمه الله: «وإنها لَتزكيةٌ وإنه لَتطهيرٌ؛ ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول ﷺ؛ تطهيرٌ للضمير والشعور، وتطهيرٌ للعمل والسلوك، وتطهيرٌ للحياة الزوجية، وتطهيرٌ للحياة الاجتماعية؛ تطهيرٌ ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصوُّرات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح،

(١) الجمعة: ٢.

وترتفع به من رِجْس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخُلُق الإيماني، ومن دَنَس الرِّبا والسُّحت إلى طهارة الكسب الحلال؛ إنها تزكيةٌ شاملةٌ للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع، تزكيةٌ ترتفع بالإنسان وتصوُّراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتَّصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العُلْوي الكريم»(١).

ولم يَخْلُ موقفٌ في حياة النبي ﷺ وأصحابه ﭬ إلا وفيه توجيه أو تعليم أو تقويم بوسائله المُتعدِّدة؛ بالتوجيه المُباشِر تارةً، وبالتلميح تارةً، وبالهَجْر والزَّجْر تارةً أخرى، وغيرها بالمُكافأة والثناء، وأعظمها كانت القدوة؛ لِما فيه ﷺ من الخيرية التي لم يَحْمِلها بشر من قبله أو بعده. ومن قبل سيدنا محمد ﷺ مارَسَ التربيةَ جميعُ الأنبياء والرُّسُل -عليهم الصلاة والسلام- الذين بُعِثوا إلى أقوامهم، فكانوا نماذج الإرشاد التي ارتضاها الله ﻷ للبشرية لتحقيق معاني العُبودية له؛ من خلال إرشادهم وأساليبهم التربوية مع أقوامهم.

وقد تعاهَد المُصلِحون عبر أزمان الإسلام تلك الظاهرة وتناقلوها جيلًا بعد جيل؛ فانتقلت من عهد النبي ﷺ إلى عهد الخلفاء الراشدين ﭬ، ثم اهتم بتلك الظاهرة الأُمَويون، ومن بعدهم العباسيون؛ «حيث كان لأبناء الخاصة والخلفاء «مُؤدِّبون»، وكان لأبناء العامة «مُعلِّمون»»(٢)، وكلاهما كانت مهمته التعليم وتزكية النفوس بالتربية، وما التسمية إلا للتفرقة فحَسْب، فظلَّت الظاهرة التربوية تتناقل من عَصْرٍ إلى عَصْرٍ ومن جيلٍ إلى جيلٍ؛ حتى أتَتْ إلى عصرنا الحالي بمصطلح «الدعوة الفردية» أو «التربية الدعوية».

---

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. دار الشروق، القاهرة. ط١٧، ١٤١٢هـ. ٦/ ٣٥٦٥.

(٢) محمد عيسى صالحية. **مُؤَدِّبو الخلفاء في العصر العباسي الأول**. المجلة العربية للعلوم الإنسانية. مجلس النشر العلمي، الكويت. العدد الخامس. المجلد الخامس. بتصرف.

تعريف الظاهرة التربوية:

وفي تعريف «الظاهرة التربوية» يقول محمد الراشد: «إنَّ من الحقائق السارِية التي ظهرت منذ بداية الحياة الاجتماعية الإنسانية ويغفل عنها البعض؛ أنَّ التقليد والمُحاكاة من صفات الإنسان الاجتماعي، وأنه قابل للتأثُّر بغيره تأثُّرًا لا يشعر به، حتى إذا بلغ حدًّا في الكثافة كبيرًا تحوَّل إلى عقيدةٍ وفكرةٍ ومفهومٍ ثابتٍ ينقل المُتأثِّر إلى مرحلة تمحيصٍ عقليٍّ لِما عند الغير؛ فيزداد أخذًا لِما يوافق عقيدته المُتكَوِّنة، ويرفض ويعاف ما يضادها»[1].

ومما يُفسِّر تلك الظاهرة قولُ أَبي عثمان الحِيْري[2] رحمه الله: «فِعْلُ من حكيمٍ في أَلْف رَجُلٍ، أنفعُ من موعظةِ أَلْف رَجُلٍ؛ وإنما هي مُصادَفاتٌ للقلوب من حيث صفاء القلوب عندما يطرقها من واردات الغيوب من المسموعات والمنظورات، فإذا اتفقت قَوِيَت، وإذا اختلفت وتضادَّت ضَعُفَت»[3].

فالظاهرة التربوية هي حالةٌ من تصافي القلوب، تجعل قلبَ المُتلقِّي لَيِّنًا مفتوحًا سهلَ التشكُّل في يد المُرَبِّي القدوة، الذي يمارِس من خلالها عملية تعديل السلوك الإنساني وتقويم أبعاد الشخصية، ويبثُّ فيها الأفكار التي تُمكِّنه من إصقالها؛ وقد لخَّص فريد الأنصاري رحمه الله الظاهرة التربوية قائلًا: «هي تعهُّد

---

(١) محمد أحمد الراشد. **منهجية التربية الدعوية**. دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر. ط٣، ١٤٢٤هـ. ص١٣.

(٢) من ثِقات الزُّهَّاد، ومن أعلام التصوُّف السُّنِّي.

(٣) عبد الله بن علي الطُّوسي. **اللُّمَع في تاريخ التصوُّف الإسلامي**. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ٢٠١٦م. ص٢٥٨.

الفرد المسلم بالتكوين المُنتظِم؛ بما يُرَقِّيه في مراتب التديُّن تصورًا ومُمارَسةً»[١].

ومن خلال ما سبق؛ يمكننا تعريف «التربية» تعريفًا إجماليًّا بأنها: عملية تربوية شاملة تَهدف إلى تعديل السلوك وتنميته، واكتساب المعارف، وغَرْس الأفكار العَقَدية والقيم الأخلاقية، وتوجيه الرغبات والميول نحو الوِجْهة التي يُحدِّدها وليُّ أمر المُتَرَبِّي أو الجهة المسئولة عنه.

وتَبْرُز أهمية التربية الدعوية في أنها تُمثِّل الآلة الأُم التي تمر بها كل المنتجات التي ينتجها المَصنَع -على تنوُّع منتجاته-؛ فالمُتخصِّصون في العلم والزُّهد والجهاد والسياسة والتجارة... إلخ، كلهم مَرُّوا على الآلة الأُم التي أَصقَلَتْ جوانب شخصيتهم وأكسَبَتْهم المعارف الأولى، وغَرَسَتْ فيهم القِيَم التي مَهَّدَتْ بذلك دخولهم آلة التخصُّص وإكمال المسيرة بعدما وَضَعَت اللَّبِنَات الأولى.

فَرْقٌ بين التعليم والتربية:

ولعلنا هنا نتطرَّق إلى الفَرْق بين «التعليم و«التربية» لِما يَحدُث من خلطٍ بينهما، فالتربية معناها أشمل وأعم من التعليم. أمَّا «التعليم» فهو جزء من العملية التربوية؛ يهدف إلى تنمية عقل الفرد، وتمكينه من اكتساب المعرفة والمهارات اللازمة لحياته، ودرايته بعِلْمٍ أو فنٍّ ما. وأمَّا «التربية» فهي أكثر شموليةً وتكامُليةً من عملية التعليم؛ إذ إنَّ هدف التربية يتجه إلى تنمية وصَقْل جميع جوانب الشخصية الإنسانية.

---

(١) فريد الأنصاري. **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر. ط١، ١٤١٦هـ. ص٣٥.

«فالتعليم دروسٌ ومحاضراتٌ، أمَّا التربية فلا بُدَّ لها من أهداف، وهذه الأهداف لا بُدَّ أن تكون مرتبطة بالمنهج، فعملية التربية عملية مقصودة؛ يعني أنك تريد أن تَصِل من خلالها إلى شيء. كالفَرْق بين المُحاضِر أو المُدرِّس وبين المُرَبِّي؛ فالمُحاضِر يهمه أن تكون مُحاضَرته قوية، وبعد أن يلقيها ليس من شأنه معرفة أثرها على فلان وفلان، ومدى استجابته، وما يحتاجه بعد ذلك. بخلاف المُرَبِّي؛ فهو مَعْنِيٌّ بالأفراد المُستمِعين بأعيانهم، كيف تأثَّر فلان، ولِمَ لمْ يستجب فلان، وما المناسب فعله معه بعد ذلك؟»[1].

فالتربية أصلٌ متينٌ في كل فكرة، ولا تنجح بدونه دعوة من الدعوات، مُسْلِمةً كانت أو غير مُسْلِمة، وهي التي يَصنع بها الرجالُ الراعين والحاملين للفكرة من بعدهم.

---

(١) هشام عبد القادر عقدة. **رسالة إلى إمام المسجد**. دار الصفوة للنشر والتوزيع، القاهرة. ط٢، ١٤٢٨هـ. ص١٥٢. بتصرف يسير.

٢- دعائم العملية التربوية

تتألَّف العملية التربوية داخل أي كِيَان من ثلاث دعائم (المُرَبِّي – المُتَرَبِّي – المنهج)، ولا بُدَّ من تَواؤُم الثلاثة مكونات مع بعضهم بعضًا؛ لكي يَخرج المنتج النهائي بصورةٍ سليمةٍ بعيدةٍ عن أي تشوُّهات، فالعملية التربوية أشبه بعملية التصنيع؛ حيث يجب أن تُضبَط بطريقةٍ مُعَيَّنةٍ وبمواصفاتِ جودةٍ مُحدَّدةٍ؛ كي لا يُصيب المنتج النهائي أيُّ خَلَلٍ يُؤثِّر على جودته، مع فارق التشبيه من حيث البساطة في عملية التصنيع، والتعقيد في عملية التربية لارتباطها بالنفس البشرية المُعقَّدة ذات الطبائع المُتغيِّرة.

الدعامة الأولى (المُرَبِّي المؤَهَّل):

المُرَبِّي هو المسئول عن تربية الأجيال، وإصلاحها، وتوجيهها نحو إصلاح النفس والمجتمع ونُصْرة الأُمة وقضاياها؛ ابتغاءَ الفوز بالجنة والإكثار من مُعسكَر الصالحين في الأرض.

«والمُرَبِّي يقوم على تربية المُتَرَبِّين من خلال: القرب منهم، والإحاطة

بأمورهم، والاجتهاد في بنائهم، والارتقاء بهم، وتوجيههم، وإعانتهم في حَلِّ مشكلاتهم الخاصة والدعوية، وتقويمهم، ومُراقَبة تطوُّرهم، ومُحاسَبتهم مع التشجيع أو المُعاتَبة»[١].

وقد كُتب في دور ومَهَامِّ المُرَبِّي مع المُتَرَبِّي الكثير من الكتب والمقالات، ولكنني أَوَدُّ الإشارة إلى نقطةٍ مُهِمَّةٍ؛ ألا وهي أهلية المُرَبِّي ومدى كفاءته لتصدُّره للعملية التربوية، فهناك الكثير من الكِيَانات التربوية تُصَدِّر مُرَبِّين غير أكْفَاء لتربية النَّشْء، بمُبرِّر سَدِّ عَجْز العمل أو بُغْية استعجال الثمر والإكثار من الرُّوَّاد؛ مما يكون له الأثر السلبي على العمل بشكل عام! «فكما أنَّ التوسُّع السريع يستهلك الطاقة الحاضرة، فإنه يُضعِف الناتج القديم»[٢]؛ ويفسِّر محمد الراشد هذه المشكلة قائلًا: «من الرغبات الأصيلة في كل إنسانٍ؛ حُبُّ الثراء في كل شيء، وقد أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٣]؛ فالإنسان يحب الثراء الكَمِّي العددي في المال، والعلوم، والبنين، والأنصار، وفي كل شيء؛ وهي نزعة أو غريزة لا يُمْكِن السيطرة عليها إلا بالتربية العميقة، وخطورة إهمالها تتأتَّى من أنَّ إشباع الغريزة يُؤدِّي إلى حصول النشوة في الإنسان؛ ومن هنا تُصاحِب تلك النشوة اندفاعات غير مدروسة يشترك فيها الجميع (القادة وتلاميذهم)؛ وذلك لأنَّ الإحساس بالثراء يُولِّد الاطمئنان وإيحاءات الضمان»[٤]، وتصدير

---

(١) هشام عبد القادر عقدة. **دور المربي في الدعوة الفردية**. دار الصفوة للنشر والتوزيع، القاهرة. ب.ط. ٢٠٠٤م. ص٧.

(٢) محمد أحمد الراشد. **المنطلق**. دار المنطلق، الإمارات العربية المتحدة. ط١. ب.ت. ص٢١٥.

(٣) التكاثر: ١.

(٤) محمد أحمد الراشد. **المنطلق**. ص٢١١، ٢١٢. بتصرف واختصار يسير.

غير الأَكْفاء للعملية التربوية يُعَدُّ ضمن الاندفاعات غير المدروسة؛ حيث إنه في بعض الأحيان يُمْكِن مُعالَجة الخطأ الطبي أو الخطأ الهندسي، أمَّا الخطأ التربوي فمن الصعوبة بمكانٍ علاجه؛ لتعلُّقه بالنفس البشرية ذات التركيبة المُعقَّدة، والتي تزداد تعقيدًا حينما يتولى مسئولية توجيهها الشخص الخطأ.

ومن المَساخِر التي تَحدُث في بعض الكِيَانات الدعوية؛ تصديرُ بعض الناشئة في المرحلة الإعدادية أو الثانوية لتربية الناشئة في المرحلة الابتدائية؛ زعمًا أنَّ تلك الفئة لا تحتاج إلى مجهودٍ كبيرٍ، وأنَّ تحفيظ القرآن الكريم وبعض المعلومات الشرعية الأولية هي أقصى ما يُمْكِن إعطاؤه للطفل في هذه المرحلة! والواقع على عكس ذلك تمامًا؛ فمرحلة الطفولة -لا سيَّما المُبكِّرة- من أهم المراحل التي يمر بها الإنسان في حياته كلها، وتُؤثِّر في تشكيل شخصيته وبناء كِيَانه بشكل يترك أثره عليه بقية حياته؛ فالطفل في هذه المرحلة يتطوَّر نموه العقلي والانفعالي واللُّغَوي بشكلٍ سريعٍ، ويتشكَّل داخله البناء النفسي الذي تقوم عليه أساسيات الصحة النفسية والخُلُقية للإنسان.

وعن أهمية تلك المرحلة تقول ليلى كرم الدِّين[١]: «إنَّ الغالبية العظمى من الدراسات والبحوث في مجال «عِلْم نفس النُّمُو»؛ تؤكد أنَّ قِسمًا كبيرًا من النُّمُو العقلي واللُّغَوي للطفل، ونُمُو ذكائه وتفكيره؛ يتم خلال الأعوام القليلة الأولى من عمره. كما تشير الدراسات والبحوث -في مُجمَلها- إلى الأهمية القصوى لحصول الطفل الإنساني على رعايةٍ وتربيةٍ وعنايةٍ ذات مستوى عالٍ من الجودة خلال الأعوام القليلة الأولى من عمره؛ ليَصِل ويحقِّق أقصى ما لديه

(١) أستاذة عِلْم نفس الطفل بمعهد الدراسات العليا للطفولة، ومديرة مركز دراسات الطفولة، جامعة عين شمس، جمهورية مصر العربية.

من قدرات. كما أنَّ السنوات القليلة الأولى من عُمْر الطفل تُمثِّل البناء الرئيس والأول للضمير الإنساني؛ ما يجعل الطفل يعرف ويميِّز الصواب من الخطأ»(١).

فتصوَّرْ أنَّ مرحلةً بهذه الأهمية يتم العبث بها وبتركيباتها النفسية والعقلية بتسليمهم لمُرَبِّين غير مُؤهَّلين، بل إنهم أحيانًا يُصَدِّرون فِتْيانًا لتربية أطفالٍ دون رقيبٍ؛ فمِثْل هذا كالذي تَرَك سيارته مع شخصٍ لا يُحسِن القيادة، أو كالذي تَرَك بيته لحارسٍ أعمى!

فتأهيل المُتصدِّرين مطلبٌ ضروريٌّ، وأمرٌ مُحَتَّمٌ على الكِيَانات الدعوية؛ فمُرَبٍّ واحدٌ كُفْءٌ خيرٌ من مائةٍ غير أَكْفاء.

الدعامة الثانية (المُتَرَبِّي المُستجِيب):

العملية التربوية مثل القارب الصغير؛ لا هي تتحمَّل عددًا فوق سِعَتها، ولا تتحمَّل أن يكون بداخلها أحدٌ مُتمرِّدٌ على قائد القارب يريد وجهةً أخرى غير التي حدَّدها القائد؛ فهي عمليةٌ مُرَكَّزةٌ يجب أن يتوافر فيها شرطان في المُتَرَبِّين:

١- مُناسَبة العدد لطاقة المُرَبِّي.

٢- الاستجابة.

وكما قال محمد الراشد: «إنَّ الإنسان يحب الثراء الكَمِّي العددي في المال، والعلوم، والبنين، والأنصار، وفي كل شيء»(٢)؛ فبعضُ المُرَبِّين تحت ضغطِ تلك الغريزة يزيد من عدد المُتَرَبِّين؛ فيُحَمِّل نفسه ما لا يطيق من المجهود

(١) ليلى كرم الدِّين. مقال بعنوان «**إعداد أطفالنا للمستقبل**». موقع (www.gulfkids.com). بتصرف واختصار.

(٢) محمد أحمد الراشد. **المنطلق**. ص٢١١.

والمسئوليات، وفي نفس الوقت لا يَتَمَكَّن من بنائهم ومُتابَعتهم بشكلٍ سليمٍ؛ فيصير كالمُنْبَتِّ: لا أرضًا قَطَع، ولا ظَهرًا أبقى.

فالتركيز مع العدد الذي يناسب طاقة ووقت المُرَبِّي؛ شرطٌ مُهِمٌّ للتمكُّن من بناء المُتَرَبِّين بشكلٍ سليمٍ وعميقٍ؛ «فإنَّ معركتنا معركةٌ تربويةٌ؛ أيْ إنها تقوى وتشتد كلَّما تعمَّقت التربية وأتقنَ المُرَبِّي عمله، وتخبو جَذْوَتها كلَّما فَترَت التربية وكانت سطحية. أيْ إنَّ الجهود التربوية لعددٍ محدودٍ من القادة المُرَبِّين إذا تركَّزت على التلاميذ؛ فإنها تكون أعمق تأثيرًا فيهم كلَّما قلَّ عددهم، بتناسُبٍ طرديٍّ، وتفتر ويَقِلُّ تأثيرها كلَّما زاد عددهم. إذًا؛ فإنَّ من صالح معركتنا ألَّا يندفع الصنف القيادي المُتَوَلِّي عملية التربية في تجميع عددٍ من التلاميذ أكبر مما تكفي له جهودهم التربوية، وهذا هو الحل الثاني للوقاية من مَصارع العَفَوية يُمْليه تحليل الظاهرة التربوية»[1]. فيجب أن تحرص الكِيَانات التربوية على اتزان التوسُّع مع عُمْق التربية كي لا يختل الميزان؛ «فالتجميع القطيعي مُمْكِن، لكنه لا يستمر طويلًا»[2].

«فحُب الإمامة في الدِّين يجب ألَّا يُخْرِجنا إلى نوعٍ من التساهل في الصفات الإيمانية والطبيعية التي نشترطها لمَن يريد أن يكون مع الرَّكْب، ويجب أن يكون هناك -على طول الخط- تناسُق وتوازُن بين سِعَة التجميع وسِعَة طاقة التوجيه التربوي التي نَمْلكها؛ فإنَّ من أخطر الأخطار أن تتوغَّل الدعوة في تجميعٍ واسعٍ قبل أن تكون هناك صفوة من الدُّعاة قادرة على أن تتولى تربية كل الذين يجتمعون حولها»[3].

---

(١) محمد أحمد الراشد المنطلق. ص٢١٣.

(٢) المصدر نفسه. ص١٩٠.

(٣) محمد أحمد الراشد. **المنطلق**. ص١٨٩.

أمَّا الشرط الثاني (الاستجابة)؛ فالمقصود به حدوث اقتناع وتجاوُب نفسي بين طَرَفَي العملية التربوية يُؤدِّي لاستجابة المُتَرَبِّي المعرفية والسلوكية لمَن يُرَبِّيه، وتلك الاستجابة ينتج عنها التفاعل التربوي الذي يُفْضِي إلى تعميق العملية التربوية وتيسيرها، وقد مَدَح اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تلك الخاصية حينما جاء عبد الله ابن أُم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبيِّ ﷺ؛ حيث قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ⑧ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴾[١]؛ والمعنى: «أنه جاء طَلَبًا للتزكية»[٢].

تلك الاستجابة هي الدافعية للتعلُّم ومدى استعداد الشخص للتحمُّل والمُثابَرة من أَجْل بلوغ هدفِ إصلاحِ نفسه وتزكيتها، وهي تلك الدافعية التي كان يتمتع بها سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾[٣]؛ «فهو يُخبِر خادمه أنه لا يزال يسير حتى يَصِل إلى ملتقى البحرَين، أو يسير زمنًا طويلًا إلى أن يلقى العبدَ الصالحَ ليتعلَّم منه»[٤]؛ فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ سيَظَل سائرًا حتى يَصِل إلى غايته وهدفه.

فالمُرَبِّي الفَطِن يَمْلك من الكِيَاسة والخبرة ما يتفرَّس بها تلك الشخصيات المُستعِدة للمُثابَرة، التي تعيش بنفسية: ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ ﴾[٥]، وعزيمة:

---

(١) عبس: ٨، ٩.

(٢) محمد الطاهر ابن عاشور. **التحرير والتنوير**. الدار التونسية للنشر، تونس. ب.ط. ١٩٨٤م. ٣٠/ ١٠٩.

(٣) الكهف: ٦٠.

(٤) نخبة من العلماء. **المختصر في تفسير القرآن الكريم**. مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض. ط٣، ١٤٣٦هـ. ص٣٠٠. بتصرف يسير.

(٥) الكهف: ٦٠.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾[١]؛ حتى تَصِل العملية التربوية إلى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾[٢].

الدعامة الثالثة (المنهج):

من الأُسُس السليمة في أيِّ كِيَانٍ له أهداف يسعى إليها؛ وَضْعُ خطةٍ مُحدَّدةٍ يسير عليها العاملون بداخله؛ بحيث يُضبَط المنتج النهائي ويتم الوصول للهدف المُحدَّد دون أيِّ انحرافٍ أو حيادٍ.

وللأسف هناك كِيَانات تربوية تعمل بنظامٍ دون منهجٍ مُحدَّدٍ ولا تخطيطٍ واضحٍ، والأمر فيها متروك لكل مُرَبٍّ وفقًا لاختياره وتحضيره! وإهمال ذلك العُنْصُر دليلٌ واضحٌ على فَوْضَوِيَّة أيِّ كِيَان، ومؤشرٌ على قِصَر عُمْره، كما يُقلِّل الفائدة المُحصَّلة لدى المُتَرَبِّي؛ فتصير كل حصيلته هي ثقافة إسلامية عامة فقط، أو «رُكَام معرفي» إن صَحَّ التعبير. كما يُؤدِّي فقدان المنهج إلى إنهاك المُرَبِّي في التحضير للمُتَرَبِّين؛ حيث إنه يحتاج للتحضير والعَصْف الذِّهني في كل مرة، وقد تصل به في النهاية إلى مرحلة الإفلاس؛ لأنه فَرْد له قدرات محدودة، وليس كِيَانًا!

ويتحدَّد المنهج على أساس هدف المؤسسة؛ فطريقة تصنيع منتجات المَصنَع لا تتم إلا بتحديد نوع المنتج المُراد إتمامه من العُمَّال، فلا يَصِح تحديد هدف للمَصنَع وتَرْك كل عامل يخترع طريقةَ تصنيعِ المنتج بهواه!

والمنهج يجب أن يشتمل على أربعة مُحدَّدات: (الأهداف – المحتوى – الوسائل – التَّزْمِين)؛ فالأهداف يجب أن تكون مُحدَّدة، وقابلة للقياس، وواقعية

---

(١) الكهف: ٦٩.

(٢) الكهف: ٦٤.

يُمْكِن تحقيقها، وخاضعة لِزَمَن؛ كي لا تكون أهدافًا فضفاضة من الصَّعب قياس تحقُّقها. وبعد وَضْع الأهداف يكون بذلك قد تم رَسْم الهيكل الأساسي لمسار الإنتاج، وبقي ملؤه بالمحتوى الذي يناسب الهدف، ثم تحديد الوسائل التي يتم توصيل المحتوى بها، ثم وَضْع المُعدَّل الزمني لكل هدف.

كل تلك المُحدَّدات تَتعيَّن وفقًا لظروف البيئة والزمان والمكان التي نشأ فيها الكِيَان؛ حيث إنَّ اختلاف نِسَب الحريات وأنظمة الحُكم من دولة لأخرى يجعل تلك المُحدَّدات تتفاوَت من كِيَانٍ لآخَر، وفقًا للمصالح والمفاسد.

فالكِيَانات التربوية الناجحة تضع خريطةً منهجيةً يسير عليها المُرَبُّون مع مُتَرَبِّيهم وفق أهدافها المُحدَّدة، على أن تكون مساحات الاجتهاد الفردي محدودة وموجودة داخل الإطار المنهجي الموضوع، كما أنها لا تترك المنهج دون تطوير آلياته وأساليبه وفقًا للبيئة والزمان والمكان.

٣- استعجال الثَّمَر

النفس البشرية مَفطورة على العَجَلة ومَجبولة على قِلَّة الصبر، وهذا ما أخبرَنا به اللهُ عَزَّوَجَلَّ في أكثر من موضع؛ فهو القائل: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[١]، وهو القائل أيضًا: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾[٢]، ومن حكمته سبحانه أنْ خَلَق الأَناة والعقل في الإنسان ليُعادِل تلك العَجَلة، ويتوازن الإنسان بين العَجَلة والأَناة.

ومن الأمور المُهِمَّة في فقه الدعوة أَلَّا يستعجل الداعية قَطْف ثمرة دعوته، وأن يتحلَّى بالصبر، ويُلْجِم غريزة العَجَلة داخله بالصبر والأَناة؛ مثلما وَجَّهَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نبيَّه الكريم ﷺ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[٣]؛ قال قَتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: «لا تكُن مثله في العَجَلة والغضب»[٤]؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يُرَبِّي أنبياءه على الأَناة والصبر وعدم التسرُّع في جَنْي الثمر.

---

(١) الإسراء: ١١.

(٢) الأنبياء: ٣٧.

(٣) القلم: ٤٨.

(٤) ابن جرير الطبري. **جامع البيان في تأويل القرآن**. تحقيق: أحمد محمد شاكر. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط١، ١٤٢٠هـ. ٢٣/ ٥٦٣.

وفي حديث النبيِّ ﷺ قال: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى، لَيْسَ المُعَايِنُ كَالمُخْبَرِ؛ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ». وقال ﷺ أيضًا: «رَحِمَ اللهُ مُوسَى؛ لَوْ لَمْ يُعَجِّلْ لَقُصَّ مِنْ حَدِيثِهِ غَيْرُ الَّذِي قُصَّ»(١).

إنَّ العملية التربوية طويلة الأجل، لا يصح فيها الاستعجال بأي حالٍ من الأحوال، فهي تُشْبِه عملية تسوية الطعام؛ إذا سُوِّيَ بنارٍ مُسْتَعِرَةٍ وبصورةٍ مُستعجَلةٍ يكون طَيِّبًا من الخارج نَيِّئًا من الداخل، وأمَّا إذا سُوِّيَ بنارٍ هادئةٍ وبصورةٍ غير مُستعجَلةٍ يكون لذيذًا طَيِّبًا من الخارج والداخل؛ «وهذا التوازن ليس خاصًّا ببداية الدعوة فحَسْب، وإنما يجب أن يكون هو المُسيطِر على سِعَة التجميع في أدوار الدعوة كلها، وإلا تسرَّب الخطر»(٢).

التصدُّر قبل التأهُّل:

من صُوَر استعجال الثمر؛ تصديرُ المُتَرَبِّي في ميادين العمل الدعوي الجماهيري؛ كـ(الخطابة، أو الإمامة، أو تحفيظ القرآن) دون أن يكون مُؤهَّلًا أو مُلِمًّا بالجوانب التكميلية لتلك المسئوليات الصعبة من علوم أخرى تَدْعَم تلك المسئولية الكبيرة التي تولَّاها. تلك الصَّدَارة المُبكِّرة تمثِّل وَبَالًا على هذا المُتصدِّر الصغير، هذا الوَبَال سيُساهِم بعد ذلك في انتكاسه وتَرْكه الطريق بالكُلِّيَّة. وقد عدَّد ابن العثيمين رحمه الله مَخاطر التصدُّر قبل التأهُّل؛ فقال: «مما يجب الحذر منه أن يتصدَّر طالب العِلْم قبل أن يكون أهلًا للتصدُّر؛ لأنه إذا فعل ذلك كان هذا دليلًا على أمور؛ **الأمر الأول**: إعجابه بنفسه؛ حيث تصدَّر؛

(١) رواه الحاكم في المستدرك. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يُخْرِجاه. حديث رقم (٣٤٣٥). والحديثان بتخريج واحد في المستدرك.

(٢) محمد أحمد الراشد. **المنطلق**. ص١٨٩. بتصرف يسير.

فهو يرى نفسه عَلَم الأعلام. **الأمر الثاني**: أنَّ ذلك يدل على عدم فِقْهه ومعرفته للأمور؛ لأنه إذا تصدَّر ربما يقع في أمرٍ لا يستطيع الخَلَاص منه؛ إذ إنَّ الناس إذا رأوه مُتصدِّرًا أَوْرَدُوا عليه من المسائل ما يبيِّن عَوَاره. **الأمر الثالث**: أنه إذا تصدَّر قبل أن يتأهَّل لزمه أن يقول على الله ما لا يعلم؛ لأنَّ الغالب أنَّ مَن كان هذا قصده، أنه لا يبالي ويجيب على كل ما سُئِلَ عنه، ويخاطِر بدينه وبقوله على الله ﷻ بلا عِلْم. **الأمر الرابع**: أنَّ الإنسان إذا تصدَّر فإنه في الغالب لا يقبل الحق؛ لأنه يظن -بسَفَهه- أنه إذا خَضَع لغيره -ولو كان معه الحق- كان هذا دليلًا على أنه ليس بعالِم»[1].

ويُفسِد هذا الأمرُ شخصَ المُتَرَبِّي كلَّما كان في فئةٍ عُمْريةٍ أقل، فيجب عدم التعجُّل في تصدير المُتَرَبِّي إلى الميدان الدعوي الجماهيري، وأن يُبنَى جيدًا إيمانيًّا وعلميًّا وسلوكيًّا، وأمَّا إذا كان من الصغار وآتاه اللهُ ﷻ موهبةً في الإلقاء أو الترتيل فلا يُصدَّر باستمرار، ويكون تصديره بقَدْرٍ بسيط، فالأَوْلى هو بناء الشخص وسلامة صَدْره ونفسه قبل تصديره؛ مصداقًا لقول عُمَر بن الخطاب رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»[2]، وقال ابن عَطَاء الله السَّكَنْدَرِيّ رحمه الله: «اِدْفِنْ وُجُودَكَ في أرضِ الخُمُول؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَم يُدْفَن لا يَتِمُّ نِتَاجُه»[3]، ويقول محمد الغزالي رحمه الله مُعلِّقًا على كلام ابن عَطَاء الله السَّكَنْدَرِيّ: «هذه الكلمة أفضل توجيهٍ لمَن يريدون الظهور على عَجَل، ومَن يتوهمون أنَّ

---

(١) محمد بن صالح العثيمين. **كتاب العلم**. دار البصيرة، الإسكندرية. ط١، ١٤٢٤هـ. ص٦٢.

(٢) رواه البخاري مُعلَّقًا. باب: الاغتباط في العلم والحكمة.

(٣) ابن عطاء الله السكندري. **الحِكَم العطائية**. مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة. ط١، ١٤٠٨هـ. ص١١٤. الحِكمة رقم (١١).

نصيبًا قليلًا من المعرفة والخبرة كافٍ في الترشيح لقيادة الجماهير والصَّدَارة بين الناس، وهؤلاء في الحياة لا حَصْرَ لهم. إنَّ مَنصب الإمامة في آفاق الدُّنيا أو في آفاق الدِّين يتطلب صبرَ السنين وتَغْضِين الجَبين؛ فَلْيصنع المرءُ نفسه أولًا في عُزلةٍ وفي صمتٍ وفي تُؤَدَة، كالشجرة التي يختفي أصلها في ظُلمة التراب أمدًا، تتكَوَّن فيه التكَوُّن الصحيح، ثم تبدأ تشقُّ طريقها إلى الهواء والضوء»[١].

سائقٌ لا يَعرِف القيادة!

من الصُّوَر الكارثية في استعجال الثمر؛ تصديرُ بعض المُتَرَبِّين في الميدان التربوي دون اكتمال نُضْجهم ودون إدراكهم لحجم المسئولية التي على عاتِقهم، وتلك الحالة هي أخطر من سابِقَتها؛ لأنك تُصدِّر شخصًا غير مُؤَهَّلٍ لمُهِمَّةِ بناءِ ضميرِ الأفراد ومُعتقداتهم! وللأسف تَجِدُ أصحاب الأعمال الدُّنْيَوِيَّة -من أصحاب المصانع والشركات- يهتمُّون بكفاءة موظفيهم وعُمَّالهم؛ كي يضمنوا جودة المنتج الذي يستطيعون مُعالَجته، بينما نتساهل نحن في تصدير المُتَرَبِّين في ميدان تصعب مُعالَجة أخطائه. وقد وضَّح محمد الراشد أنَّ اكتمال التجربة الحياتية للداعية شرطٌ لتصدُّره؛ حيث قال: «يجبُ أن يتأنَّى الداعية إلى حين اكتمال رجولته وتجربته الحياتية؛ فإنَّ الأيام لا تزال تزيد المرء تجربةً وعِلْمًا»[٢].

فعلى الكِيَانات الدعوية ألَّا تفرح بكثرة المُتصدِّرين، وألَّا تصدِّر بعض

---

(١) محمد الغزالي. **الجانب العاطفي من الإسلام**. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة. ط٣، ٢٠٠٥م. ص١١٤.

(٢) محمد أحمد الراشد. **العوائق**. دار المنطلق، الإمارات العربية المتحدة. ب.ط. ١٩٩٤م. ص٧٩. بتصرف يسير واختصار.

الأشخاص لسدِّ عجزٍ في مرحلة عُمْريةٍ مُعَيَّنةٍ، فمُرَبٍّ واحدٌ ذو كفاءةٍ خيرٌ من مائةٍ لم تنضج ثمرتهم؛ وسبيل ذلك هو وَضْعُ معايير لاختيار المُرَبِّين، والنَّأْيُ عن العشوائية والفَوْضَوِيَّة أثناء تصديرهم للعمل، ولا سيَّما أنَّ الميدان التربوي هو المَنبع الرئيس الذي يفيض على كل الأودية من مُخرَجاتٍ بشريةٍ للعمل الإسلامي في جميع التخصُّصات.

الثمرة المُتوَهَّمة:

من صُوَر استعجال الثمر أيضًا؛ رَبْطُ الثمرة بالمظهر الخارجي للمُتَرَبِّي؛ أيْ جَعْل السَّمْت الظاهر للمُتَرَبِّي هو الحاكِم الوحيد على نُضْج الثمرة، وهذا من أشدِّ صُوَر الاستعجال سذاجةً! فالسَّمْتُ الظاهرُ أمرٌ مُهِمٌّ -بلا شك-، وهو -غالبًا- يدل على صلاح الباطن، لكن على المُرَبِّي ألَّا يجعله المعيار الوحيد على اكتمال نُضْج ثمرة التربية مع المُتَرَبِّي؛ فالدعوة إلى الله ﷿ تتطلَّب مُقوِّماتٍ أخرى تكميلية للسَّمْت الظاهر، والتصدُّر من دونها يأتي بنتائج عكسية -غالبًا-!

الإنجاز السلبي:

من الصُّوَر الخاطئة أن يتعجَّل المُرَبِّي في إنجاز الخطة الموضوعة للمُتَرَبِّي، سواء في العلوم الشرعية أو في الأوراد التعبُّدية، ظنًّا منه أنَّ ذلك يرتقي به بصورة سريعة، فيُصدَم بعكس ما في توقُّعه؛ والسبب أنَّ الخطة المرسومة للمُتَرَبِّي وُضِعَت وفقًا لإمكانات المُتَرَبِّي ومرحلته، والضغط عليه بإعطائه جرعات زائدة من الخطة يكون له أثر سلبي عليه؛ من قِلَّة هَضْمٍ لِمَا أخذه من علوم، أو تكاسُله عن بعض الطاعات التي ليست في مستواه، فيظن خاطئًا أنه قد أصابه الفتور أو الانتكاس! ولكي نتفادى ذلك كله علينا أن نسير وفق الخطط الموضوعة

للمُتَرَبِّي، تلك الخطط التي تُراعَى فيها إمكانات المُتَرَبِّي وميوله ووقته، ويتجسَّد هذا المثال في قول الله ﷻ لنبيِّه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[1]؛ فنهى اللهُ ﷻ الرسولَ ﷺ عن العَجَلة في حِفْظ القرآن حتى يُجمَع في قلبه.

وأخيرًا: إنَّ الناظر في حال أعداء الإسلام والعاملين في التبشير سيَعْجَب أشدَّ العَجَب من تمهُّلهم وتأَنِّيهم في رؤية ثمرتهم، فحملاتهم تنزل البلدان الفقيرة تقدم الخدمات الصحية والمادية والتعليمية لعشرات السنين، ثم بعد ذلك يبدأون في الدعوة لعقيدتهم وفكرتهم الباطلة، بينما الكثير من أبناء الإسلام يريد أن يرى الثمرة من وقت بَدْء العمل!

فنحن -المسلمين- أَوْلى منهم بالتُّؤَدَة والأَناة في دعوة الناس وتعبيدهم لله ﷻ، وفي هذا الشأن جاء حديث النبي ﷺ نبراسًا يهدينا لصِفَتَيْن يحبهما الله ﷻ؛ فقد قال ﷺ لأشَجِّ عبد القَيْس رضي الله عنه: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ، وَالأَنَاةُ»[2]. وقد علَّق ابن العثيمين رحمه الله على حديث خَبَّاب بن الأَرَت رضي الله عنه عندما جاء إلى النبي ﷺ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكعبة؛ فقال خَبَّاب: «أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو اللهَ لَنَا؟...»[3]؛ قال ابن العثيمين: «فلْيصبر المؤمن ولْينتظر الفرج ولا يَمَلّ ولا يَضْجَر، بل يبقى راسيًا كالصخرة، والعاقبة للمتقين، والله تعالى مع الصابرين.

---

(١) القيامة: ١٦، ١٧.

(٢) رواه مسلم. باب: الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدِّين، والدعاء إليه. حديث رقم (٢٥).

(٣) رواه البخاري. باب: علامات النبوة في الإسلام. حديث رقم (٣٦١٢).

فإذا صَبَر وثابَر وسَلَك الطُّرُق التي توصل إلى المقصود، ولكن بطريق مُنظَّم وبدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة؛ فسَيَصِل إلى مُراده؛ لأنَّ أعداء المسلمين من المنافقين والكفار يمشون على خُطى ثابتة مُنظَّمة، ويحصِّلون مقصودهم. أمَّا السَّطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثوروا ويستنفروا؛ فإنه قد يفوتهم شيء كثير، وربما حصل منهم زَلَّة تُفسد كلَّ ما بَنَوْا -إن كانوا قد بَنَوْا شيئًا-، لكن المؤمن يصبر ويتَّئِد، ويعمل بتُؤَدَة ويُوَطِّن نفسه، ويخطِّط تخطيطًا مُنظَّمًا يقضي به على أعداء الله من المنافقين والكفار ويُفوِّت عليهم الفُرَص؛ لأنهم يتربَّصون الدوائرَ بأهل الخير، ويريدون أن يثيروهم، حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل؛ حينئذٍ استعلَوْا عليهم، وقالوا: «هذا الذي نريد»، وحصل بذلك شر كبير! فأنت أيها الإنسان لا تسكت عن الشر، ولكن اعمل بنظامٍ وبتخطيطٍ وبحُسن تصرُّفٍ وانتظر الفرج من الله ﷻ، ولا تَمَلّ، فالدرب طويل، لا سيَّما إذا كنتَ في أول الفتنة، فإنَّ القائمين بها سوف يحاولون -ما استطاعوا- أن يَصِلوا إلى قمة ما يريدون، فاقْطَع عليهم السبيل، وكُن أطول منهم نَفَسًا، وأشدَّ منهم مَكْرًا؛ فإنَّ هؤلاء الأعداء يمكرون، ويمكر اللهُ، واللهُ خير الماكرين»[1]. فَحَرِيٌّ بالعاملين في حقل الدعوة والتربية التحلِّي بالحِلْم والأَنَاة وعدم استعجال قَطْف الثمار قبل نضوجها.

---

(١) محمد بن صالح العثيمين. **شرح رياض الصالحين**. مدار الوطن للنشر، الرياض. ب.ط. ١٤٢٦هـ. ١/ ٢٥٢-٢٥٤. بتصرف يسير واختصار.

٤- فَهْمٌ مُغايِرٌ للإبل المائة

عن عبد الله بن عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا النَّاسُ كَالإِبِلِ المِائَةِ، لاَ تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً»[1]، والكثير من الناس يفهم هذا الحديث على وجهِ نُدْرة وجود الأشخاص المُخلِصين الأوفياء الذين يَحمِلون هَمَّ الأمانة كالراحلة، في كل مائةٍ لا توجد إلا راحلة تصلح للركوب؛ لأنَّ الذي يصلح للركوب ينبغي أن يكون شديدَ التحمُّل وَطِيئًا سهلَ الانقياد؛ وقد قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح كلمة «الراحلة»: «يعني أنَّ المَرضِيَّ المُنتَجَب من الناس في عِزَّة وُجُوده؛ كالنجيب من الإبل القوي على الأحمال والأسفار الذي لا يُوجَد في كثيرٍ من الإبل»[2]، ويقول ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «الراحلة النجيبة المُختارَة من الإبل للركوب وغيره، فهي كاملة الأوصاف، فإذا كانت في إبلٍ عُرفَت»[3]، والراحلة

---

(١) رواه البخاري. باب: رفع الأمانة. حديث رقم (٦٤٩٨).

(٢) ابن الأثير. **النهاية في غريب الحديث والأثر**. تحقيق: محمود محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي. المكتبة العلمية، بيروت. ب.ط. ١٣٩٩هـ. ١/ ١٥.

(٣) النووي. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ط٢، ١٣٩٢هـ. ١٦/ ١٠١.

تُطلَق على الذَّكَر والأنثى؛ قال الأزهري[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الراحلة عند العرب؛ الذَّكَر النجيب والأنثى النجيبة، والهاء في الراحلة للمُبالَغة»[٢].

فَضَرَب النبيُّ ﷺ المثال بالراحلة بقصد شِدَّة المُكابَدة والقدرة على تحمُّل الأمانة، وبالبحث في أنواع الإبل وجدتُّ -على سبيل المثال لا الحصر- «أنَّ «الراحلة» هي نوعٌ ضِمْن أنواعٍ كثيرةٍ، وتُعَدُّ هي الناقة الصالحة للسفر، وأمَّا بقية الأنواع فهي تُجِيد مَهَامَّ أخرى؛ مثل: الإبل الخاصة بالحمل والرضاع كـ«المجاهيم»؛ التي تتميز بحجمها الكبير ولَبَنها الوفير، لكنها لا تصلح للسفر كـ«الراحلة». وهناك نوع ثالث يُسمَّى «المعاويد» وهو ذُكُور الإبل التي ترفع الماء من الآبار. وهناك نوع رابع يُسمَّى «القعود» وهو يُستخدَم في الركوب وحَمْل الزاد للرُّعاة»[٣].

ففَهْم الدُّعاة والمُرَبِّين لمقصد النبي ﷺ بنُدْرة «الرواحل» في الناس هو -بلا شك- فَهْمٌ صحيحٌ، ولكن البعض يُضيِّق دائرة فَهْمه بالتركيز على الاستفادة من «الرواحل» فقط دون الاستفادة من البقية مُتعدِّدة التخصُّصات، وهذا يحتاج إلى توسيع دائرة فَهْمه بإجادة غير «الرواحل» لمَهَامَّ أخرى -مثل الإبل وتخصُّصاتها التي أسْلَفْنا ذِكْرها-. ولقد كان تعبير النبي ﷺ دقيقًا وذا بُعدٍ بلاغيٍّ في اختياره الإبل على وجه الخصوص؛ لِمَا فيه من إشارة إلى أنه كما تمت الاستفادة من

---

(١) المقصود هو الإمام اللغوي: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي، صاحب معجم «تهذيب اللغة» المعروف، تُوُفِّي عام (٣٧٠هـ).

(٢) ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. دار المعرفة، بيروت. ب.ط. ١٣٧٩هـ. ١١/ ٣٣٥.

(٣) تقرير في جريدة الاتحاد الإماراتية. بعنوان **«الإبل.. أسماؤها تعكس تصنيفاتها وفق معايير متعددة»**.

«الرواحل» في تحمُّل الأمانة والاعتماد عليها في المسئوليات الصعبة، فهناك أيضًا غيرها من الأصناف يُمْكِن الاستفادة منها، كُلٌّ بتخصُّصه الذي يُجِيده.

فكما خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الإبل بأنواعٍ مُتعدِّدة، كُلُّ نوعٍ له تخصُّص مُعيَّن ومهارة يتميَّز بها؛ فالبشر أيضًا خُلِقوا كذلك، كُلٌّ منهم له مهارة يُجِيدها وميول تستهويه، ومُهِمَّة الداعية والمُرَبِّي هو توظيف تلك المهارات -على اختلافها- في مكانها الصحيح، ووَضْعها على الثَّغْر المناسب، وهكذا كان هَدْي النبي ﷺ مع أصحابه الكرام رضي الله عنهم؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَقْضَاهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»[1]؛ فبمعرفة النبي ﷺ لمواهب وميول أصحابه استطاع توظيف كُلٍّ منهم في مكانه الصحيح، ووضعه على الثَّغْر الذي يناسب تخصُّصه؛ حتى كان كُلُّ فَرْدٍ منهم لَبِنةً قويةً في صَرْح الأُمة.

والنبي ﷺ لم يختر الرواحل فقط وترك الآخرين دون الاستفادة منهم، بل وظَّف كل شخصٍ في المكان الذي يُجِيده، فكما وَظَّفَ معاذ بن جَبَل في العِلْم، ومُصْعَب بن عُمَيْر في الدعوة، وأبا موسى الأَشْعَرِيّ في تلاوة القرآن، وبِلالًا في الأذان لنَداوة صوته، وثابت بن قَيْس في الخطابة لأنه جَهْوَرِيُّ[2] الصوت وبليغ العبارة، ونُعَيْم بن مسعود في غزوة الأحزاب بالتخذيل عن المسلمين لأنه أسْلَمَ ولم يُعْلِم قومه بذلك، ودِحْيَة الكَلْبِيّ وعبد الله بن حُذَافَة السَّهْمِيّ وعمرو بن

(١) صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير. حديث رقم (٨٩٥).

(٢) ذو الصوت المرتفع القوي.

العاص وعمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ وحَاطِب بن أَبي بَلْتَعَة سفراء للملوك لِمَا فيهم من وَجَاهةٍ وبَلَاغةٍ وبَدَاهةٍ، وخالد بن الوليد وعِكْرِمَة بن أَبي جَهْل وأسامة ابن زيد في القتال لأنهم كانوا الأقدر على فنون القتال؛ فكما وَظَّف النبيُّ ﷺ هؤلاء رضي الله عنهم في كل هذه المَهَامِّ العظيمة؛ فإنه وَظَّف أيضًا غيرهم في سقاية الجيوش وإطعامها، وأعمال المراقبة والحراسة، وغير ذلك من المَهَامِّ التي لا تتطلب قدرات ومهارات عالية. فلم يَكُن أحد في مجتمع النبوة بلا وظيفة أو مُهِمَّة يقوم عليها ويُحسِنها ويُؤدِّيها على وجهها الأكمل.

فلو كان النبي ﷺ يختار «الرواحل» فقط؛ لَاخْتار عشراتٍ من الصحابة ولم يُعِرْ البقية اهتمامًا، ولكنه المُرَبِّي الأعظم والداعية البصير ﷺ كان يستفيد بكل طاقة فَرْد مسلم حوله ويوظِّفها في بناء صَرْح الإسلام، دون مُحاباة أو مُجامَلة لأَحَد، ولقد رَدَّ الرسولُ ﷺ بعضَ طلبات الصحابة التي لا تُناسب ميولهم أو قدراتهم؛ فقد قال أبو ذَرٍّ رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قال: فَضَرَبَ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»[(١)]؛ فالاستفادة بقدرات المُتَرَبِّين لا تتم بشكل عشوائيّ أو فَوْضَوِيّ، وإنما تتم بوضع قدرات كل شخص في مكانها الصحيح.

ولم يَنحَصِر الأمر في توظيف النبيِّ ﷺ الصحابةَ بما يتناسب مع قدراتهم، بل إنَّ الأمر كان أبعد من ذلك؛ فقد استفاد النبيُّ ﷺ أيضًا من أفكارِ وخبراتِ الحضارات الأخرى غير المُسْلِمة؛ مثل: استجابته ﷺ لفكرة سلمان الفارسي رضي الله عنه في حفر خندقٍ على الحدود الشمالية للمدينة المنورة؛ كوسيلةٍ

(١) رواه مسلم. باب: كراهة الإمارة بغير ضرورة. حديث رقم (١٨٢٥).

دفاعيةٍ في غزوة الأحزاب، مع أنها فكرةٌ فارسيةٌ من الأساس[١]. وكذلك استجابته ﷺ للخبرة الرُّومية في النجارة؛ حين عَرَضَ عليه تَميم الدَّاري[٢] رضي الله عنه أن يصنع له مِنبَرًا، فاستجاب له النبيُّ ﷺ، مع أنها فكرةٌ روميةٌ من الأساس[٣]. فقد اعتمد النبيُّ ﷺ العديدَ من الأفكار المُستمَدة من الحضارات الأخرى غير المُسْلِمة، ما دامت لا تُعارِض عقيدة وأحكام الإسلام.

وأخيرًا: إنَّ النبي ﷺ حينما أشار إلى «الرواحل» كان يشير إلى نوعٍ مُعيَّنٍ في قمة الهَرَم، نوعٍ يتميز بشدة التحمُّل وعِظَم التفاني والتضحية، ولم يَكُن يقصد التركيز على هذا النوع وَحْدَه وإهمال باقي الهَرَم؛ فالعلاقة بين «الرواحل» وغيرها هي علاقة تكامُلِية، فلو اعتبرنا «الرواحل» هي عماد الكِيَان فإنَّ غيرها يكتمل بها البناء وتتزيَّن بها أدق تفاصيله؛ فلا كِيَان يقوم بلا عماد، ولا كِيَان يستمر بلا اكتمال.

---

(١) علي محمد الصلابي. **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث**. دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ط٧، ١٤٢٩هـ. ص٥٩٤. بتصرف واختصار.

(٢) كان تَميم الدَّاري رضي الله عنه كثيرَ السفر إلى أرض الرُّوم؛ لذلك تعلَّم النجارة من هناك. وقد اختلف العلماء في اسم صانعِ مِنبَرِ رسول الله ﷺ على أقوالٍ شتَّى؛ فمنهم مَن قال: «تَميم الدَّاري» وهو الأرجح عندي، ومنهم مَن قال: «باقول الرُّومي»، ومنهم مَن قال: «إصباح»، ومنهم مَن قال: «إبراهيم»، ومنهم مَن قال: «قَبِيصَة المَخْزُومِي»، ومنهم مَن قال: «مَيمون».

(٣) ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. ٢/ ٣٩٨، ٣٩٩. بتصرف واختصار.

٥- بالمنهج أم بالمُرَبِّي؟

«مَن كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات،
ومَن كان يعبد اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت»[١]

قانونٌ رَبَّانيٌّ أطلَقَه صاحبُ النبيِّ ﷺ وخليلُه أبو بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم وفاة النبيِّ ﷺ، مُعلِنًا به أنَّ ارتباط المسلم يكون بالمنهج لا بالأشخاص، مَهْمَا بلغت المحبة والتقدير لذلك الشخص، حتى ولو كان هذا الشخص هو النبي ﷺ، أعلَنَ أبو بكرٍ ذلك القانون بعد صَدْمة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بموت النبي ﷺ وانعقاد ألسنتهم؛ ليَسْتَفِيقوا من تلك السَّكْرة التي حلَّت بهم.

ذلك القانون الذي تحتاجه المحاضن التربوية التي ارتضت الإسلامَ دينًا وسُنةَ النبي ﷺ سبيلًا ومنهاجًا؛ لِمَا يطرأ من خطر التعلُّق بالشخص أو الكِيَان المُنتمَى إليه، وهي إشكالية واردة بشكل كبير لطبيعة العلاقة بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّي من عاطفةٍ وتوجيهٍ وثقةٍ، ولكن ديننا الحنيف يُعلِّمنا أنَّ التعلُّق يكون بالعامل الثابت (وهو: الشرع)، لا بالعامل المُتغيِّر (وهو: الشخص)، فالأشخاص تتغير قناعاتهم وأفكارهم ومبادؤهم، وقد يُفتَنون أو يُبدَّلون، بينما المنهج لا يتبدَّل ولا يتغيَّر؛ وكما قال عبد القادر عودة رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنها دعوة الله عَزَّ وَجَلَّ وليست دعوة

(١) ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. ٨/ ١٤٥.

أشخاص، وإنَّ الله علَّم المسلمين أنَّ الدعوة ترتبط بالدُّعاة إليها، وأنَّ حظ الأشخاص منها أنَّ مَن عمل لها أكرمه الله بعمله، ومَن ترك العمل لها فقد أبعد الخير عن نفسه، وما يَضُرُّ الدعوة شيئًا»(١).

وقد أراد اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن يُربِّي الصحابةَ والأُمةَ كلها على هذا القانون؛ فأنزل الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٢)؛ وقد علَّق صاحب الظلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تلك الآية قائلاً: «وكأنَّما أراد اللهُ سبحانه بهذه الحادثةِ وبهذه الآيةِ أن يَفطِمَ المسلمين عن تَعلُّقِهم الشَّديدِ بشخصِ النبيِّ ﷺ وهو حَيٌّ بينَهم، وأن يَصِلَهم مُباشَرةً بالنَّبعِ، النَّبعِ الَّذي لم يُفجِّرْه مُحمَّدٌ ﷺ، ولكنْ جاء فقط لِيُومِئَ إليه ويدعوَ البشرَ إلى فَيْضِه المُتدفِّقِ كما أَومَأَ إليه مَن قَبْلَه من الرُّسُلِ ودَعَوُا القافلةَ إلى الارتواءِ منه! وكأنَّما أراد اللهُ سبحانه أن يأخذَ بأيديهم فيَصِلها مُباشَرةً بالعُرْوةِ الوُثْقى، العُرْوةِ التي لم يَعْقِدْها محمدٌ ﷺ إنَّما جاء ليَعْقِدَ بها أيديَ البشرِ، ثُمَّ يَدَعهم عليها ويمضي وهُم بها مُستمسِكون! كأنَّما أراد اللهُ سبحانه أن يجعلَ ارتباطَ المسلمين بالإسلامِ مُباشَرةً، وأن يجعلَ عهدَهم معَ اللهِ مُباشَرةً، وأن يجعلَ مسئوليَّتَهم في هذا العهدِ أمامَ الله بلا وسيطٍ؛ حتى يستشعروا تَبِعتَهم المُباشِرةَ التي لا يُخلِيهم منها أن يموتَ الرسولُ ﷺ أو يُقتَلَ؛ فهُم إنَّما بايَعوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ، وهم أمامَ الله مسئولون!»(٣).

فقد وجَّهَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الصحابةَ إلى ذلك القانون على الرغم من تربيتهم على

---

(١) عبد القادر عودة. **مجلة الدعوة**. العدد الثاني والخمسون.

(٢) آل عمران: ١٤٤.

(٣) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ١/ ٤٨٦.

يَدِ خير وأكمل البشر ﷺ، فما بالك بمَن يُرَبِّي الأفراد على التعلُّق بالكِيَانات والأشخاص الذين لم يَبْلُغُوا مِعْشَار كمال وحِكمة وعَظَمة رسول الله ﷺ؟! لذلك وَجَبَ على جميع الكِيَانات والأشخاص ضَبْط تلك الشَّعْرَة الدقيقة التي تُفرِّق بين تعلُّق المُتَرَبِّين بمُرَبِّيهم من حيث التوجيه والعلاقة العاطفية، وبين التعلُّق بالمنهج الصحيح إذا انحرَف المُرَبِّي عنه.

«فالمُرَبِّي ما هو -من الناحية التربوية- إلا أداة إجرائية بالقصد الأصلي، تساعد على تنزيل العملية التربوية على أحسن وَجْهٍ، وتُمثِّل فِعْل الأمر «قُلْ» المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1]، فلم يذكر النَّصُّ الرسولَ ﷺ حينما تعلَّق الأمر بمسألةٍ تعبُّديةٍ تربويةٍ؛ حيث وَجَبَ الربط المُباشِر للمُتَرَبِّين بالله ﷻ؛ إذ لم تكن المسألة تعليميةً يرتبط الجواب فيها بوجود المُعلِّم الشارح كما في سائر أسئلة القرآن الكريم؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾[2]، ونحوها كثير -كما هو معلوم-»[3].

لقد كان ذلك القانونُ الرَّبَّانيُّ مُطَبَّقًا لدى كل أنبياء الله ﷻ في دعوتهم للناس؛ فهذا سيدنا عيسى عليه السلام يُخاطِب الحواريين قائلًا: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[4]، فكان الجواب من الحواريين: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) فريد الأنصاري. **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**. ص٦٠.

(٤) آل عمران: ٥٢.

مُسۡلِمُونَ ﴾(١)، لم يَقُلْ عيسى ﵇: ﴿ مَنۡ أَنصَارِيٓ ﴾ وحَسْب، بل نَسَبَها إلى الله ﷻ، وعلى نَسَق السؤال جاء رد الحواريين: ﴿ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾، ولم يقولوا: «نحن أنصارُك».

وسحرة فرعون أيضًا وجَّهونا إلى ذلك القانون في قولهم بعد وقوع معجزة سيدنا موسى ﵇ يوم الزينة: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴾(٢)، فلماذا لم يقولوا: «آمنا برب موسى» وحَسْب؟! ولماذا أضافوا سيدنا هارون ﵇ أيضًا في كلامهم، بالرغم من أنَّ سيدنا موسى ﵇ هو صاحب المشهد، ولم يَحدُث بين السحرة وسيدنا هارون ﵇ أي مناقشة أو مُحَاجَّة؟! فكأنهم أرادوا أن يقولوا: آمنا برب هارون كما آمنا برب موسى، رغم أنه لم يناقشنا ولم يُبْطِل سِحْرنا.

ما المقصود بالمنهج؟

أقصد هنا بالمنهج هو «دِين الإسلام»، وليس المبادئ والأفكار والوسائل التي يتبنَّاها الكِيَان الدعوي؛ فالمنهج هو «دِين الإسلام» الذي يتضمن التسليم لشرع الله ﷻ وارتضاء حُكمه في كل مناحي الحياة، فأحدُهم يظن أنه لو خالف الوسيلة المُتبَنَّاة فقد خالَف المنهج!

وفي ذلك وَجَبَ التنويه بأنَّ من الخطأ تنازُع كِيَانَيْن -لهما وسائل مختلفة- على فَرْدٍ للانضمام إلى أحدهما رغم اعتناقهما نفس المنهج والهدف، فهذا الأمر لا يختلف كثيرًا عن التربية على التعلُّق بالأشخاص والكِيَانات لا بالمنهج، وهذا التنازُع ليس من الإخلاص في شيء، فلو كان المُرَبِّي مُخلِصًا

(١) آل عمران: ٥٢.

(٢) طه: ٧٠.

لَتَرك المُتَرَبِّي لغيره يُرَبِّيه ما دام مُؤتمِنَه على دينه وضامنًا أنه مُنضَمٌّ إلى مُعسكَر الحاكِمية، حتى ولو كان بين الكِيَانَيْن اختلافات في الوسائل والآراء الفقهية؛ «فالرَّبْطُ التوحيديُّ الذي يقوم به المُرَبِّي؛ هو رَبْط بالمشروع الإسلامي أساسًا، فهو رَبْط بالله ﷻ. والرَّبْطُ الوساطيُّ الذي يقوم به الوسيط؛ هو رَبْط بالذات أو الذوات الشخصانية المُؤسِّسة للتنظيم والمُسَيِّرة له؛ فيكون الانحراف التربوي من أول الطريق؛ بحيث إنه بقَدْر ما يستطيع الفرد المُقتدِي بالمُرَبِّي تجريد قصده لله ﷻ وإخلاص أعماله له وَحْدَه سبحانه؛ بقَدْر ما يعجز الفرد المُقتدِي بالوسيط عن فعل ذلك، إلا من خلال استحضار تلك الوسائط التي كانت سبب انتمائه للحركة الإسلامية المَعْنِيَّة وسلوكه في نظامها التربوي؛ فيعمل العاملون بعد ذلك في إطار التوحيد بقصد التعبُّد، ويقع العاملون في إطار الوساطة في شَرَك قصد الحظ المُرتبِط بالأشكال والرسوم -على تعبير القوم-، وذلك قد يكون هو الشِّرك الخَفِيّ! إنَّ الداخل إلى مؤسسات العمل الإسلامي عبر منهج الوساطة؛ لا يدخله إلا لأنَّ فيه فلانًا وفلانًا، وتلك أُولى الآفات التربوية المُترتِّبة عن وساطة الوسيط، والتي تَغرِس في النفس تعصُّبًا حزبيًّا يَصْعُب معه -إن لم يَسْتَحِلْ- إنشاء الحوارات، وتوحيد الجهود، وتنسيق الأعمال، بل هو داعٍ خطيرٌ للانشقاقات والصِّدَامات «الأَخَوِيَّة»؛ لأن المُتَرَبِّين هنا إنما يؤمنون بأسماء الرموز، لا بما يدعون إليه أساسًا»[1].

ففي ظل الوقت الراهن الذي تَسْتَعِر فيه الموجات الإلحادية والعلمانية، والبُعد عن شرع الله ﷻ والتجرُّؤ على مُعاداة الدِّين؛ لا مساحة للاختلاف بين مشتركي الهدف من أَجْل فرد، بل الصواب أن يكون الاختلاف الذي بينهما

---

(١) فريد الأنصاري. **التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**. ص٦٢، ٦٣.

اختلافَ تنوُّعٍ وتكامُلٍ يسعى فيه كلاهما لجذب أكبر عددٍ من الناس لمُعسكَر الحاكِمية، دون التطرُّق لاختلاف الوسائل وهَدْر الوقت في مسائل اجتهادية فرعية، أو التعصُّب لرموزٍ أو كِيَاناتٍ أو أشخاصٍ مما يُخِلُّ بالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ ومنهج الشرع الحنيف.

٦- تكامُل جوانب التربية

عمليـة التربيـة شـديدة الشَّبَه بعملية تشـييد المبـاني، فكمـا أنَّ عمليـة تشـييد المبنى لا تَتـمُّ إلا بشـكلٍ مُتكامِـلٍ؛ مـن تصميـم المعمـار، وصَـبِّ الأسـاسـات، وإتمـام الكماليـات والدِّهانـات وأعمال الكهرباء والنجارة ليَخْرُج البناء في أَبْهى وأكمـل صـورة؛ فكذلـك العمليـة التربوية يجـب أن تكـون مُتكامِلةً ليَخْرُج البناء التربـوي في أَبْهـى وأكمـل صـورة، فالكِيَانـات المُتميِّـزة هـي التـي تحـرص علـى تكامُـل الجوانـب التربويـة في بنـاء أفرادهـا؛ مثل: الجوانـب العِلْمية، والسـلوكية، والاجتماعية، والفكرية، ...إلخ.

فالإنسـان كائـن مُتكامِـل، خلقه الله ﷻ بجوانب شـخصية مختلفـة؛ وهو ما يُوجِـب علـى مَـن يُربِّيه ويُشَـكِّل شـخصيته أن يهتم بكل تلـك الجوانـب، وإهمال جانـب مـن تلـك الجوانـب يصيـب بنـاء الشـخصية بالخَلَل كمـا هو المثـل في بناء المبـاني؛ فَهَـبْ أنَّ شـخصًا يَحفَـظ المتـون والكتـب والنصـوص دون الاهتمـام بالتربيـة الإيمانيـة؛ فلا شـك أنه سيكون شـخصًا كثيـر التنظير بعيدًا عـن التطبيق. وكذلـك الشـخص الـذي يملك قسـطًا وافرًا من العلوم الشـرعية لكـن بضاعته في

التربية الفكرية أو السياسية مُزْجَاة في ظل واقع الأُمة المَرير؛ فلا شك أنه سيكون شخصًا معزولًا عن واقعه، وسيكون حُكمه الشرعي على الأمور بعيدًا عن الصواب، وغير مُراعٍ لفقه الواقع ولا للمحيط البيئي والزماني والمكاني الذي يعيش فيه!

فالتكامُل والشمول الذي ندعو إليه هو صفة من صفات الشريعة الغَرَّاء؛ فإذا قُمتَ بتقليب صفحات فِهْرِس أيِّ كتابٍ من كُتُب الفقه الإسلامي؛ فستَجِدُ أحكام الطهارة والصلاة والصيام كما ستَجِدُ أحكام المواريث والمعاملات المالية والاجتماعية؛ فكذلك عملية التربية يجب أن تُراعَى فيها كل تلك الجوانب كما أراد رب العالمين الذي شَرَع هذا الدِّين لعباده وجَعَلَ من خصائصه التكامُل والشمول.

ماذا لو نَقَص جانب من جوانب التربية؟

وفي هذا المقام نحاول ضرب أمثلة على أثر نقصان كل جانب من الجوانب التربوية، وتأثيره السلبي على بناء الشخصية المُتكامِلة للمُتَرَبِّي؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر: «التربية الفكرية» إذا نقصت أو انعدمت؛ فإنها ستُؤدِّي لخَوَاءٍ مَعرفيٍّ عند المُتَرَبِّي، هذا الخَوَاء سيعزله تمامًا عن الواقع من حوله، وسيُنتِج شخصيةً صِفْرِية التقدير لفقه الواقع والشأن السياسي، فإمَّا أن يُناصِر الطواغيت ويُهلِّل لظُلمهم تحت غطاء أي مصلحة يرتئيها، وإمَّا أن يَسْبَح في بحر المثالية المُفرِطة والغُلُو إلى أن يَصِل إلى التكفير دون مُراعاة الظروف والنوازل.

«فلا يكفي الداعية أن يكون حصَّل العلوم الإسلامية، وجال في مراجع اللغة العربية والأدب والتاريخ، وأخذ حظَّه من العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية،

ولكنه مع هذا لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه، وما يقوم عليه من نُظُم، وما يسوده من مذاهب، وما يحركه من عوامل، وما يصطرع فيه من قُوى، وما يجري فيه من تيارات، وما يعاني أهله من متاعب، وبخاصة وطنه الإسلامي الكبير؛ بآلامه وآماله، وأفراحه ومآسيه، ومصادر قوته وعوامل ضعفه؛ وبعد ذلك وطنه الصغير، وبيئته المحلية، وما يسودها من أوضاع وتقاليد، وما تقاسيه من صراع ومشكلات، وما يشغل أهله من قضايا وأفكار»[١].

وأمَّا نَقْص «التربية الإيمانية» فإنَّ مخاطره كارثية على المُتَرَبِّي؛ فكيف تسير قاطرة قطار تجرُّ وراءها عددًا من العربات وهي لا تملك القدرة على جَرِّهم؟! وفي ذلك الجانب يُحذِّر صاحب الظلال رحمه الله قائلًا: «إنَّ هذا القلب البشري سريع التقلُّب، سريع النسيان، وهو يشفُّ ويشرق؛ فيفيض بالنور ويرفُّ كالشعاع؛ فإذا طال عليه الأَمَد بلا تذكير ولا تذكُّر؛ تبلَّد وقسا وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم !فلا بُدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بُدَّ من الطَّرقِ عليه حتى يرقَّ ويشفَّ؛ ولا بُدَّ من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلُّد والقساوة»[٢]؛ وبالخطأ يظن بعض الدُّعاة والمُرَبِّين أنه قد بلغ مرحلة الغِنى عن تلك التربية الإيمانية، والحقيقة عكس ذلك؛ فالمُرَبِّي هو أحق شخص بالاستزادة من التربية الإيمانية المُستمِرة التي لا تتوقف؛ حتى ينطبع هذا على تصرُّفاته وأقواله فيُؤثِّر على مَن يُرَبِّيهم. فمُرَبٍّ بلا تربية إيمانية هو كمعادلة بلا حل، كبناء بلا أعمدة، ككِيَان أجوف ينهار مع أول عاصفةٍ بلاءٍ تَعْصِف به، عاجز عن التأثير في غيره،

---

(١) عبد الله ناصح علوان. **مدرسة الدعاة**. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة. ط٢، ١٤٢٤هـ. ١/ ٣١١، ٣١٢.

(٢) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٦/ ٣٤٨٩.

فالتربية الإيمانية هي الشمس لبقية الأركان الأخرى من الشخصية، وهي حَجَر الزاوية لبقية الجوانب؛ «فالداعية حين يكون بهذه الأحوال، وتلك المُجاهَدات، فإذا خَطَب أو تَحدَّث أو دعا إلى الله؛ رأيتَ الإيمان يبرق من خلال عينيه، والإخلاص يشرق من تقاسيم وجهه، والصِّدْق يتدفق من حنان وجهه وخشوع لهجته وإشارة يده، بل كلامه يَسري في القلوب ويُبدِّد ظلام النفوس كما يَسري الماءُ القَرَاحُ الباردُ في النفوس العَطْشى، وكما يُبدِّد النورُ الساطعُ موجاتِ الظلامِ»[١].

التكامُل في التربية يتماشى مع الكون:

ما يُميِّز تكامُل العملية التربوية أنه مُتوائِم مع سُنة التكامُل الكونية التي خلقها البارئ جَلَّ جَلَالُهُ؛ «فإذا كان الشمول والتكامل من خصائص الصَّنعة الإلهية؛ فهُما إذًا من خصائص منهج التربية الإسلامية، فالمنهج هو الجانب التطبيقي للأصول التربوية؛ وبذلك فهو ليس غايةً في ذاته، ولكنه وسيلة لتحقيق غاية؛ هذه الغاية هي تنميةُ شخصيةِ الإنسان كله (جسمه، وعقله، ووجدانه) تنميةً شاملةً مُتكامِلةً، وهذا يقتضي أن يكون المنهجُ المُعَدُّ لهذا الغرض شاملًا مُتكامِلًا في خبراته وجميع أَوْجه مَناشِطه؛ فتكامُل جوانب الخبرة الإنسانية في منهج التربية الإسلامية يتماشى مع تصوُّر الإسلام وتكامُل أجزائه؛ لكونه صادرًا عن الإرادة المُباشِرة للواحد المُطلَق؛ وهو الله عَزَّ وَجَلَّ»[٢]؛ وبذلك يكون المُتَربِّي قد دار في فَلَك سُنة الله عَزَّ وَجَلَّ في كونه من الشمول والتكامُل التي أرادها في خلقه.

---

(١) عبد الله ناصح علوان. **مدرسة الدعاة**. ١/ ٢٠٣. بتصرف يسير.

(٢) فتحي حسن ملكاوي. **بحوث المؤتمر التربوي**. الشركة الجديدة للطباعة والنشر، عمَّان. ب.ط. ١٤١٢هـ. ٢/ ٨٥، ٨٦. باختصار.

«إنَّ منهج التربية الإسلامية منهج مُتكامِل، يكيل بالحق وبالعدل، فلا يطغى جانب في التربية الإسلامية على جانب إلا عاد على الفرد والمجتمع بأثر سلبي، ولكل جانب من جوانب التربية الإسلامية مسارها ومفرداتها ومضامينها ونصيبها من البرامج التربوية؛ لأنَّ الإنسانَ كُلٌّ لا يتجزَّأ، وبناؤه كبناء البيت؛ فإنَّ البيت -كبيرًا كان أو صغيرًا- يتكَوَّن من عدد من الغُرَف والمنافع، ولا نعرف بيوتًا ينقصها موقع للمطبخ -مثلًا- أو بيوتًا ينقصها موقع للحمَّام، فكل جزء في البيت له أهميته وإن تغيَّرت وظيفته»[1].

لذلك؛ وَجَبَ على مَن اشتغل بالتربية أن يراعي صياغةَ منهجٍ شاملٍ يراعي فيه جوانب خَلْق الإنسان المختلفة، والتي تحتاج كل منها إلى ما يغذِّيها على طول الطريق، وفَتْح قنواتٍ من الينابيع الرئيسة حتى تَصِل إليها مياه التكامُل لتَغْمُر الأودية الصغيرة.

---

(١) فايز سعيد الزهراني. **التربية من جديد**. دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، الرياض. ط١، ١٤٣٩هـ. ص١٠٤. باختصار.

٧- لكُلِّ امْرِئٍ ما نوى

التربية عملٌ شاقٌّ ومُكلِّفٌ من ناحية الجهد والوقت، وإن لم يكن المُرَبِّي فَطِنًا يَقِظًا للأخذ فيه بأسباب القبول فسيضيع جهده هدرًا؛ مصداقًا لقول النبيِّ ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[(١)]؛ فقد أَوْكَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مَن قصد بعمله غيره إلى نِيَّته؛ بدليل قول النبيِّ ﷺ: «فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». وقال ﷺ أيضًا: «لاَ أَجْرَ إِلَّا عَنْ حِسْبَةٍ، وَلاَ عَمَلَ إِلا بِنِيَّةٍ»[(٢)]؛ قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لمَن لم يتقصَّد بعمله امتثال أمره تعالى والتقرُّب به إليه»[(٣)].

وقد قُتِل رَجُل مع النبيِّ ﷺ يوم خيبر، فظنَّه الصحابةُ شهيدًا؛ فقال ﷺ: «كَلَّا؛ إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا[(٤)]»[(٥)]. وآخر قاتَلَ مع النبيِّ ﷺ قتالًا شديدًا، فلمَّا

---

(١) رواه البخاري. باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. حديث رقم (١).

(٢) صحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة. حديث رقم (٢٤١٥).

(٣) زين الدِّين المناوي. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة. ط١، ١٣٥٦هـ. ٦/ ٣٨٠.

(٤) أي: رأيتُه يُعذَّبُ في النار بسبب ثوبٍ سرَقه أو أخفاه، وأخَذه من الغنائم دون عِلْم النبيِّ ﷺ ومُوافَقته، ولم يؤدِّهِ ليُقسَم في الغنائم.

(٥) رواه مسلم. باب: غلظ تحريم الغلول، وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. حديث رقم (١١٤).

جُرح جرحًا غائرًا ولم يصبر عليه استعجل الموت فقتل نفسه؛ فأخبَرَ النبيُّ ﷺ أنه في النار[١]. فهؤلاء قد ضاع جهدهم هباءً بسبب النوايا الدَّسِيسَة التي كانت تختبئ داخل عملهم الصالح.

وكثيرة هي النيات الفاسدة المُختبِئة في الأعمال التربوية التي تصنع الحوائل بينها وبين القبول، والتي يكون شؤم أَثَرها على المُتَرَبِّي قبل المُرَبِّي نفسه! فقد كان قاصٌّ يجلس قريبًا من مسجد محمد بن واسع ﵀، فقال القاصُّ يومًا وهو يُوبِّخ جُلَساءَه: ما لي أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشَعِر؟ فقال محمد بن واسع: يا فلان، ما أرى القوم أَتَوْا إلا من قِبَلك، إنَّ الذِّكْر إذا خَرَج من القلب وَقَع على القلب[٢].

ما السبب؟

السبب الأول (طُول المُدة): فطُول وقت العملية التربوية سبب جدير لوقوع الكثير من المُرَبِّين في فخ انحراف النية، وهي مشكلة جميع الأعمال التعبُّدية التي تتَّسم بالاستمرارية أو الدَّيْمُومَة، والعملية التربوية قد تستغرق سنوات؛ مما قد يُؤدِّي إلى نسيان المُرَبِّي احتسابَه النية مع المُتَرَبِّي بسبب تكرار العمل ودخوله في دائرة العادة. أَضِف إلى ذلك امتزاجها بالطبائع البشرية المُتقلِّبة في مشاعرها وإحساسها.

---

(١) رواه البخاري. باب: إن الله يؤيد الدِّين بالرجل الفاجر. حديث رقم (٣٠٦٢). ومسلم. باب: غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة. حديث رقم (١١١).

(٢) شمس الدِّين الذهبي. **سير أعلام النبلاء**. تحقيق بإشراف: شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط٣، ١٤٠٥هـ. ٦/ ١٢٢.

السبب الثاني (تفاوُت النفوس البشرية): فالعملية التربوية تتعامل مع النفوس والطبائع البشرية، وهو أمر ليس له معايير ولا ضوابط؛ فالمُرَبِّي يختلط بنفوسٍ بشريةٍ مختلفةٍ، منها مَن تتآلف معه نفسُه ومنها لا؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ؛ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»(١)؛ وبسبب ذلك يَجِدُ المُتَرَبِّي صعوبةً بالِغةً في ضبط نواياه تجاه المُتَرَبِّي وتجاه زملائه في المحاضن التربوية، وقد يَجدُ المُرَبِّي صعوبةً في استحضار النية مع مَن تتنافر معه روحُه، وقد تتسرَّب نوايا دَسِيسَة فاسدة مع مَن تتآلف معه روحُه.

نوايا دَسِيسَة:

العمل التربوي يحمل في طَيَّاته أمورًا تَسْعَد بها النفس؛ مثل: (التسلية، وتوسيع شبكة العلاقات الاجتماعية، والتوجيه وسماع الأوامر، واكتساب الوَجَاهة والوقار بين المُتَرَبِّين)، وكل هذا خير إن تم ضبطه بالاحتساب، وتَندَسُّ تلك النوايا للمُرَبِّي مع امتداد العملية دون تذكيرٍ بالإخلاص، وكما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ المؤمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا توَّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ»(٢)؛ فمن المنطقي أن يقع في فِخَاخ تلك النوايا الفاسدة المُستتِرة داخل ثوب الطاعة، لا سيَّما مع عملٍ تعبُّديٍّ يمتد لسنوات، والشيطان قد يعرض عليك الغواية في ثوب الطاعة؛ فهو «يَعرِض الشرَّ في مَعرِض الخير، والتمييز في ذلك غامض، وأكثر العِبَاد به يَهلَكون»(٣).

---

(١) رواه البخاري. باب: الأرواح جنود مجندة. حديث رقم (٣٣٣٦). ومسلم. باب: الأرواح جنود مجندة. حديث رقم (٢٦٣٨).

(٢) صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير. حديث رقم (٥٧٣٥).

(٣) أبو حامد الغزالي. **إحياء علوم الدِّين**. دار المعرفة، بيروت. ب.ط. ب.ت. ٣/ ٢٨.

والشاهد أنَّ المُرَبِّين جميعهم يحتاجون إلى التذكير بمقصدهم الأول وهدفهم الرئيس، وتجديد عهدهم مع الله ﷻ، وإلجام نفوسهم بلجام الاحتساب المُستمِر؛ «فالدعوات لا تقوم على مَن يعتنقونها لأنها غالبة، ومَن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع، ومَن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع، وليَتَّجِروا بها في سوق الدعوات تُشترى منهم وتُباع! إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التي تتجه إلى الله خالصةً له، لا تبغي جاهًا ولا متاعًا ولا انتفاعًا؛ إنما تبتغي وجهه وترجو رضاه ﷻ»[1].

ومن النوايا الفاسدة الدَّسِيسَة أيضًا؛ الغَيْرةُ بين المُرَبِّين؛ وليس المُراد هنا التنافس المحمود المنصوص عليه في قول الله ﷻ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[2] الناتج عنه الأخذ بأسباب تنشيط المَحضن نفسه، وإنما المُراد هنا هو السلوك الذي يُنْقِص من قَدْر إخلاص المُرَبِّي؛ مثل: (التنافس في جَذْب المُتَرَبِّين والتسابق على حيازة بعض الطلاب المُتميِّزين لمَحضنه من أَجْل كَسْب سُمعة حَسَنة لنفسه، أو جَذْب بعض الطلاب ذوي الروح المَرِحة والكاريزما العالية رغم انتظامهم في محاضن أخرى)؛ فيصيب المُتَرَبِّين بالتشتُّت، أو بآثار عكسية قد تَصِل إلى تَرْكهم المحاضن بالكلية.

وقد يَغَار المُرَبِّي من أخيه المُرَبِّي إن كان نِتَاج مَحضن أخيه أفضل منه، وهذه الغَيْرة محمودة إذا كانت من باب الأخذ بأسباب تنشيط مَحضنه -كما بيَّنتُ سَلَفًا-، أما أن يحزن مُرَبٍّ لتفوُّق أخيه عليه في إخراج مُتَرَبٍّ ملتزمٍ بشرع الله ومهتدٍ بطريقه ﷻ؛ فهذا انحرافٌ صريحٌ عن النية الصالحة في تعبيد الناس لله ﷻ؛ لأنَّ

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٤/ ٢٢٦٨.

(٢) المطففين: ٢٦.

من الإخلاص أن يفرح المُرَبِّي بهداية المُتَرَبِّي سواء كان على يديه أو على يد غيره؛ فالمُرَبِّي عليه البذل، وعلى الله النتيجة، والله يؤتي فضله مَن يشاء؛ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[1].

حتى تُضْبَط البوصلة:

النية هي شرط من شروط قبول أي عبادة، فعبادة دون نية هي مجرد تشابه حركات وألفاظ للعبادة الأصلية؛ فالاغتسال من الجنابة دون نيةِ رفعِ الحدثِ هو مجرد غسل للتبرُّد أو النظافة فقط، ولا يرفع الحدث، وقِس على ذلك بقية العبادات؛ «فمن الشروط الأساسية لقبول الأعمال عامةً «الإخلاص»؛ حيث ينبغي أن يكون العمل خالصًا من الشوائب والدوافع الجانبية، وليس تحصيل الإخلاص بالأمر اليسير، وإنما يحتاج إلى يَقَظة تامة ومُجاهَدة دائمة، وإلا فما أسهل الانزلاق وانصراف النية أو تكديرها بمنفعة شخصية»[2]، وكما قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما يَتَعَثَّر مَن لم يُخْلِص»[3]، ومن أَجْل ألاَّ يضيع جهد إخواننا المُرَبِّين بسبب النوايا الدَّسِيسَة؛ سنرشدهم لبعض التوجيهات حتى تُضْبَط البوصلة، وتَصِل سُفُن أعمالهم إلى بَرِّ الطاعة والقبول، ولا تضل طريقها.

فكما ذكرتُ سَلَفًا أنَّ الأعمال التعبُّدية طويلة الأَمَد يتخلَّلها بعض النوايا الدَّسِيسَة التي تتسلَّل مع الوقت لإفساد إخلاص الفرد؛ وحلُّ هذه المشكلة هو التذكير الدائم وتجديد العهد مع الله عَزَّوَجَلَّ بالإخلاص، وعَمَل جلسات لمحاسبة

---

(١) الجمعة: ٤.

(٢) عبد الكريم بكار. **مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي**. دار القلم، دمشق. ط٢، ٢٠٠١م. ص١٢٠.

(٣) ابن الجوزي. **صيد الخاطر**. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٢هـ. ص٣٥٨.

النفس ومراجعتها؛ وتلك حقيقة أقرَّها النبيُّ ﷺ في حديثه: «إِنَّ المؤمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا توَّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ»[١]؛ قال المناوي رحمه الله في بيان معنى قوله ﷺ: «توَّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ»: «أي: يتوب، ثم ينسى فيعود، ثم يتذكر فيتوب»[٢].

وقد رَبَط القرآن الكريم بين «قسوة القلب ونسيان المَقاصِد» و«طول الأَمَد»؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]؛ وفي تفسير هذه الآية يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنَّ هذا القلب البشري سريع التقلُّب، سريع النسيان، وهو يشفُّ ويشرق؛ فيفيض بالنور ويرفُّ كالشعاع؛ فإذا طال عليه الأَمَد بلا تذكير ولا تذكُّر؛ تبلَّد وقسا وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم !فلا بُدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بُدَّ من الطَّرقِ عليه حتى يرقَّ ويشفَّ؛ ولا بُدَّ من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلُّد والقساوة»[٤].

وتكرار التذكير وتجديد مُعاهَدة القلب والقصد؛ من أدوية النوايا الدَّسِيسَة التي ذُكِرَتْ من قبل، والتي مع الوقت تصبح منافع دُنْيَوِيَّة يستفيد منها المُرَبِّي، بالإضافة إلى تذكُّر أنَّ «كثيرًا من جاذبية الدعوة نابع من اعتقاد المَدْعُوّين أنَّ ما يُدْعَوْن إليه لا يعود بالفائدة إلا عليهم، فهي دعوة لإنقاذهم من النار، ولإصلاح معاشهم في الدُّنيا؛ ولذا فإنَّ نظرتهم إلى الدُّعاة هي نظرة احترام وتقدير وإكبار؛ حيث يُضحُّون بأوقاتهم وراحتهم من أَجْل الآخرين، وقد كان من سُنة الأنبياء

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) زين الدِّين المناوي. **فيض القدير شرح الجامع الصغير**. ٥/ ٤٩١.

(٣) الحديد: ١٦.

(٤) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٦/ ٣٤٨٩.

-عليهم الصلاة والسلام- الإعلان لقومهم أنهم لا يبتغون من وراء دعوتهم منفعةً خاصةً على أي صورة من الصور؛ حتى يسدُّوا الطريق من أوله على المُرجِفين والمُرَوِّجين للدعاية المُضادَّة؛ وكان الشعار دائمًا: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1]»[2].

كما يجب على الكِيَان التربوي تفقُّد أبنائه، وتذكيرهم بشكلٍ مُستمِرٍّ بإصلاح نياتهم؛ كي لا يصيب شؤمُ غيرِ المُخلِص صفاءَ عملِ المُخلِصين؛ «فإنَّ للمجموعة قلبًا واحدًا مُشتركًا، يَضُره مرضُ البِضْعَة الصغيرة منه كما يَضُرُّ مرضُ بَعضِ قلب الفرد ذاك الفرد، فإذا مرض داعية برياء؛ تضرَّرَتْ جماعة الدُّعاة كلها بمرضه وتعثرت ومرض قلبها، حتى يتخلص منه بتوبة أو إبعاد»[3]. وهذا كالذي رُوِي أنَّ بَنِي إسرائيل قد أصابهم قَحْطٌ في عهد سيدنا موسى عليه السلام، وكان هذا القَحْط بسبب رَجُل ظَلَّ يعصي الله عز وجل أربعين سنةً، وظَلَّ القَحْط مُستمِرًّا إلى أن تاب هذا الرَّجُل؛ فلمَّا تاب أُمْطِروا مطرًا غزيرًا[4].

---

(١) الشعراء: ١٠٩.

(٢) عبد الكريم بكار. **مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي**. ص١٢١.

(٣) محمد أحمد الراشد. **العوائق**. ص٩٦.

(٤) ابن قدامة المقدسي. **كتاب التوابين**. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. دار الكتب العلمية، بيروت. ب.ط. ١٤٠٧هـ. ص٨٠-٨٢. بتصرف واختصار.

٨- اصبري ولكِ الجنَّة

عن عَطَاء بن أَبي رَبَاح قال: قال لي ابن عباس: أَلَا أُرِيكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قلتُ: بلى، قال: هذه المرأةُ السَّوْداءُ، أَتَتِ النبيَّ ﷺ فقالت: إِنِّي أُصْرَعُ، وإِنِّي أتَكَشَّفُ، فادْعُ اللهَ لي، فقال ﷺ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»، فقالت: أصبِرُ، فقالتْ: إِنِّي أتَكَشَّفُ، فادْعُ اللهَ أَلَّا أتَكَشَّفَ، فدَعا لها ﷺ[1].

تأمَّلْتُ قولَ النبي ﷺ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ»؛ فوجدتُّ ضرورة سؤالَيْن مُهِمَّيْن: ما الذي جعل النبي ﷺ يُخَيِّرها بين الأمرَيْن ولم يَدْعُ لها مباشرةً بالمُعافاة من أَلَم الصَّرَع؟! وما الحكمة من تقديم النبي ﷺ خيار الصبر ورَبْطه بالجنة وجَعْله خيارًا يَصعُب رفضه على الدعاء لها بالمُعافاة؟! والإجابة أنَّ النبي ﷺ حَرِصَ على ربط أصحابه ﷺ بالمُكافأة

(١) رواه البخاري. باب: فضل من يصرع من الريح. حديث رقم (٥٦٥٢). ومسلم. باب: ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشوكة يشاكها. حديث رقم (٢٥٧٦).

الأُخْرَوِيَّة التي لا تَعْدِلها مُكافأة، فكان يطرحها كحل في كثير من حلوله، سواء في البلاء الذي يتعرضون له أو في المعاصي التي يشتكي منها بعضهم، فكان يذكرهم ويربطهم بتلك المُكافأة ويُخَيِّرهم بين (الصبر والجنة) و(الجنة فقط)!

وقد مَرَّ النبِيُّ ﷺ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي»، قَالَت: إِلَيْكَ عَنِّي؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النبِيُّ ﷺ، فَأَتَتْ بَابَ النبِيِّ ﷺ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى»[1]. فتأمَّلْ نصيحة النبي ﷺ للصحابية المَكلُومة: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي» وعدم عرض بدائل دُنْيَوِيَّة عليها.

حتى الذين ابتُلوا بالشهوات والمعاصي؛ لم يكن النبي ﷺ حريصًا على طرح البدائل لهم أكثر من حِرْصه على ربطهم بالجنة وتذكيرهم بالحلال والحرام؛ فحين جاءه الشاب الذي استأذنه في الزنا حاوره النبي ﷺ بالمنطق وذَكَّره بالحلال والحرام ثم دعا له[2]، ولم يقترح عليه ﷺ بدائل، بل اكتفى

---

(١) رواه البخاري. باب: زيارة القبور. حديث رقم (١٢٨٣).

(٢) عن أَبي أُمَامَة رضي الله عنه قال: إنَّ فَتًى شابًّا أَتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فأَقبَلَ القومُ عليه فزَجَرُوه وقالوا: مَهْ، مَهْ. فقال ﷺ: «أُدْنُهْ». فَدَنَا منه قريبًا فجلس. فقال ﷺ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ يا رسول الله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قال: فَوَضَعَ يَدَه عليه وقال: «اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». قال: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذلك الفَتَى يَلتَفِتُ إلى شَيْءٍ. صحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة. حديث رقم (٣٧٠).

بتذكيره بالله ﷻ وفقط. وعلى هذا رَبَّى النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم على أنَّ الأصل هو الجنة، وأنَّ المُكافأة الأُخْرَوِيَّة لا تَعْدِلها مُكافأة، وأنَّ البديل الأُخْرَوِيّ لا يُنال إلا بالصبر على الترك ومجاهدة النفس، وإن لم يكن هناك بديل أو مقابل دُنْيَوِيّ.

فعلى الداعية ألَّا يُرَبِّي المَدْعُوّ على لزوم تَوَفُّر «البديل» لكل معصية، أو لزوم وجود مقابل دُنْيَوِيّ لكل طاعة، فيضع له الأناشيد مقابل الأغاني، والمسلسلات الدِّينية مقابل الأفلام والدراما، وهذا كله ليس فيه حرج شرعيّ، لكنه سيُحدِث خللًا في إيمان المَدْعُوّ حينما تقابله مَعَاصٍ بلا بديل، وطاعات بلا مقابل دُنْيَوِيّ، فماذا لو اضطرته الظروف للهجرة إلى مكان ليس فيه بديل عن شهوة دُنْيَوِيَّة ارتبط بها قلبه؟! بلا شك سيكون أقرب إلى الانتكاس بسبب تربيته على وجود البديل لكل شيء، ولم يرتبط بالآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[1]؛ وفي تفسيرها يقول صاحب الظلال رحمه الله: «الذين جاهدوا في الله ليصلوا إليه ويتَّصلوا به، الذين احتملوا في الطريق إليه ما احتملوا فلم ينكصوا ولم ييأسوا، الذين صبروا على فتنة النفس وعلى فتنة الناس، الذين حَمَلوا أعباءهم وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب؛ أولئك لن يتركهم الله وَحْدَهم، ولن يضيع إيمانهم، ولن ينسى جهادهم؛ إنه سينظر إليهم من عليائه فيرضاهم، وسينظر إلى جهادهم إليه فيهديهم، وسينظر إلى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم، وسينظر إلى صبرهم وإحسانهم فيجازيهم خير الجزاء»[2].

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٢/ ٢٧٥٢.

الدعوة منهجٌ عَقَدِيٌّ وليست نَمَطًا استهلاكيًّا:

رَبْطُ المَدْعُوّ دومًا ببدائل المعاصي والابتلاءات يصنع منه فردًا براجماتيًّا لا يتحرك إلا بوجود المصلحة أو المنفعة، إن لم يجدها فلن يتمكَّن من التكيُّف والصبر غير المُجدي له جدوى دُنْيَوِيَّة، وذلك عكس مُراد الفكرة المركزية لعقيدة الدعوة وتربية الرسول ﷺ للمسلمين وربطهم دومًا بما عند الله ﷻ من جزاء أُخْرَوِيّ.

كما أنَّ محاولة توفير البدائل تُدْخِل المَدْعُوّ في محاولة لأَسْلَمَة كل شيء، حتى ولو لم يكن قابلًا للأَسْلَمَة، وهذا ما تَكلَّم عنه «باتريك هايني»[1] في كتابه الشهير «إسلام السوق» وتأثُّر الدعوة بنَمَط الاستهلاك الرأسمالي الذي لا يتحرك إلا بمنفعة أو مقابل مادي، وهذا يظهر في محاولة أَسْلَمَة الموضة والأزياء، وأَسْلَمَة الأغاني، وفوبيا أَسْلَمَة كل شيء، وكأنه صار فرضًا على الدُّعاة إيجاد بدائل لكل ما هو مُحَرَّم.

أثَّر ذلك على منهج الدعوة بشكل كبير في عرض الشرائع؛ فصار الداعية يحاول تجميل الأوامر الشرعية بكلام يُشْبِه الأنماط الاستهلاكية وكأنه يروِّج

---

(١) سويسري الأصل، مُتخصِّص في العلوم الاجتماعية، حائز على جائزة أفضل أطروحة عن العالم العربي باللغة الفرنسية عام (٢٠٠١م)، تعلَّم اللغة العربية وأمضى وقتًا طويلًا في العديد من الدول العربية والإسلامية؛ مثل: مصر، والسودان، وبيروت، والمغرب، وسوريا، وتركيا. وهو باحث سابق في مركز الدراسات والتوثيق الاقتصادي والقانوني (CEDEJ) بالقاهرة، وكان مُنتدَبًا عن وزارة البحث العلمي الفرنسية، وعمل أيضًا مُحلِّلًا في مجموعة الأزمات الدولية ببيروت. وكتب العديد من الإصدارات المُستنِدَة إلى البحوث الميدانية. وكتابه هذا (إسلام السوق) كُتِب باللغة الفرنسية عام (٢٠٠٥م)، وتُرجم إلى العربية عام (٢٠١٥م).

سلعة من السلع! فتَجِدُ الداعية يدعو للحجاب ويحاول جاهدًا إثبات أنَّ المرأة المُحجَّبة أجمل من المُتبرِّجة، مع أنَّ المُتبرِّجة -في ميزان الدُّنيا- هي أجمل وأكثر إغراءً من المُحجَّبة، وهذا المبدأ الذي يستخدمه الداعية يتصادم في كثير من الأحيان مع المنطق، وعلى نفس النهج يحاول الداعية المُتأثِّر بهذا المنهج إقناع المَدْعُوِّين أنَّ الأناشيد أفضل من الأغاني، مع أنَّ الأغاني -في ميزان الدُّنيا- هي أَحَب وأقرب إلى النفس من الأناشيد.

والخَلَاص من ذلك كله هو عَرْض الأمور الشرعية كما هي، كمنهجٍ عَقَدِيٍّ قائمٍ على التسليم لله ﷻ، سواء جاء من وراء هذا الأمر الإلهي مَنفعة أو لا؛ حيث إنَّ الأصل في فِعْل الطاعات واجتناب المُحَرَّمات أن تكون ثقيلةً على النفس؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[1]؛ ومعنى الحديث أنه: «لن يَصِل المرء إلى الجنة إلا بارتكاب المَكاره، ولن يَصِل إلى النار إلا بارتكاب الشهوات، وكذلك هما مَحجوبَتان بهما؛ فمَن هَتَك الحجاب وَصَل إلى المَحجوب؛ فهَتْك حجاب الجنة باقتحام المَكاره، وهَتْك حجاب النار بارتكاب الشهوات. فأمَّا المَكاره فيَدخُل فيها: الاجتهاد في العبادات والمُواظَبة عليها والصبر على مَشاقِّها، وكَظْم الغَيْظ، والعفو، والحلم، والصَّدَقة، والإحسان إلى المُسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك. وأمَّا الشهوات التي النار مَحفوفة بها؛ فالظاهر أنها الشهوات المحرمة: كالخمر، والزنا، والنظر إلى الأجنبية، والغيبة، واستعمال الملاهي، ونحو ذلك»[2].

فالواجب أن يبتعد المُرَبِّي والداعية عن استخدام ذلك النَّمَط الدُّنْيَوِيّ

---

(١) رواه مسلم. كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها. حديث رقم (٢٨٢٢).

(٢) النووي. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. ١٧/ ١٦٥. بتصرف يسير.

النَّفْعِيّ في ترويج دعوته وشرائع الدِّين، وبدلًا من ذلك يسعى في ترسيخ معنى «التسليم» لأوامر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويغرس في نفوس المَدْعُوِّين قوة اليقين التي تُثْمِر بعد ذلك كمال الرضا بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ.

٩- المشغول لا يُشْغَل

«المشغول لا يُشغَل» هي قاعدة فقهية معروفة[١]؛ وهي تعني أنَّ الشيء إذا اشتُغل بأمر لا يُشغل بغيره حتى يفرغ من هذا المشغول به؛ فالدار المُؤجَّرة لا تؤجَّر حتى تفرغ المدة المُتَّفَق على تأجيرها، ولا تُشغل بآخَر حتى يفرغ الحق عنها.

ذكَّرَتني تلك القاعدة بما يحدُث في بيوت بعض المُرَبِّين والدُّعاة من إهمالٍ في تربية أبنائهم على حساب تربية آخرين في المساجد والمحاضن التربوية! وقياسًا على تلك القاعدة فإنَّ المُرَبِّي «المشغول» بتربية أبنائه «لا يُشغل» بتربية غيرهم حتى يُعطي النصيب الأكبر لمَن سيُسأل عنهم -وهم أبناؤه-، ولا يكون كالذي اشتغل بالمفضول عن الفاضل.

فريضة تربية الولد:

يقول الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

(١) جلال الدِّين السيوطي. **الأشباه والنظائر**. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١١هـ. ص ١٥١.

﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[(١)]؛ فهذا تكليفٌ رَبَّانِيٌّ يُفيد فرضية تربية الأبناء وبَذْل كل وسائل هداية «الإرشاد والدلالة»؛ اللازمة لتأديبهم والسعي لوضعهم على الطريق المستقيم.

كما امتدح الله ﷻ تطبيق تلك الفريضة في القرآن؛ فقال في حق سيدنا إسماعيل عليه السلام: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾[(٢)]؛ يقول السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «كان مُقيمًا لأمر الله على أهله؛ فيأمرهم بالصلاة المُتضمِّنة للإخلاص للمعبود، وبالزكاة المُتضمِّنة للإحسان إلى العبيد؛ فكمَّل نفسه وكمَّل غيره، وخصوصًا أَخَصّ الناس عنده، وهُم أهله»[(٣)]، وعطفًا على ذلك الأمر فقد حَرِصَ النبيُّ ﷺ على فِعل ما أثنى به الله سبحانه على سيدنا إسماعيل عليه السلام؛ استجابةً لقوله ﷻ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[(٤)]. وقد وضَّح النبيُّ ﷺ ذلك الحُكمَ في قوله: "كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ؛ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[(٥)].

ومن تلك الآيات الواضحات في أوامرها، ومن هذا الحديث الجلي في التوجيه وتحميل المسئولية؛ يتبيَّن فرضية تربية الأبناء في الإسلام، وإبطال ادِّعاء مَن يقول بأنها فضيلة أو عمل مُسْتَحَب؛ وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله:

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) مريم: ٥٥.

(٣) عبد الرحمن بن ناصر السعدي. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. تحقيق: عبد الرحمن اللويحق. مؤسسة الرسالة، بيروت. ط١، ١٤٢٠هـ. ص ٤٩٦.

(٤) طه: ١٣٢.

(٥) رواه البخاري. باب: الجمعة في القرى والمدن. حديث رقم (٨٩٣). ومسلم. باب: فضيلة الإمام العادل. حديث رقم (١٨٢٩).

«فَمَن أَهْمَلَ تَعْلِيمَ وَلَده مَا يَنْفَعُه وَتَرَكَه سُدًى؛ فقد أَسَاءَ إليه غايةَ الإساءَة. وَأكْثر الأولاد إِنَّمَا جَاءَ فسادُهم من قِبَل الآبَاء، وإهمالهم لَهُم، وَترك تعليمهم فَرَائِض الدِّين وسُننه؛ فأضاعوهم صِغَارًا؛ فَلم يَنتَفِعوا بِأنفسهم، وَلم يَنفَعُوا آبَاءَهُم كِبَارًا»[1].

استقالة مرفوضة:

أَذْكُر في يومٍ كلَّمني أحدُ الآباء «الملتزمين» لمُتابَعة وَلَده في المسجد، وكان يريد مني مُتابعةً مُحْكَمَةً لولده بعد التحفيظ، وبسبب انشغاله قال لي نصًّا: «اعتبِر أنه يتيم الأب»! ما زالت تلك العبارة تتردد في أذني رغم مرور السنين عليها؛ فالأب قدَّم في تلك العبارة «استقالته» ضمنيًّا من تربية ولده، وأراد التهرُّب من فَرْضٍ لا يصلح أن ينوب عنه أحدٌ في أدائه! هذا الموقف هو مثال صارخ لقلب الأولويات والاهتمام بالمفضول عن الفاضل، حتى ولو كان المفضول عملًا دُنْيَوِيًّا كوظيفة أو تجارة، أو أُخْرَوِيًّا كدعوة الناس وتعليمهم؛ أليس الأَوْلى ترميم شروخ بيتك أولًا قبل ترميم شروخ بيوت الآخرين!

إنَّ مثل تلك الاستقالات التربوية مرفوضة قبل تقديمها؛ لأنها ليست من حق طالبها أصلًا، ولا توجد أعذار -مَهْمَا بلَغَت قسوتها أو ضرورتها- تسوِّغ لأحد تقديم مثل تلك الاستقالات، لا سيَّما مَن كان يعمل في الدعوة إلى الله ﷻ ومشغولًا بدعوة الناس على حساب تربية أبنائه.

فتربية الأبناء مسئولية الوالدَيْن بالشراكة، حتى لو ساعدهما بعض المُرَبِّين

---

(١) ابن قيم الجوزية. **تحفة المودود بأحكام المولود**. تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. مكتبة دار البيان، دمشق. ط١، ١٣٩١هـ. ص٢٢٩.

أو الدُّعـاة في توجيـه أبنائهـم؛ فسـيظل مجهود هذا الداعيـة أو المُرَبِّي مُكمِّلًا، ولا يرقـى لجهـد الوالدَيْـن المطلوب منهمـا، فالعلاقة بين الأب وولـده كأُحْجِيَة لعبة الـ(puzzle)؛ كل قطعةٍ فيه لا تتوافق إلا مع قطعةٍ واحدةٍ فقط صُنعَت لتكمِّلها.

نُؤتَى من الداخل:

في بدايـة الصحـوة الإسـلامية في السـبعينيات والثمانينيات؛ ظَـنَّ -بل تيقَّن- البعضُ أنَّ زواج أصحـاب الفكـرة الإسـلامية سيُوَسِّـع القـاعدة العدديـة للتيـار الإسـلامي، بسـبب الثـمرة التي خَرَجَـتْ مـن بيـتٍ إسـلاميٍّ تَحُوطـه الضـوابط الشـرعية مـن جميـع الجهـات، ولكــن -للأسـف- وَجَدْنا أننا نُؤتَـى مـن الداخـل، وأنَّ القاعدة العددية تتآكل بدلًا من توسُّعها؛ بسـبب إهمال التربية داخل البيوت المُتَبَنِّيـة للفكـرة الإسـلامية، فتلـك المشـكلة تطلـب منَّـا درجـةً كبيـرةً مـن الوعي بالتربية واجتناب الإهمال في تربية أبنائنا؛ لإيقاف النزيف الداخلي في بيوتنا. وقد تكلَّمـتُ باسـتفاضة في ذلـك الأمر في كتابي «أبنـاء الملتزمين» -لمَن أراد الرجوع إليه-.

ولكـن في ذلـك العُنْصُـر أَوَدُّ تحذير الداعيـة -والمُرَبِّي خاصةً- من انشـغاله بالمفضـول (المُسْـتَحَب) عـن الفاضـل (الفـرض)، وتحذيـره مـن الاهتمـام بالمَدْعُوِّيـن في المحاضن التربوية على حسـاب أبنائـه الذين من صُلْبه، وتحذيره من ترك النزيف التربوي داخل بيته دون تضميد أو تسكين أو مُعالَجة.

ونحـن هنـا لا نطالب الداعية أو المُرَبِّي بترك العمل الدعوي بالكلية، ولكن نطالبـه بالتـوازن بيـن التربيـة الدعويـة والتربيـة الأُسَـرية، وإيـلاء التربيـة الأُسَـرية اهتمامه إذا احتاج الأمر؛ لأنها فريضة وسيُحاسَب عليها أمام الله ﷻ يوم القيامة.

الالتزام لا يُوَرَّث:

التديُّن ليس صفةً فطريةً وراثيةً يَرِثُها الولدُ بمجرد مَجيئه للدنيا من أبٍ وأُمٍّ مُلتزِمَيْن، وإنما هو صفة مُكتسَبة، فلا بُدَّ من بذل جهد الإرشاد والدلالة معه حتى يسلك طريق الهداية؛ كما قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والصبي أمانة عند والدَيْه، وقلبه الطاهر جوهرة نَفيسَة سَاذِجة خالية عن كل نَقْش وصورة، وهو قابل لكُل ما نُقِش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّد الخير وعُلِّمَه؛ نَشَأَ عليه وسَعِدَ في الدُّنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكلُّ مُعلِّم له ومُؤدِّب، وإن عُوِّد الشرَّ وأُهمِل إهمالَ البهائم؛ شَقِيَ وهَلَكَ، وكان الوِزْر في رَقَبة القَيِّم عليه والوالي له»[١].

فأُكذُوبة توريث الالتزام كانت سببًا في إهمال الدُّعاة تربية أبنائهم، بل كانت -أحيانًا- مُسكِّنات للضمير كلَّما قرَّعَه على تفريطه في حق أبنائه، فأبناء الدُّعاة والمُرَبِّين مثلهم مثل الأطفال الموجودين في المحاضن التربوية يحتاجون إلى الاهتمام والمُتابَعة؛ لضمان وصولهم إلى بَرِّ الأمان. كما أنَّ اهتمامك بأولادك هو ضمان تحقيق حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا؛ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٢]، فبدلاً من بحثك في المناطق البعيدة عن ذلك الرَّجُل، ابحث عنه في أبنائك وذُرِّيتهم، وانظر تحت قدمَيْك للثواب الأقرب والأَوْلى، واضرب عُصْفُورَيْن بحَجَرٍ واحدٍ.

---

(١) أبو حامد الغزالي. **إحياء علوم الدِّين**. ٣/ ٧٢.

(٢) رواه البخاري. باب: مناقب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. حديث رقم (٣٧٠١). ومسلم. باب: من فضائل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. حديث رقم (٢٤٠٦).

١٠- محتوى بلا قالب

تنقسم مجالات التربية إلى عدد من المجالات؛ منها: (العلمية –بتفرُّعاتها–، والدعوية، والخيرية، والإيمانية، والسلوكية) في محتوى مُتكامِل يَصُوغ بناء الشخص المُتَرَبِّي دون خَلَل أو نَقْص، لكن هناك جانب يغفل عنه بعض المُرَبِّين داخل محاضنهم؛ وهو «الجانب الفكري»، رغم أهميته الشديدة لكونه القالب الذي يَحوي داخله البناء التربوي بأكمله.

وقبل أن نشرع في إبراز أهمية المجال الفكري؛ لا بُدَّ من بيان تعريف كلمة «الفكر» في التربية الدعوية، لا سيَّما أنها كلمة مَطَّاطة وذات أبعاد كثيرة؛ «فالفكر الإسلامي من المصطلحات الحديثة؛ وهو يعني كل ما أنتجَ فكرُ المسلمين منذ مبعث رسول الله ﷺ إلى اليوم في المعارف الكونية العامة المُتَّصِلة بالله تعالى والعالَم والإنسان، والذي يُعبِّر عن اجتهادات العقل الإنساني لتفسير تلك المعارف العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدةً وشريعةً وسلوكًا. فكل ما أفرزه فكرُ المسلمين في ظل الإسلام من أفكار اجتهادية بشرية من الفلسفة، وعِلْم الكلام، والفقه وأصوله، والتصوف، والتربية، والعلوم الإنسانية

الأخرى، منذ عصر الصحابة إلى اليوم في إطار ضوابط الفهم الإسلامي؛ هو فكر إسلامي»[١]. وفي تعريف آخر: «الفكر الإسلامي عبارة عن تلك المنظومة المفاهيمية، والفكرية، والعالمَية، والثقافية، والفلسفية، والحضارية، التي ينتجها الفقيه أو المُفكِّر أو الفيلسوف أو المُثقَّف؛ اعتمادًا على فَهْم النص وفق الضوابط الشرعية، وفَهْم الواقع ببصيرةٍ رساليةٍ وقرآنيةٍ»[٢].

زاد الاهتمام الفكري بعد الأحداث السياسية في العَقْد الأخير -لا سيَّما بعد ثورات الربيع العربي-؛ كَرَدِّ فِعْلٍ طبيعيٍّ للواقع المفروض، وكانت هناك بعض الكِيَانات -قديمًا- تَهتمُّ بالجانب الفكري؛ من خلال تدريس بعض الكتب الفكرية والمنهجية داخل محاضنها، وكانت من النوادر في الأوساط السَّلَفية خاصةً.

أهمية التربية الفكرية:

«فلا يكفي الداعية أن يكون حصَّل العلوم الإسلامية، وجال في مراجع اللغة العربية والأدب والتاريخ، وأخذ حظَّه من العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية، ولكنه مع هذا لا يعرف عالمه الذي يعيش فيه، وما يقوم عليه من نُظُم، وما يسوده من مذاهب، وما يحركه من عوامل، وما يصطرع فيه من قُوى، وما يجري فيه من تيارات، وما يعاني أهله من متاعب، وبخاصة وطنه الإسلامي الكبير؛ بآلامه وآماله، وأفراحه ومآسيه، ومصادر قوته وعوامل ضعفه؛ وبعد ذلك وطنه الصغير، وبيئته المحلية، وما يسودها من أوضاع وتقاليد، وما تقاسيه من صراع

(١) محسن عبد الحميد. **تجديد الفكر الإسلامي**. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الولايات المتحدة الأمريكية. ط١، ١٤١٦هـ. ص٤٠، ٤١. بتصرف واختصار.

(٢) محمد أحمد يونس. **الخطاب الإسلامي في الصحافة العربية**. دار القلم للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة. ب.ط. ٢٠٠٤م. ص٨.

ومشكلات، وما يشغل أهله من قضايا وأفكار»[١].

ويُمْكِن اختصار أهمية التربية الفكرية في النقاط التالية:

١. خطورة ما كان يحدث من إهمال تلك التربية هو فَقْد البوصلة للمُتَرَبِّين، فالمنهج الفكري كالقالب لمحتويات المنهج كلها؛ كـ(العلوم الشرعية، والسلوكية، والتعبُّدية)، ومن خلاله تتكيف تلك العلوم مع الظروف البيئية والزمانية والمكانية لحاملها من خلال قالبها الفكري الحاوي لها، فلا يُسْقِط حُكمًا شرعيًّا إلا ويكون على دراية بواقعه، ولا يستدل بفتاوى مُغايِرة لبيئته وزمانه ومكانه تَفْصِله عن واقعه، كما أنَّ الاهتمام بالمنهج الفكري يُنقِذ المُتَرَبِّين من الوقوع في الغلو أو الإرجاء؛ فيضبط بوصلتهم ومحتواهم العلمي دومًا نحو الوسطية.

٢. «إنَّ الداعية الواعي حين يُلِمُّ بالفلسفة واتجاهاتها المادية والروحية والوضعية والمثالية، وبتاريخ الفكر الإنساني عامةً والإسلامي خاصةً؛ يصبح مُتمكِّنًا من فَهْم الأفكار والفلسفات التي غَزَت عقول كثير من أبناء المسلمين اليوم، وأصبح لها دُعاة وعلماء ومُروِّجون في قلب ديار الإسلام من أساتذة الجامعات، ورجال الأدب والثقافة والإعلام؛ فهذه المدارس لا نستطيع مقاومتها فكريًّا ما لم نُحْسِن فَهْمها وتصوُّرها ودراستها، وقديمًا قال أهل النظر: الحُكمُ على الشيء فَرْعٌ عن تصوُّره[٢]»[٣].

---

(١) عبد الله ناصح علوان. **مدرسة الدعاة.** ١/ ٣١١، ٣١٢.

(٢) «الحُكمُ على الشيء فَرْعٌ عن تصوُّره» هي قاعدة فقهية معروفة، وسيأتي الحديث عنها في مقال «ضَبْط التصوُّرات الذهنية».

(٣) عبد الله ناصح علوان. **مدرسة الدعاة.** ١/ ٣٠٥. باختصار.

٣. «أن يتمكن الداعية من الرد على الفكر المخالف للإسلام بسلاح الفكر نفسه؛ لأن الرد على المُخالِفين بأدلة القرآن والحديث لا يصلح لهؤلاء؛ إذ هم لا يؤمنون بها. وهذا ما فعله أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتابه «تهافُت الفلاسفة»، وما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابَيْه «نَقْض المنطق» و«دَرْء تعارض العقل والنقل»، ولولا هَضْم هذين الإمامين للأفكار الفلسفية في عصرهما؛ لَما استطاعا نقضهما من القواعد»[1].

٤. «أن ينتفع بما يجده من نِتَاج العقل وثِمَار الحكمة، مُؤيِّدًا لِما معه من حقٍّ خالصٍ جاء به الوحي؛ فالحكمة ضالَّة المؤمن، أنَّى وَجَدَها فهو أَحَقُّ بها»[2].

٥. ألَّا يكون الداعية لعبةً وأداةً في يد الطواغيت وجنودهم المُعادِين للشرع، يساومونه بخُبْثٍ، ويخدِم مخططاتهم بسذاجة، ويضربون فصيله بفصائل أخرى خادمة للدِّين بزَعْمٍ منه أنه يخدم الدِّين والدعوة، وهو في حقيقة الأمر يُستخدَم كأداة، إذا فرغ جند الطواغيت من اللعب به ألقوه جانبًا في أيِّ سجن أو منعوه مُمارَسة أيِّ شعيرة لدعوته، وتلك لعبة يجيدها الطواغيت بشكل ممتاز في عالمنا الإسلامي.

٦. إدراك الداعية لِما يدور من حوله من مؤامرات تُحاك ضد أمته، ومعرفته بوسائلها لتوفير الوسائل المناسبة لمقاومتها؛ مثل الحملات الداخلية (تجديد الخطاب الدِّيني - تجديد التراث - تجديد الفقه)، وكل تلك الحملات التي تهدف لتفريغ الإسلام من مضمونه الحقيقي،

(١) عبد الله ناصح علوان. **مدرسة الدعاة**. ١/ ٣٠٥.

(٢) المصدر نفسه. ١/ ٣٠٦. بتصرف يسير.

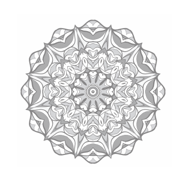
والحملات والتصريحات الخارجية الداعمة لها أيضًا؛ فهذا «دونالد رامسفيلد» وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، في لقاءٍ مع صحيفة «واشنطن تايمز» عام (٢٠٠٣م)؛ يقولها صراحةً: «نحن نخوض حرب أفكار مثلما نخوض حربًا عسكرية، ونؤمن إيمانًا قويًّا بأنَّ أفكارنا لا مَثيل لها؛ إن تلك الحرب تستهدف تغيير المَدارِك، وإنَّ من المُحَتَّم الفوز فيها وعدم الاعتماد على القوة العسكرية وَحْدَها»! وهذا نفسه ما قالته «كونداليزا رايس» وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة، في مقالةٍ لها في صحيفة «واشنطن بوست» عام (٢٠٠٥م): «إننا ضالعون في حرب أفكارٍ أكثر مما نحن مُنخرِطون في حرب جيوشٍ»! وغير ذلك من التصريحات المُعاصِرة المُعادِية للإسلام صراحةً.

٧. القدرة على توجيه المُتَرَبِّين بشكل صحيح فكريًّا، وإجابة تساؤلاتهم المعرفية؛ «فالمُرَبُّون مُواكِبون لِما يُستَجَدُّ من المعارف، يطلعون على حدٍّ أدنى منها؛ ولذلك هم قادرون على الإجابة عن تساؤلات الطلاب وتوجيههم المعرفي، وإنَّ تربية الناشئة تتطلب المزيد والمزيد من الاطلاع والقراءة والتثقيف؛ إذ تُكَوِّن قاعدةً معلوماتيةً راسخةً يُستدعَى منها وقت الحاجة، وتبني حصانةً فكريةً منهجيةً لدى المُرَبِّي من التوجيه الخاطئ المبني على العواطف والانطباعات غير الموضوعية»[١].

فَحَرِيٌّ بالكِيَانات التربوية والمُرَبِّين الاهتمام بالتربية الفكرية لإصقال المُتَرَبِّين في ذلك الجانب، لا سيَّما في الزمن الذي تحياه الأُمة من فِتَن وغزواتٍ فكريةٍ مُتلاحِقةٍ تجعل اللبيب حيرانَ؛ فهي الدروع السابغة أمام هجمات الشبهات، والإجراء الضامن لاستمرارية السلامة الفكرية لأيِّ كِيَان دعوي.

---

(١) فايز سعيد الزهراني. **التربية من جديد**. ص٢٢٣.



١١- ضبط المشاعر في العمل التربوي

العملية التربوية تتعامل مع النفوس والطبائع البشرية، وتشغل العاطفة فيها حيزًا كبيرًا في التوجيه والتقويم والتحفيز وربط الداعية بالمَدْعُوّين، كما أنها تتخَلَّل كل مراحل التربية بدايةً من مراحلها الأولى إلى الأخيرة، فهي مُركَّب أساسي في كل المعادلات التربوية. وبما أنها عُنْصُرٌ مُهِمٌّ في العلمية التربوية؛ فقد وَجَبَ ضبطها وتقديمها بشكلٍ مُتوازِنٍ للمُتَرَبِّين دون إفراط أو تفريط؛ فهي كالملح على الطعام، إن كثُر أفسده وإن قَلَّ لا يُستساغ.

إنَّ التربية في جميع مراحلها تحتاج إلى العاطفة وإظهار المشاعر؛ لتوفير الاستقرار النفسي والاطمئنان الشرعي للمُتَرَبِّي تجاه مُرَبِّيه، خاصةً في المراحل الأولى والتي يتخللها توثيق العلاقة والعناية بالمُتَرَبِّي سلوكيًّا وإيمانيًّا؛ «فإنَّ الأُخُوَّة الفردية الخاصة التي تربط بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّي هي أحد أهم جوانب العلاقة المتميزة بين الطرفين، وإنَّ للعاطفة الجياشة التي يستشعرها المُتَرَبِّي من مُرَبِّيه دورًا كبيرًا في نجاح العلاقة التربوية واستقرارها، وهذا الجانب العاطفي يتيح للمُرَبِّي القربَ الهادئ من المُتَرَبِّين، والإحاطةَ بأمورهم التي يحتاج إلى

الإلمام بها؛ ليُحسِن التعامل معهم وتوجيههم؛ إذ إنَّ المدخل العاطفي والمحبة الأَخَوِيَّة هي أفضل طريق للقرب من المُتَرَبِّي، ومعرفة طباعه وصفاته النفسية، والوقوف على خصائص شخصيته؛ فعندما يثق الفرد في مُرَبِّيه فإنه يصبح كتابًا مفتوحًا بين يديه، ويبوح له بالعديد من خبايا نفسه وأسراره التي لا يطَّلع عليها إلا المقربون، كما أنَّ هذه العاطفة تهيئ المُتَرَبِّين من جانب آخَر للتلقي من مُرَبِّيهم برضا وقناعة؛ ولذا فإنَّ رصيد العاطفة الكبير الذي تسري نسماته بين المُرَبِّي والأفراد؛ تظهر دلائله واضحةً في أسلوب التعامل الراقي والحِرْص على مشاعر الجميع، وهو أحد أهم صمامات الأمان التي يركن إليها المُرَبِّي لاستقرار الوسط التربوي، ولتهدئة أجوائه عند حدوث أي توتُّر أو أزمات؛ حيث تذوب في أجواء المحبة الصادقة حِدةُ الغضب وتهدأ الأعصاب المُتشنِّجة، وتُدفَع أيُّ خواطر سيئة قد يوسوس بها الشيطان، أو سوء ظن قد يختلج في النفوس في لحظات ضعفها»[١].

إشكالية العاطفة في العملية التربوية تتمثل في نموذجَيْن؛ هُما (الإفراط، التفريط)؛ فالتفريط يتمثل في المُرَبِّي المُقيِّد لمشاعره الحابس لعواطفه داخل أسوار نفسه، لا يسمح لنفسه بإطلاق سراح مشاعره لتنسج رباط العلاقة الأَخَوِيَّة بينه وبين مَن يُرَبِّيهم؛ إمَّا ظانًّا بالخطأ أنَّ الشدة والجفاء هي الوسيلة المُناسِبة للتعامل مع المُرَبِّين؛ كي يَحفَظ معهم هيبته، وإمَّا مُتوهِّمًا أنَّ تلك هي الطريقة المُثلى للتعامل مع المُتَرَبِّين للتوجيه والتقويم.

فالعلاقة بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّين ليست ذات طبيعة عسكرية تَحكُمها

---

(١) محمد عادل. **مقال بعنوان «أهمية المشاعر في العمل التربوي»**. موقع (www.al-bayan.co.uk). باختصار.

أوامر جافة، فالعاطفة تساهم بشكل كبير في ضبط الاستقرار النفسي للمُتَرَبِّين واطمئنانهم للمَحضن، كما أنها تُخفِّف من حِدَّة التكاليفِ والمَهَامِّ، وتجعل تنفيذها يسيرًا وسهلًا على نَفْس المُتَرَبِّي دون ضَجَر أو مَلَل.

وانظر إلى مُؤدِّب ومُعلِّم البشرية ﷺ حينما استخدم التوجيه بالعاطفة بقاعدة «املأ القلب أولًا»؛ فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنَّ رسول ﷺ أخذ بيده وقال: "يَا مُعَاذُ، واللهِ إنِّي لَأُحِبُّكَ، واللهِ إنِّي لَأُحِبُّك"، فقال: "أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ"[(١)]؛ فتأمَّلْ تصرُّفَ رسول الله ﷺ: البدء بمسك يده، ثم قول "يَا مُعَاذُ، واللهِ إنِّي لَأُحِبُّكَ" كان بمَثَابَة الرصيد الذي يملأ به القلب ليُوَجِّه بعده، ثم اختصار التوجيه وعدم الإطالة.

إذًا؛ فالطريق للتوجيه لا بُدَّ أن يكون محفوفًا بالعاطفة؛ «فما لم يشعر المُتَرَبِّي أنَّ مُرَبِّيه يحبه ويحب له الخير؛ فلن يُقبِل على التلقي منه ولو أيقن أنَّ عنده الخير كله، بل لو أيقن أنه لن يَجدُ الخير إلا عنده؛ وأي خير يُمْكِن أن يتم بغير حب؟!»[(٢)].

والنموذج الآخَر من الخَلَل هو: الإفراط؛ ويأتي ذلك في الطرف المقابل، وهو المُرَبِّي المُفرِط في التعبير عن مشاعره، والحريص على تدليل المُتَرَبِّين والقرب منهم بشكل مُبالَغ، للدرجة التي تُفقِد هيبة المُرَبِّي أو تُضعِف شخصيته.

ويتمثل ذلك الإفراط في عدة مظاهر؛ مثل: طول الخُلطة والمُعايَشة دون توجيهٍ؛ مما يصيب العلاقة التربوية بالتبسُّط الزائد بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّين؛ والتي

(١) صحَّحه الألباني في صحيح أبي داود. حديث رقم (١٣٦٢).

(٢) محمد قطب. **منهج التربية الإسلامية**. دار الشروق، القاهرة. ط١٦. ب.ت. ٢/ ٢٨١.

تنقلب مع الوقت علاقةً نديةً بين الطرفين؛ فتَسقُط هيبة المُرَبِّي بسبب التجاوزات التي حَدَثَتْ من المُتَرَبِّين، كما أنَّ الإفراط في الخُلطة والمُعايَشة يصيب المُتَرَبِّي بالزُّهد في المُرَبِّي، والأصل أن تكون العلاقة بين المُرَبِّي ومَن يُرَبِّيهم محفوفةً بالاشتياق للُّقْيَا والتحيُّن للرؤية؛ من أَجْل تحصيل الفائدة والتقويم.

أَضِف إلى ذلك؛ أنَّ الإفراط في الخُلطة والمُعايَشة قد ينحرف بالنوايا الخالصة إلى نوايا أخرى دَخِيلة هدفها إشباع الجانب الاجتماعي أو العاطفي للمُرَبِّي، فالعمل التربوي يَحمِل في طَيَّاته أمورًا تَسعَد النفس بها؛ مثل: (التسلية، وتوسيع شبكة العلاقات الاجتماعية، والتوجيه وإصدار الأوامر)، ومع طول أَمَد العملية التربوية قد يصير كل هذا شؤمًا على نية المُرَبِّي إذا لم يتم ضبطه بالاحتساب.

ومن المَزالِق التي يقع فيها بعض المُرَبِّين في الإفراط: «تمييز بعض المُتَرَبِّين، والتعلُّق بهم، وتقريبهم، وتخصيصهم بمزيد اهتمام يفوق بقية أقرانهم بصورةٍ تثير حفيظة بقية أقرانهم، وقد يكون ذلك بسبب الجاذبية الشخصية التي تُميِّز بعض المُتَرَبِّين وتجعلهم مَحَط إعجاب مَن حولهم، بما فيهم المُرَبِّي نفسه. إنَّ الأصل في الجو التربوي إشاعة روح الثقة لدى المُتَرَبِّين؛ وهذا بالطبع لا ينشأ إلا إذا استشعر المُتَرَبِّي إنصاف مُرَبِّيه، وعدالته، واتِّباعه للشرع في معاملة الجميع دون تمييزٍ لا داعي له ولا حاجة إليه»[1].

ومن صُوَر الخَلَل أيضًا في ضبط المشاعر: انتقائية التقويم؛ حيث يَحظى مَن هو قريب من المُرَبِّي بالمدح والثناء، بينما السخط والتهكُّم والذم للآخرين بسبب أنَّ شخصياتهم وعقلياتهم لم تكن أوفر حظًّا في القرب من مُرَبِّيهم، وهذا من

---

(١) محمد عادل. **مقال بعنوان «أهمية المشاعر في العمل التربوي»**.

الظلم! «فقد يختلف تقويم المُرَبِّي لمَن حوله وفقًا لحالة الرضا والسخط، وفقًا للقُرْب والبُعْد؛ فالمُقرَّبون هم الأَوْفَر حظًّا من مدحه والثناء عليهم وتزكيتهم، والمخالفون له في الآراء هم كذلك الأوفر حظًّا، ولكن من ناحية ذمهم، والتهكُّم عليهم، ونقدهم، وإثارة الشكوك حولهم، وانتقاص حقوقهم»[١].

وأخيرًا: إنَّ العملية التربوية كالمعادلة الكيميائية، والعاطفة مُركَّب داخلها، ويجب على كل مُرَبٍّ إضافة ذلك المُركَّب بالقدر الذي يجعل تلك المعادلة صحيحة وتتفاعل المكونات داخلها بشكل سليم ودون إخلال، وكل مُرَبٍّ على نفسه وقلبه بصير.

---

(١) محمد عبده. **سلوكيات خاطئة على طريق الدعوة**. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة. ب.ط. ٢٠٠٧م. ص٦٧. بتصرف.

١٢- مَداخِل العلوم

في أول حضوري لدروس عِلْم الفقه كانت هناك مصطلحات تمر على عقلي دون فَهْم لها، وكنتُ أتحرَّج من السؤال مَخافةَ أن يكون السؤال عن شيءٍ سهلٍ قصَّرتُ أنا في البحث عنه، فكنتُ أسمع مصطلحات؛ مثل: «قول الجمهور»، «مَذهَب الشافعي الجديد»، «قال الشارع»؛ بعضها أُخطِئ فَهْمها، والأخرى لا أفهمها من الأساس! حتى انتهى بي المطاف إلى قراءة ومُدارَسة كتابٍ عن نشأة المذاهب الفقهية، وكان كتابًا متوسط الحجم، يُعدُّ مَدخَلًا إلى عِلْم الفقه؛ فبصَّرني الكتاب بكثير مما كنتُ أجهله من مصطلحات وأحداث، وأنار جوانب مُظلِمة داخل عقلي، وأعاد ترتيب الرُّكام المعرفي الحاصل داخله؛ ليُحوِّله إلى ملفات مُرَتَّبة مُتكامِلة.

لا أظن أنني الوحيد الذي حَدَثَتْ معه تلك القصة بنفس التفاصيل، بل إنَّ الكثير من الطلاب تكرَّرت معهم؛ وذلك لغياب دراسة ما يُسمَّى بـ«مَداخِل العلوم»؛ فالدخول في العلوم دون دراسةِ مَدخلٍ يعطي تصوُّرًا عامًّا عن المادة وغايتها؛ هو الفَوْضَوِيَّة بذاتها؛ «فالدخول في عملٍ من غير تبيُّنٍ وبيانٍ؛ هو عين

الفوضى التي تُلغِي كلَّ مقومات النهج فيه»[١].

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ؛ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[٢]؛ وشَرْحُ العلوم دون مَداخِلها سيُؤدِّي حتمًا إلى المآل السلبي الذي ذكره ابن مسعود رضي الله عنه: «كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»؛ فبالتأكيد سيحدث قصور في الفَهْم لدى المُتعلِّم بسبب عدم تدرُّج طريقة التعلُّم، وبسبب سماعه مصطلحات لا يفهم دلالتها!

ولعل تحرير مصطلح «مَداخِل العلوم» سيوضح المطلوب من المقال لكي يتم تنفيذه بشكل صحيح؛ فـ«مَداخِل العلوم» هي: «الطُّرُق التي تَصِفُ كيف يقوم المُتعلِّم بالتعامل مع المُهِمَّة التعليمية»[٣]؛ بمعنى أنها هي المُقدِّمات التي يحتاج إليها المُتعلِّم بالنسبة للعِلْم نفسه؛ فهي بمَثَابَة عملية تصوُّرٍ مُسْبَقٍ للدرس المعرفي.

«فقضية «مَداخِل العلوم» هي قضية مركزية في بناء المعرفة، وظاهرة طبيعية في التعليم، ومَطلَب ضروري لمجتمع العِلْم لا يُمْكِن الاستغناء عنه؛ للحاجة التي تلبيها فكريًّا وواقعيًّا، وهي أساس لمبدأ التدرُّج المعرفي، والسير مع العقل البشري من السهل للأسهل؛ فالمرء لا يمكنه استيعاب ما يفوق قدراته الذهنية والنفسية، ليس في مجال العلوم والمعاني فحَسْب، بل حتى في مجالات أخرى كالمحسوسات والمطعومات»[٤].

---

(١) فريد الأنصاري. **أبجديات البحث في العلوم الشرعية**. مطبعة النجاح الجديدة، المغرب. ط١، ١٩٩٧م. ص٢٤.

(٢) رواه مسلم. باب: النهي عن الحديث بكل ما سمع. حديث رقم (٥).

(3) (Entwistle، N.J. (1997). **The Approaches and Study Skills Inventory for Students (ASSIST)**، Centre for Research on Learning and Instruction، University of Edinburgh، Edinburgh ،p3.

(٤) محمد حسين الأنصاري. **مقال بعنوان «مداخل العلوم الشرعية وسؤال المنهج»**. =

وهنـاك ضوابـط للمَداخِـل تؤخـذ في الاعتبـار لكـي يتـم اعتمادهـا كمدخـل للعِلْم؛ منها[١]:

١. التعريـف بمبادئ العِلْـم والإلمـام بمقدماته: فقبل الشـروع في تعلُّم عِلْم مـا أو القـراءة فيه؛ يتوجَّب الوقوف علـى موضوعه، وقد أوجبوا على مَن طلـب عِلْمًـا أن يتصوَّره بوجهٍ ما، ويَعـرِف غايته ومادته، وكثيرًا ما يتطرَّق العلماء لهذا الشرح في مُقدِّمات كُتُبهم ومَطلع دروسهم؛ لإعطاء المُتعلِّم تصوُّرًا شاملًا عن تلك المادة.

٢. تعرُّف مفردات العِلْم وبِنْيته الأساسية: فقد جَرَت أدبيات المَداخِل أن تتناول على جهة الإلمام بمفاهيم مفردات العِلْم وقوانينه الإجمالية؛ فإنَّ لكل عِلْم لغةً ومصطلحاتٍ لا يفهمها إلا أهله العارفون به المُتخصِّصون فيـه، ومـن الحَصَافـة أن يُعطى المُتعلِّـم تلك المفاتيـح الاصطلاحية قبل الشروع في العِلْم نفسه؛ لكي يكون على دراية بما يشرحه المُلقي، كما أنَّ كُتُـب المَدخل تجيـب بوجهٍ عامٍّ كيف بُنيت المعرفة، ومَن بناها؟ وتضع العقل أمام تفهُّم حركة تدوين العِلْم واستمداده، وكما قيل: ليس أَجَلّ من المعرفة إلا كيف وُجِدَت المعرفة. كما أنَّ الأئمة في الشروحات العلمية يتفاوتون في دلالات الكلمات؛ فمثلًا شـروط «الحديث الحَسَن» ليست واحدة عند المُحَدِّثين، وكلمة «مُسْتَحَب» أو «مَكروه» ليست ذات دلالة واحدة عند الأُصُوليِّين؛ مما يجعل الجهل بمَدخل تلك العلوم مُؤدِّيًا إلى

= موقع (nama-center.com). بتصرف يسير.

(١) الثلاثة ضوابط المذكورة مُستفادة من: عبد الوهاب بليل. **مقال بعنوان «مداخل العلوم ضـرورة منهجيـة ومعرفيـة»**. مجلـة رواحـل. العـدد الخامـس. ص٤٣. بتصـرف يسـير واختصار.

التعامل مع جميع المصطلحات بنفس الطريقة!

٣. ضَبْط المُتعلِّم مسار التحصيل وأولوياته في تناول العلوم: ولكيلا تختل عملية البناء العلمي؛ لا بُدَّ للمُتعلِّم أن يعرف: بِمَ يبدأ، وبِمَ ينتهي في طلبه؟ فأمام ما يواجه المُتعلِّم من تراث ضخم يكون المدخل مَرجعًا مُهِمًّا في تحديد هذه الأولويات، فمَن أقدم على تعلُّم الفقه على مَذهَبٍ ما، ولم يعلم كيف يتدرَّج في طلبه؛ ضاعت سنوات دَرْسه في التنقُّل العشوائي بين الكتب وملحقاتها[1]، ولم يستفد من انتقائه الارتجالي إلا الحيرة!

وأخيرًا: إنَّ الحاجة قائمة بشرح «مَداخِل العلوم» للمُتَرَبِّين قبل شرح العِلْم نفسه؛ لكي تحصل المعرفة المُتكامِلة، ويقف طالب العِلْم على أرضٍ عِلْميةٍ صلبةٍ، بدلًا من العشوائية والرُّكام المعرفي الذي يئول بالمُتعلِّم بعد ذلك إلى التخبُّط والعشوائية، والذي تكون له من السلبيات أكثر من الإيجابيات؛ «فإنَّ الارتجال والتلقائية غير الواعية، دليل قاطع على غياب المُمارَسة المنهجية، فإقدامك على شيء وأنت لا تعلم قبل الإقدام عليه لماذا تَقدِم عليه، ولا كيف؟ ولا أنت تُكلِّف نفسك البحث لمعرفة ذلك؛ إنما هو نوع من تأخير البيان عن وقت الحاجة -كما يقول علماء الأصول-، والدخول في عملٍ من غير تبيُّنٍ وبيانٍ؛ هو عين الفوضى التي تُلغِي كلَّ مقومات النهج فيه»[2].

---

(١) كالشروح والحواشي والمختصرات.

(٢) فريد الأنصاري. **أبجديات البحث في العلوم الشرعية**. ص٢٤.

١٣ - اللباقة الاجتماعية

في أَحَد المخيمات الربيعية التي حضرتُها أول قدومي للخليج؛ شَهِدتُّ نشاطًا كنتُ فيه مشرفًا مع بعض إخوة الخليج الأفاضل، وكان أغلب الطلاب من البدو، فشمل البرنامج ما أسموه بـ«علوم الرجال»، تعجبت في البداية من العنوان، ولكن زال التعجب مع التنفيذ؛ حيث كان البرنامج في مجلس أحد الشباب، وجلس جميع الطلاب مع المُشرِفين الخليجيِّين يعلِّمونهم «علوم الرجال»، والتي عرفتُ بعد ذلك أنها «مهارات اللباقة الاجتماعية» المُتعارَف عليها؛ ومُلخَّصها معرفة طُرُق إكرام الضيف، ومعرفة الردود المناسبة في المناسبات، وتحية المجالس، ومهارات صب القهوة، وطُرُق التعامل مع الكبار والرد عليهم بما يناسب عبارات التهنئة والتحايا والتعازي.

انبهرت بذلك النشاط الذي يغرس في الصغار تلك المهارة المُهِمَّة، والتي يفقدها بعض الشباب، بل يفقدها بعض الكبار؛ فبعضهم لا يعرف ما يقول في المناسبات، ولا يعرف بما يرد عندما يُلقي أحدهم عليه عبارة تهنئة أو تعزية أو تحية، ولا يعرف كيفية الترحاب بضيوفه أو ما يقول لهم؛ وكل ذلك ناتج عن نَقْص مهارة «اللباقة الاجتماعية».

وتندرج تلك المهارة في الشرع تحت مكارم الأخلاق أو الآداب العامة، وقد أَوْلَى الإسلام تلك المهارة اهتمامًا عبر الآيات والأحاديث الواردة في القرآن الكريم والسُّنة المُطهَّرة؛ فقال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[(٢)]، وقال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ، أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ؛ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ»[(٣)]، وقد صَنَّف في ذلك الباب الكثيرُ من الأئمة؛ كـ(البخاري، وابن مفلح، والغزالي) وغيرهم، بل جعل الشرع الأعراف مَوضع تقدير بالأخذ بها في الأحكام الفقهية، كما اشترط الالتزام بالعُرف والعادات الاجتماعية -ما لم تخالف الشرع- من شروط العدالة والكفاءة.

وَحَرِيٌّ بالمُرَبِّين في المحاضن الاهتمام بتلك المهارة؛ لِما لها من أصل شرعي في ديننا الحنيف، كما أنها مهارة دُنْيَوِيَّة لا غِنى عنها، سواء سُمِّيَت بـ«اللباقة الاجتماعية، أو لباقة الاتصال، أو فن التواصل، أو الإتيكيت»؛ فتعليمها مُهِمٌّ في التواصل مع الناس، ومن الضروري تمكين الشخص المُتمتِّع بها من الولوج في ساحاتٍ فسيحةٍ من التأثير؛ «فالرَّجُل الخَلوق اللَّيِّن اللطيف الظريف، المُتعامِل من خلال هذه الصفة الجليلة الجميلة مع قضايا الحياة؛ يكسب النجاح في كل حَلبة، مهما كانت الظروف؛ لأنَّ اللَّبِق يكسب ودَّ الناس ويتحبَّب إليهم بسهولة ساحرة؛ لأنَّ اللباقة تُنْمِي قُدرَاتِه على مُخاطَبة الآخرين بثقةٍ واقتناعٍ تامٍّ وتقديرٍ جيِّدٍ لِما يناسب قوله أو فعله، أو يُجمِّل تجنُّبه في العلاقات البشرية والتصرُّفات الاجتماعية. فاللباقةُ -بتعبير آخَر- هي: التزام سلوكٍ يُؤدِّي حتمًا إلى الوصول

---

(١) البقرة: ٨٣.

(٢) الإسراء: ٥٣.

(٣) صحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة. حديث رقم (٩٣٨).

إلى حلم الشخصية المحبوبة، فاللَّبِقُ بِلَطافتِه وتصرُّفِه الظريف يُصْبِح محبوبًا لدى الآخرين؛ حيث إنَّ لباقتَه تُعِينُه على التواصل معهم أو التحدُّث إليهم بأسلوب يرفع شأنَه لديهم، مع ابتعادٍ كاملٍ عن إثارةٍ أو استفزازٍ أو أيِّ طريقةٍ تُثِيرُ في نفوس الآخرين حزنًا أو قلقًا أو معنًى من الكراهية»[١].

أساليب تعلُّم المهارة:

المهارات الحياتية عامةً تُكتسَب عن طريق التقليد، فالإنسان جُبِل على المُحاكاة والتأثر؛ «ففي أوقات الشدائد، وعند المَحَكَّات والاختبارات؛ لا يتذكر المُتَرَبِّي ما سمعه منك، وإنما ما رآه»[٢]، وتلك مسئولية المُرَبِّي ليرى فيه المُتَرَبِّي الدليل العملي لتلك المهارة عبر سُلُوكياته وتصرُّفاته ورُدُوده؛ قال ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاحتكاك بالصالحين ومُحاكاتهم يُكسِب الإنسان العادات الحَسَنة والطبائع المرغوبة؛ والسبب في ذلك أنَّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يَنْتَحِلُونه من المذاهب والفضائل تارةً عِلْمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارةً مُحاكاةً وتلقينًا، إلا أنَّ حصول المَلَكات عن المُباشَرة والتلقين أَشَد استحكامًا وأقوى رسوخًا»[٣].

وعلى المستوى الشخصي؛ قد اكتسبتُ أغلب عِباراتي التي اعتدتُّ عليها في التواصل مع الآخرين من مُرَبٍّ فاضلٍ كنتُ أُجالِسه كثيرًا أثناء احتكاكه بالناس؛ كان الكبار يناديهم بـ«والدي/ والدتي»، وكان دائم الدعاء للناس بعد إنهاء حديثه

---

(١) أبو أسامة نور. **مقال بعنوان «اللباقة في الاتصال»**. موقع (www.darululoom-deo-band.com).

(٢) وليد الرفاعي. **سلسلة مهارات المربي**. ورقة بحثية. ص٣١.

(٣) ابن خلدون. **المقدمة**. دار العودة، بيروت. ب.ط. ١٩٨٢م. ص٣٢٤.

معهم، كما كان يعرض مساعدته على أيِّ مُسِنٍّ يحمل أغراضًا. كانت تأسرني عباراته وسُلُوكياته، ومع الوقت بدأتُ أُرَدِّد عباراته وأتقمص حركاته بشكل تلقائي، وهذا ما قصده ابن خلدون رحمه الله؛ أنَّ المَلَكات يتم تحصيلها عن طريق التلقين والمُباشَرة.

هي الأخلاقُ تَنْبُتُ كالنباتِ إذا سُقِيَتْ بماءِ المَكرُماتِ
تقوم إذا تَعَهَّدَها المُرَبِّي على ساقِ الفضيلة مُثمِراتِ[1]

من الوسائل المُهِمَّة في تعليم اللباقة للمُتَرَبِّين «نموذج المُحاكاة»، مثلما حدث في المثال المذكور في أول المقال؛ عن طريق افتراض مواقف مُعَيَّنة؛ كـ(قدوم ضيفٍ، أو حضور عزاءٍ، أو حضور فرحٍ، أو مُواساة زميلٍ) وهكذا، وكل شخص من الطلاب يتقمص دورًا مُعَيَّنًا، ويُلَقِّنه المُرَبِّي العبارة المناسبة لكل موقف، ويُثنِي على مَن أجاد التصرُّف والقول منهم.

والأفضل من ذلك كله أن يُطبَّق «نموذج المُحاكاة» على أرض الواقع؛ بزيارةٍ -مثلًا- لدارِ المُسِنِّين أو دارِ الأيتام، أو حضور عزاء؛ لتنزيل ما تعلَّمه الطلاب على أرض الواقع، وبعدها يَعْقِد المُرَبِّي مع الطلاب جلسة لاسترجاع تصرُّفاتهم والثناء على مَن أجاد منهم، وتقويم مَن أخطأ السلوك الصحيح والرد السديد.

وأخيرًا: قد اهتم القرآن الكريم بـ«مهارات التواصل» في عدة مواضع؛ فقد بَعَثَ الله عز وجل موسى وهارون -عليهما السلام- إلى فرعون مُوصِيًا إياهما بالقول اللَّيِّن؛ قال تعالى: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾[2]؛ هذا مع فرعون الذي ادَّعى الأُلوهية

---

(١) للشاعر: معروف الرَّصافي رحمه الله.

(٢) طه: ٤٤.

وَوَصَل إلى أعلى درجات التكبُّر والتجبُّر والكُفْر، لكن الله ﷻ أوصاهما بإلانة الكلام له. وفي موضع آخر يُوصِي اللهُ ﷻ النبيَّ ﷺ قائلًا: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1]، وقال ﷻ أيضًا للنبِّي ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2]؛ يُوصِيه ﷻ بأنَّ الدعوة وترويج المُعتقَد لا بُدَّ أن تُصاحِبه «مهارات التواصل» الجيدة مِن لِينٍ وسُهولةٍ ورحمةٍ، وكان ﷺ خيرَ مَن نَفَّذ تلك الوصايا. فَحَرِيٌّ بالدُّعاة والكِيَانات الدعوية تعليم أفرادها مهارات اللباقة الاجتماعية، وعدم الاستخفاف بتلك المهارة وتهميشها؛ للاهتمام بمُنتَجهم النهائي (الفرد) الذي يُعدُّ واجهةً للكِيَان في أيِّ مكان حَلَّ به.

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

١٤- الاستبداد التربوي

أتذكَّر أحدَ طلاب العِلْم كان سيُغيِّر سكنه إلى منطقة غير التي يحضر فيها مع شيخه -بسبب زواجه-، وبسبب ظروف بُعْد السكن طلب من شيخه الحضور مع شيخ آخَر -من نفس المنهج-؛ لصعوبة المُتابَعة مع شيخه الذي كان يسكن عند سكنه القديم؛ وفوجئ الأخ برفض الشيخ حضوره مع الشيخ الآخر، وأصرَّ على حضور الأخ معه وتحمُّله بُعْد المسافة، وبالفعل تحمَّل الأخ فترةً من الزمن قرار شيخه المُتعنِّت، ثم مع الوقت رقَّ قلب الشيخ له ووافق تلميذه على حضوره مع الشيخ الآخر، لكنه ذيَّل مُوافقته بجملة؛ فقال: «ستَجِدُ عندنا ما لم تَجِدْهُ عند الآخرين»!

شهدتُّ تلك القصة بنفسي، وشهدتُّ صبر هذا الأخ على قرار شيخه المُستبِد حتى جاءه الفرج بالحضور مع شيخٍ آخر؛ ولكن تلك القصة أصبحت ظاهرة تتكرر في كثير من المحاضن؛ وهي ظاهرة «الاستبداد التربوي»، وهي مُمارَسات تسلُّطية يمارسها بعض المُرَبِّين على المُتَرَبِّين بدافع الخوف الزائد أو الحب أو الحِفَاظ عليهم؛ تجعل المُتَرَبِّي يعيش في سياجٍ يفرضه عليه المُرَبِّي، بحيث لا يستطيع الحضور لأحد غيره أو الحضور في حلقات تربوية أخرى.

حَصْر نطاق المشكلة:

نؤمن بأنَّ تنوُّع المَشارِب أمرٌ مُضِرٌّ للمُتَرَبِّي -خاصةً في المراحل الأولى-، ويكون مُشتِّتًا له، وقد ينتج عنه ترك الطريق بالكلية، ومن النادر أن يحدث استبداد في المراحل الأولى؛ لأنَّ المُتَرَبِّي يكون فيها مُحتاجًا إلى المُرَبِّي من أي مرحلة أخرى، «وكاستثناء ربما تحتاج مرحلة من مراحل التربية أو حالة من حالات المُتَرَبِّي؛ أن نحوطه بعناية خاصة أو نبعده عن كثير من التأثيرات الخارجية لظرفٍ خاصٍّ يمر به، ما يلبث أن ينتهي بانتهاء الحاجة إليه»[١].

ولكن ما أقصده من الاستبداد هو ما يحدث في المراحل المتوسطة أو المراحل المتأخرة التي يُفطَم فيها المُتَرَبِّي، ويشتد فيها عوده، ويكون قادرًا على تمييز الغَثِّ من السَّمين، ومع ذلك يضرب عليه المُرَبِّي أسوارًا وسياجًا تمنع عنه التواصل أو الحضور لأحد غيره، ويجبره على الدوران في فَلَكه الذي رسمه له فقط، وكأنها علاقة صوفية بين شيخ ومُريدٍ قائمة على تقديس شيخ الطريقة والمُوجِّه؛ «فالبعض يظن أنَّ المُتابَعة أو التربية تعني أن يُحاط المُتَرَبِّي بسُورٍ لكي لا يتعامل مع غير المُرَبِّي ولا يستفيد من غيره، حتى إنه لَيُصبح شديد الحساسية والغضب لمجرد رؤيته لبعض أقرانه -من المُرَبِّين- يُسلِّم على مَن يُرَبِّيه أو يبتسم له»[٢].

لَسْنَا مُتصوِّفة!

«الاستبداد التربوي» فكرة نابعة -في الأصل- من الصوفية؛ فنَمَط العلاقة بين

---

(١) محمد عادل. **منهاج المربي**. دار الصفوة، القاهرة. ط١، ٢٠١٠م. ص١٧٨.

(٢) المصدر نفسه. ص١٧٨. بتصرف يسير.

المُريدِين والشيخ عند الصوفية تحكمه بعض القوانين التي تجعل من المُريدِين أُلْعُوبةً في يد شيخهم، وقد نُقِل ذلك النَّمَط في كُتُبهم؛ فمثلًا يقول عبد الوهاب الشَّعْراني -وهو من كُبَرَاء الصوفية-: «يا ولدي إن كنتَ صادقًا فلا تصحب غير شيخك، واصبر على جفاه؛ فإنه ربما امتحنك بترك ما تحب يريد بك الخير، وتكون مَحلًّا لأسراره ومَطلعًا لأنواره. إنَّ المُريد الصادق مع شيخه كالميت مع مُغسِّله؛ لا كلام، ولا حركة، ولا يقدر ينطق بين يديه من هيبته، ولا يدخل ولا يخرج ولا يخالط أحدًا ولا يشتغل بعِلْمٍ ولا قرآنٍ ولا ذِكْرٍ إلا بإذنه»(١)!

فالصوفية تؤمن أنَّ المُريد يرى بعين شيخه، وأنَّ لشيخه السُّلطة عليه في دنياه وآخرته، وحاشا أهل السُّنة أن يكونوا كذلك، فالمُرَبِّي عندنا مجرد وسيلة لنقل الخبرة والتوجيه فقط، ووسيلة للمُتابَعة كي ينضبط المُتَرَبِّي في أموره الدُّنْيَوِيَّة والأُخْرَوِيَّة؛ إنها أشبه بعلاقة أُخُوة بين أخٍ كبيرٍ وصغيرٍ، مُعلِّمٍ بتلميذه، ناصحٍ بمنصوحٍ؛ تحكم تلك العلاقة حدود لا تزيد عن حدها فتنقلب استبدادًا كالصوفية، ولا تَقِل فتفقد كُنْهَهَا التربوي من الأساس.

خَلَل مفهوم المُتابَعة التربوية:

من أحد بواعث مشكلة «الاستبداد التربوي» هو خَلَل إدراك المُرَبِّي لحقيقة العلاقة بينه وبين المُتَرَبِّي، فالعلاقة التربوية هي علاقة توجيه ونُصْح تَحكمها الأُخُوة والحُب في الله، وقد يتوهَّم بعض المُرَبِّين أنَّ أدب المُتَرَبِّين مُتمثِّل في الانسياق له وسماع توجيهاته، وأنَّ له الصلاحيات الكاملة في استبدادهم أو تحجيم حركاتهم أو مَنْعهم من التلقي من غيرهم!

---

(١) عبد الوهاب الشعراني. **الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية**. المكتبة العلمية، بيروت. ب.ط. ب.ت. ص١٧.

وقد يتسبب ذلك الحصار المضروب حول المُتَرَبِّي من مُرَبِّيه في النفور من المَحضن؛ لِما يُشَكِّل عليه عِبْئًا نفسيًّا ثقيلًا، فَمَعَ حضوره درسًا مع شيخ آخر يَحزن مُرَبِّيه، ومع مَدْحه شيخًا آخر أمامه يَقلق، وعند مصافحته شيخًا غيره ينظر إليه بِرِيبَة! «فهذه الطريقة الحِصارية للأفراد تُحَوِّل العلاقة المُميَّزة الوَدُودَة الدافئة بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّي إلى حالةٍ من الضيق، ربما تصل للتأزُّم النفسي من الوسط التربوي الذي أصبح يُمثِّل للمُتَرَبِّي عِبْئًا نفسيًّا وكابوسًا مُزعِجًا»[(١)].

يجب أن يُدرِك المُرَبِّي أنه مجرد وسيلة أو حلقة وَصْل بين المنهج والمُتَرَبِّي، وهذا من محاسن منهج أهل السُّنة القويم؛ وهو عدم ربط المُتَرَبِّين بالأشخاص، حتى إنَّ النبي ﷺ كان وسيطًا بين دعوة الإسلام وأمته؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[(٢)]، والشاهد هو: ﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾؛ فالاستبداد التربوي يُحَوِّل المُرَبِّي من كونه حلقةَ وَصْل بين المنهج والفرد إلى اعتبار نفسه هو المنهج! وهذا عكس ما جاءت به دعوة رسول الله ﷺ، بل عكس ما جاء به الأنبياء جميعًا -عليهم الصلاة والسلام-.

فإنَّ ارتباك الفكرة التربوية عند المُرَبِّين والمُعلِّمين؛ يُنتِج غَبَشًا في تصوُّرهم عن المَحضن وعن علاقتهم بالمُتَرَبِّين؛ ومن ثَمَّ تكون لهم تصرفات سلبية ومعالجات مَغلوطة داخل المَحضن.

ضَعْف التجرُّد:

قد يكون ضعف التجرُّد لدى المُرَبِّي من البواعث وراء ظاهرة «الاستبداد

---

(١) محمد عادل. **منهاج المربي**. ص١٧٩.

(٢) ص: ٦٧-٧٠.

التربوي»؛ إذ تظهر تلك التصرفات الاستبدادية بسبب حُب الاستئثار بالمُتَرَبِّي؛ إمَّا لأنه مُتميِّز، وإمَّا لأنه يريد إلصاق تميُّز ذلك الطالب بمَحضنه، وإمَّا لأنه يرى في ذهاب الطالب وحضوره مع غيره إهانةً لشخصه، وإمَّا لأنَّ غَيْرة المُرَبِّي قد اشتعلت من وجود مُتَرَبِّيه مع غيره لحُبه له أو لأي سبب آخر؛ كل ذلك وارد؛ فكلنا بشر وإيماننا مُتقلِّب، ومشاعرنا -أحيانًا- تسيطر علينا.

وفي قول الشافعي رَحِمَهُ اللهُ دواء لكل ذلك: «ودِدتُّ أنَّ الخَلْقَ يَتَعَلَّمُون هذا العِلْمَ ولا يُنْسَبُ إلَيَّ منه شيءٌ»[١]، وقال أيضًا: «ودِدتُّ أنَّ كل عِلْمٍ أَعْلَمُه يَعْلَمُه النَاسُ أُوجَرُ عليه ولا يَحْمَدُونِي»[٢]؛ فالأجر أَحَبُّ إلى الشافعي رَحِمَهُ اللهُ من الثناء عليه وذُيُوع صِيته واسمه، وقد نالهما -بإذن الله-.

فَحَرِيٌّ بكل مَن يُعَلِّم العِلْم ويدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يضع قول الشافعي نُصْب عينيه، فلو كان المَقصد الثواب والأجر فسَتَتَبدَّد داخل نفسك كل تلك النوايا الدَّسِيسَة، ويكون كل هَمك رَبْط المُتَرَبِّي بالمنهج فقط.

فالتربية عمل شاق ومُجهِد ومُكلِّف من ناحية الجهد والوقت، وإن لم يكن المُرَبِّي فَطِنًا ويَقِظًا للأخذ فيه بأسباب القبول؛ فسيَضِيع ذلك الجهد هدرًا؛ مصداقًا لقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...»[٣]، ويعالج ذلك بالتعاهُد المُستمِر للقلب بالإخلاص والتجرُّد، وقد رَبَط القرآن الكريم بين «قسوة القلب ونسيان المَقاصِد» و«طول الأَمَد»؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ

---

(١) أبو نعيم الأصبهاني. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. مطبعة السعادة، القاهرة. ب.ط. ١٣٩٤هـ. ٩/ ١١٨.

(٢) المصدر نفسه. ٩/ ١١٩.

(٣) سبق تخريجه.

﴿مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(١)؛ وفي تفسير هذه الآية يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنَّ هذا القلب البشري سريع التقلُّب، سريع النسيان، وهو يشفُّ ويشرق؛ فيفيض بالنور ويرفُّ كالشعاع؛ فإذا طال عليه الأَمَد بلا تذكير ولا تذكُّر؛ تبلَّد وقسا وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم !فلا بُدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بُدَّ من الطَّرقِ عليه حتى يرقَّ ويشفَّ؛ ولا بُدَّ من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلُّد والقساوة»(٢).

وأخيرًا: إنَّ سلبيات «الاستبداد التربوي» أكثر من نَفْعه؛ وذلك لعِدَّة أسباب(٣):

١- لو استطاع المُرَبِّي أن يمنع الأفراد بعض الوقت من التعامل والتعاون مع غيره؛ فلن يستطيع أن يفعل ذلك كل الوقت؛ فسيأتي الوقت الذي يكسر فيه المُتَرَبِّي هذا الحِصار المفروض حوله، أو ربما يحتاج المُرَبِّي أن يرفع هذا الحِصار بنفسه.

٢- جانب مُهِمّ من التربية لا يتم إلا بالانفتاح على الآخرين، والاستفادة مما لديهم من خير وخبرات وأفكار، ونَقْل ما لدينا إليهم؛ فإنَّ هذا من مُقتضَيات الأُخُوة الحَقَّة، ومن معالم الرُّشْد في الدعوة.

٣- التجرُّد في الحِرْص على مصلحة الأفراد يقتضي عدم حِصار المُتَرَبِّي؛ لأن المُرَبِّي قد لا يملك كل ما يحتاجه المُتَرَبِّي، ويتطلب الأمر أن

---

(١) الحديد: ١٦.

(٢) سيد قطب. **في ظلال القرآن.** ٦/ ٣٤٨٩.

(٣) الخمسة أسباب المذكورة مُستفادة من: محمد عادل. **منهاج المربي.** ص١٧٩. بتصرف.

يُوَجَّهه بنفسه لشخص أو لجهة موثوقة تُكْمِل عمل المُرَبِّي مع الأفراد.

٤- تَرْك مساحة للحركة والانفتاح على الآخرين؛ لا تعني التفلُّت أو التعاون مع كل أحد دون انضباط ودون إشراف المُرَبِّي؛ بل ما نعنيه هو الانفتاح المُنضبِط والتعاون الواعي.

٥- هذه الطريقة الحِصارية للأفراد تُحَوِّل العلاقة المُميَّزة الوَدُودَة الدافئة بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّي إلى حالةٍ من الضيق، ربما تصل للتأزُّم النفسي من الوسط التربوي الذي أصبح يُمثِّل للمُتَرَبِّي عِبْئًا نفسيًّا وكابوسًا مُزعِجًا. وعن تجربة؛ كلَّما رَبَّيْتَ تلميذك على عدم التعصُّب؛ زاد تمسُّكه بالمَحضن أكثر، ومهما فرَّقَتْ بينك وبينه الظروفُ حَنَّ إلى المَحضن!

١٥- بين الجدية والترفيه

أصبحت المحاضن التربوية اليوم تُواجِه تحديًا كبيرًا في جَعْل بيئتها جاذبةً للشباب عبر توفير وسائل الترفيه والتسلية؛ لمُنافَسة ومُواكَبة وسائل الترفيه الأخرى الجاذبة للشباب من ألعابٍ تكنولوجيةٍ وغيرها؛ فصار من الضروري جَعْل الترفيه ضمن مكونات المَحضن؛ سواء في الترفيه، أو الاعتماد عليه في الوسائل التعليمية؛ لإكساب المَحضن صفة الجاذبية.

تفاوَتَ المُرَبُّون في استخدام الترفيه داخل محاضنهم؛ فمنهم مَن وظَّفَ الترفيه داخل مَحضنه وجعله كالملح على الطعام، واعتبره عاملًا مُساعِدًا كي لا تَملَّ أنفُس المُتَرَبِّين. ومنهم مَن أساء استخدامه؛ حيث جَعَل الترفيه مُهَيمِنًا على كل النشاط حتى تلاشَتْ تمامًا معاني الجدية في مَحضنه، وجَعَلها وَجْبَةً من الملح!

أهمية هذا المقال تَكمُن في توظيف الترفيه داخل المحاضن التربوية، لا سيَّما أننا نستخدمه في مجالٍ عَجَلة إنتاجه بطيئة ومخرجاته قليلة؛ مما يَفرِض علينا تقنين الترفيه داخله وعدم إساءة توظيفه.

وقبل أن نبدأ؛ يجب أن نُفرِّق بين المحاضن؛ فهناك فرق بين المحاضن «العامَّة» التي تُستخدَم في جَذْب جميع الفئات من الشباب، والمحاضن «النُّخْبَوِيَّة» التي تصطفي صفوة هؤلاء الشباب داخلها لبنائهم.

يتناسب الترفيه في المَحضن وفقًا لنوع المَحضن؛ فأمَّا المحاضن «العامَّة» فيتناسب معها أن يكون نصف -أو أغلب- وقت النشاط ترفيهيًّا، وبقيته يحمل صِبغة الجدية؛ نظرًا لطبيعة النشاط التجميعي. وأمَّا المحاضن «النُّخْبَوِيَّة» فيتناسب معها أن يكون ربع وقت النشاط ترفيهيًّا؛ نظرًا لطبيعة هدف المَحضن الذي تُصنع بداخله الكوادر التي ستَحمِل هَمَّ العمل الدعوي بعد ذلك.

لماذا العلاقة طردية بين الجدية والمحاضن النُّخْبَوِيَّة؟

السنوات الذهبية يلزمها جدية:

المحاضن «النُّخْبَوِيَّة» تصطفي -في الأصل- صفوة المُتَرَبِّين بعد اخيارهم من المحاضن «العامَّة» بناءً على معايير تم وضعها سلفًا، ومن المُؤكَّد أنَّ الجدية كانت ضمن المعايير، والتي تَشْمَل شَغَفهم بـ(تحصيل العلم، وحَمْل هَمِّ الدِّين، وحُسْن الخُلُق والسَّمْت) وغيرها، فمن السذاجة أن تَجِدَ تلك الصفوة النادرة من الشباب ثم لا يجدون عندك ما يروي ظمأ شَغَفهم من الجدية في التربية، بل يجدون أغلب وقتهم ذهب في أنشطةٍ ترفيهٍ لا تناسب مستواهم الجاد.

فَمِنَ الحماقةِ أنْ تَصِيدَ غَزَالةً ... وَتَتْركها بين الخلائقِ طالِقَة[1]

«فالشاب الذي في السنوات الذهبية للتحصيل العِلْمي؛ يُفترَض أن يكون

(١) البيت منسوب إلى الشافعي رحمه الله.

انكبابه وتركيزه الأساس على استثمار هذه اللحظات التي تُشكِّل ثروةً ثمينةً لا تتكرر، لا من حيث القوة البدنية وقِلَّة المَوانِع الصحية، ولا من حيث صفاء الذِّهن وقِلَّة الأعباء الاجتماعية، ولا من حيث النشاط النفسي وفَوَران الهِمَّة؛ بما يعني أنَّ زهرة وقته في هذه المرحلة الذهبية تكون للتحصيل العلمي والتزكية الإيمانية»[١].

«كنتُ أتَحدَّث مرةً مع أحد أقراني الناشطين في ميدان التربية الدعوية؛ فقال لي: ما وجهة نظرك في أكبر مشكلة تُهدِّد المحاضن التربوية مع هذه المُتغيِّرات والتحدِّيات الفكرية الجديدة؟ فقلت له بقناعةٍ تحفر أخاديدها في عقلي: صدقني يا أبا فلان؛ دَع عنك كل هذه الانحرافات الفكرية، فليست بشيء؛ أخطر مشكلة تُهدِّد التربية الدعوية هي نَقْص الجدية. في بيئةٍ يغلب عليها ضجيج اللهو، وخفة المرح، وقهقهات الفكاهة؛ أتُراها يُمْكِن أن تنتج مُسنَدًا أو مُدوَّنةً أو مَعْلَمةً أو مُعجمًا؟! منطق الحياة يأبى ذلك، والعِلْم خلقه الله ثمينًا لا يُجلَب في الأسواق المخفضة»[٢].

«فالمُشتغِل جادٌّ فيما هو فيه، يُرَبِّي قلبه، ويُعلي هِمته؛ والفارغ الكسول يُفتِّش في الفِتَن عن لَهْوٍ يُؤنِسُه!»[٣].

الكادر لا يَصلُح بغير جدية:

المُؤهَّلون للمحاضن «النُّخْبَوِيَّة» هم أشخاص -في الأصل- يُؤهَّلوا

---

(١) إبراهيم السكران. **الماجريات**. دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض. ط١، ١٤٣٦هـ. ص٢٨، ٢٩.

(٢) إبراهيم السكران. **مقال بعنوان «جسر التعب»**. موقع (www.saaid.net).

(٣) محمد أحمد الراشد. **العوائق**. ص٦٧.

ليكونوا كوادر تحمل عِبْء العمل التربوي والدعوي في المستقبل، ولا يليق بمَن يُؤهَّل لتلك المسئولية ألَّا يتَرَبَّى تربيةً جادةً؛ «أليس من عُمْق المُخاطَرة بالمنهج والمُراهَنة على ضياع الدعوة؛ أن يَسلُك أولئك الذين لم يتربوا ويتأهلوا تأهُّلًا كافيًا في رِكَاب القيادة، ويُسَلَّموا منصة التوجيه»[1].

وقد أوصى الله تعالى أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام- بالجدية في أخذ الرسالات؛ فقال ﷻ في حق نبيه يحيى ؏: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾[2]، وقال ﷻ في حق نبيه موسى ؏: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ ﴾[3]، وقد أجاد صاحب الظلال ؒ في تفسير تلك الآية -الأخيرة-، وعلَّق عليها بتفسير يُوضِّح معنى الجدية في أخذ الرسالات؛ فقال: «إنَّ العقيدة أمر هائل عند الله ﷻ، وأمر هائل في حساب هذا الكون، وقدر الله الذي يصرفه، وأمر هائل في تاريخ الإنسان وحياته في هذه الأرض وفي الدار الآخرة كذلك، والمنهج الذي تشرعه العقيدة في وحدانية الله ﷻ وعُبودية البشر لرُبوبيته وَحْدَه؛ منهج يُغيِّر أسلوب الحياة البشرية بجُملتها، ويُقِيم هذه الحياة على أسلوب آخَر غير الذي تجري عليه في الجاهلية؛ حيث تقوم رُبوبية غير رُبوبية الله ﷻ، ذات منهج للحياة كلها غير منهج الله الذي ينبثق من تلك العقيدة، وأمر له هذه الخطورة عند الله، وفي حساب الكون، وفي طبيعة الحياة، وفي تاريخ الإنسان؛ يجب أن يؤخذ بقوة، وأن تكون له جديته في النفس، وصراحته وحسمه، ولا ينبغي أن يؤخذ في رخاوة، ولا

---

(١) محمد الدويش. **التربية الجادة ضرورة**. دار الوطن للنشر، الرياض. ط٣. ب.ت. ص٢٧.

(٢) مريم: ١٢.

(٣) الأعراف: ١٤٥.

في تميُّع، ولا في ترخُّص؛ ذلك أنه أمر هائل في ذاته، فضلًا على أن تكاليفه باهظة لا يصبر عليها مَن طبيعته الرخاوة والتميُّع والترخُّص، أو مَن يأخذ الأمر بمثل هذه المشاعر. وليس معنى هذا -بطبيعة الحال- هو التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض؛ فهذا ليس من طبيعة دين الله ﷻ، ولكن معناه الجد والهِمَّة والحسم والصراحة، وهي صفات أخرى ومشاعر أخرى غير مشاعر التشدُّد والتعنُّت والتعقيد والتقبُّض»[1].

الجدية وَقُود المَسير:

مراحل الالتزام الأولى كمراحل التربية الأولى للإنسان؛ ما يتعلَّمه فيها يُنقَش في ذهنه طِيلَة العمر، وما يعيشه فيها من جَوٍّ إيماني يظل مُلازمًا له بقية حياته ولا ينسى لذَّته أبدًا، حتى إنَّ المُلتزِم يَحنُّ دومًا إلى أيام التزامه الأولى، كما يَحنُّ الإنسان في كِبَره إلى أيام طفولته وصباه.

كما أنَّ ما تلَقَّاه الإنسان في صِغَره يُشَكِّل شخصيته وعقله وطريقة تفكيره في الكِبَر؛ فإنَّ المراحل الأولى للإنسان المُلتزِم تُشكِّل تفكيره وتضبط بوصلته طيلة فترة التزامه، فمَن تَربَّى على الجدية فستكُون له كوَقُود المَسير في طريق التزامه، ومَن لم يتزوَّد بالجدية وأحرق زهرة شبابه في الترفيه والرُّتُوع فلا يُعَوَّل عليه في شيء.

وقد ظهر في مثال بَنِي إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام إهمال الجدية في التربية -بسبب نشأتهم على الذل والعُبودية البعيدة عن الجدية-؛ حين طلبوا منه الجهاد، فلما كُتب عليهم أخلفوا وعدهم؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[2]؛ «لقد كانت طبيعة بَنِي إسرائيل

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٣/ ١٣٧٠.

(٢) البقرة: ٢٤٦.

-بصفة خاصة- بعدما أفسدها طول الذل والعُبودية في مصر؛ تحتاج إلى هذا التوجيه؛ لذلك نلحظ أنَّ كل الأوامر لِبَنِي إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد؛ تربيةً لهذه الطبيعة الرخوة المُلْتَوية المُنحرِفة الخاوية، على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة؛ كما هو الملحوظ في واقعِ كثيرٍ من الجماعات البشرية التي نطالعها في زماننا هذا، والتي تهرب من العقيدة لتهرب من تكاليفها، وتسير مع القطيع لأنَّ السير مع القطيع لا يكلفها شيئًا! وفي مقابل أَخْذ هذا الأمر بقوةٍ يَعِد اللهُ ﷻ موسى ﵇ وقومه أن يُمَكِّن لهم في الأرض، ويورثهم دار الفاسقين عن دينه»[١].

وسِمة الوقوع وقت الابتلاءات والتفلُّت من التكاليف الشاقة؛ هي «سِمة كل جماعة لا تنضج تربيتها، فهي سِمة بشرية عامة لا تُغيِّر منها إلا التربية العالية الطويلة الأَمَد، العميقة الأثر، وهي -من ثَمَّ- سِمة ينبغي للقيادة أن تكون منها على حذر، وأن تحسب حسابها في الطريق الوعر؛ كي لا تُفاجأ بها، فيتعاظمها الأمر، فهي مُتوقَّعة من الجماعات البشرية التي لم تخلص من الأوشاب، ولم تصهر من هذه العقابيل»[٢].

جدية تتناسب مع حجم الأمانة:

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[٣]؛ فعلى المُرَبِّي إدراك جَسَامة الأمانة المُلقاة على عاتقه، وأن يناسب مستوى

---

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٣/ ١٣٧٠، ١٣٧١. باختصار.

(٢) عبد الوهاب عزام. **الشوارد**. ب.ط. ب.ت. ص٦. بتصرف.

(٣) الأحزاب: ٧٢.

برنامجه التربوي بمستوى تلك الأمانة؛ أمانة التوحيد، والعقيدة والاستقامة عليها، والدعوة، والصبر على القيام بتكاليف الشريعة، وإصلاح المجتمع؛ كل ذلك لو أدركه المُرَبِّي لقَلَّص من حجم الترفيه في المحاضن التربوية وركَّز على قيمة الجدية.

إنَّ أمانة الدِّين كالبنيان الشاهق عديد الأدوار، لا بُدَّ أن يُبنى على أساسات خرسانية قوية تتناسب مع البناء الضخم لتَحْمِله، وإهمال ذلك التناسب ينافي المنطق؛ وفي نهاية سيئول الأمر إلى كارثة.

يقول سيد قطب ﵀: «إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق، الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر؛ الذي تُناوِشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع، وإنها لمُخاطَرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة؛ ومن ثَمَّ ﴿ كَانَ ظَلُومًا ﴾ لنفسه، ﴿ جَهُولًا ﴾ لطاقته، هذا بالقياس إلى ضخامة ما زَجَّ بنفسه لحمله. فأمَّا حين ينهض بالتبعة، حين يَصِل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه، والاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه، المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولةٍ ويُسرٍ وكمالٍ في السماوات والأرض والجبال؛ الخلائق التي تَعرف مباشرةً، وتَهتدي مباشرةً، وتُطيع مباشرةً، ولا تَحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل، ولا تقعد بها المُثبِّطات عن الانقياد والطاعة والأداء، حين يَصِل الإنسان إلى هذه الدرجة، وهو واعٍ مدركٌ مريدٌ؛ فإنه يَصِل حقًّا إلى مقامٍ كريمٍ، ومكانٍ بين خَلْق الله فريدٍ»[1].

وأخيرًا: ليس القصد من الكلام السابق إلغاء عُنْصُر الترفيه في المحاضن

---

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٥/ ٢٨٨٥.

التربوية، ولكن القصد هو ضبط الترفيه داخل مُعادَلة التربية؛ من أَجْل تحسين مُخرَجات المحاضن، وتربية جيلٍ قادرٍ على تحمُّل الصِّعاب والشدائد، جيلٍ جادٍّ كجدية المِقْداد بن الأسْوَد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حيث قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «شَهِدتُّ من المِقْداد بن الأسْوَد مَشهَدًا[1]؛ لَأَنْ أكُون صاحبَه أحبُّ إليَّ مما عُدِل به؛ أتى النبيَّ ﷺ وهو يَدْعُو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾[2]، ولكِنَّا نقاتِل عن يمينك، وعن شِمالك، وبين يديك، وخلفك»[3].

---

(١) يقصد يوم بدر.

(٢) المائدة: ٢٤.

(٣) رواه البخاري. باب: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. حديث رقم (٣٩٥٢).

١٦- كيف تُقوِّم سلوكَ المُتَرَبِّي؟

موقف (١):

عن خوَّات بن جُبَير رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: نَزَلْنا مع رسول الله ﷺ مَرَّ الظَّهْرَانِ[١]، قال: فخرجتُ من خِبائِي[٢] فإذا أنا بِنِسْوةٍ يَتَحَدَّثْنَ فَأَعْجَبْنَنِي، فرجعتُ فاستخرجتُ عَيْبَتي[٣]، فاستخرجتُ منها حُلَّةً[٤] فلبستُها، وجئتُ فجلستُ معهنَّ، وخرج رسول الله ﷺ من قُبَّتِه[٥] فقال: «أَبَا عَبْدِ الله، مَا يُجْلِسُكَ مَعَهُنَّ؟»، فلمَّا رأيتُ رسول الله ﷺ هِبْتُهُ واخْتَلَطْتُ[٦]، قلتُ: يا رسول الله، جَمَلٌ لِي شَرَدَ، فأنا أبتغي له قَيْدًا[٧]، فَمَضَى وَاتَّبَعْتُه، فأَلْقَى إليَّ رِدَاءَه ودخل الأَرَاك كأنِّي أنظُر إلى بَيَاضِ

(١) اسمه اليوم «وادي فاطمة» شمال مكة.

(٢) منزلي.

(٣) ما تُصان فيه الثياب وتُحفَظ.

(٤) الثوب الجيِّد الجديد.

(٥) خَيْمته.

(٦) ارتبكتُ.

(٧) الحَبل -أو ما شابهه- الذي يُعقَد حول رِجل الدابة ليمسكها.

مَتْنِه في خَضِرَة الأَرَاك[١]، فقضى حاجته وتوضأ، فأقبَلَ والماء يسيل من لحيته على صدره، فقال: «أَبَا عَبْدِ الله، ما فَعَل شِرَاد جَمَلِكَ؟» ثم ارْتَحلْنَا. فجَعلَ لا يَلْحَقُنِي في المَسير إلا قال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا عَبْدِ الله، مَا فَعَلَ شِرَادُ ذَلِكَ الْجَمَلِ؟»، فلمَّا رأيتُ ذلك تعجَّلتُ إلى المدينة واجتنبتُ المسجد والمُجالَسة إلى النبي ﷺ، فلمَّا طال ذلك تحيَّنْتُ[٢] ساعةَ خَلْوَةِ[٣] المسجد، فأتيتُ المسجد فقمتُ أُصَلي، وخرج رسول الله ﷺ فجأةً فَصَلَّى رَكْعَتَيْن خَفِيفَتَيْن، وطَوَّلْتُ رَجَاءَ أَنْ يَذْهَبَ ويَدَعُنِي، فقال ﷺ: «طَوِّلْ أَبَا عَبْدِ الله مَا شِئْتَ أَنْ تُطَوِّلَ، فَلَسْتُ قَائِمًا حَتَّى تَنْصَرِفَ»، فقلتُ في نَفْسِي: واللهِ لَأَعْتَذِرَنَّ إلى رسول اللهِ ﷺ ولَأُبْرِئَنَ صَدْرَهُ، فلمَّا قال: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا عَبْدِ اللهِ، مَا فَعَلَ شِرَادُ ذَلِكَ الْجَمَلِ؟»، فقلتُ: والذي بَعَثَكَ بالحق، مَا شَرَدَ ذَلِكَ الْجَمَلُ مُنْذُ أَسْلَمَ، فقال ﷺ: «رَحِمَكَ اللهُ» ثَلَاثًا، ثم لم يُعِدْ لشيءٍ مِمَّا كان[٤].

موقف (٢):

عن أَبي أُمَامَة رضي الله عنه قال: إنَّ فَتًى شابًّا أَتَى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا. فأَقبَلَ القومُ عليه فزَجَرُوه وقالوا: مَهْ، مَهْ[٥]. فقال ﷺ: «ادْنُهْ». فَدَنَا منه قريبًا فجلس. فقال ﷺ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟»، قال: لا،

---

(١) يعني ذهب إلى مكانٍ ليقضي حاجته ﷺ.

(٢) ترقَّبتُ.

(٣) فراغ.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير. حديث رقم (٤١٤٦). قال الحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه الطبراني من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح.

(٥) كُفّ عمَّا تقوله.

واللهِ يا رسول الله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟»، قال: لا، واللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قال: فَوَضَعَ يَدَه عليه وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». قال: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذلك الفَتَى يَلتَفِتُ إلى شيء[(١)].

موقف (٣):

عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أَرْدَفَ رسولُ الله ﷺ الفَضْلَ بن عباس يومَ النَّحْر خلفه على راحلته، وكان الفَضْل رجلًا وَضِيئًا[(٢)]، فوَقَفَ النبيُّ ﷺ للناس يُفتِيهم، وأقبلت امرأةٌ وَضِيئة تستفتي رسول الله ﷺ، فَطَفِقَ[(٣)] الفَضْل ينظر إليها، وأعجَبَه حُسْنُها، فالْتفتَ النبي ﷺ والفَضْل ينظر إليها، فأَخْلَفَ بيده ﷺ فأخَذَ بذَقْن الفَضْل، فعَدَلَ وجهه عن النظر إليها[(٤)(٥)].

هذه ثلاثة مواقف تتبَّعتُ فيها كيفية تعامُل سيِّد المُرَبِّين ﷺ في تقويم سلوك أصحابه رضي الله عنهم، لا سيَّما صغار السِّن منهم، ومن الوارد أن يتعرَّض لها

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) حَسَن الوجه جميل الصورة.

(٣) بدأ.

(٤) مَدَّ النبيُّ ﷺ يده خلف رأس الفَضْل، وأمسك بذقنه، وأدار وجهه عن المرأة.

(٥) رواه البخاري. باب: قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾. حديث رقم (٦٢٢٨).

بعض المُرَبِّين مع مَن يُرَبُّونهم، وبمطالَعة تلك المواقف التي حدثَتْ بين شباب الصحابة ﷺ والنبي ﷺ؛ نستخلص عِدَّة دروس وعِبَر لعلها تكون إضاءات في تعامُلنا مع المُتَرَبِّين وتقويم سلوكهم؛ وهي:

١- تقدير الطبيعة البشرية:

لقد راعَى النبي ﷺ الطبيعة والجِبِلَّة البشرية في مُعامَلته مع أخطاء الصحابة ﷺ؛ ففي تلك المواقف السابقة لم يَتعجَّب من وقوع أحدهم في معصيةٍ أو مَيْل نفسه لطلب المعصية، وظهر ذلك في الثلاثة مواقف، وفي كل مواقف السُّنة المُشابِهة.

وهذا مَلْمَحٌ مُهِمٌّ في طريقة تعامُل المُرَبِّي مع مَن يُرَبِّيهم؛ وهو تقدير البُعد الإنساني لهم، والشروع في مُعالَجة الخطأ دون لَوْم المُتَرَبِّي أو تَقْريعه بدَعْوَى أنَّ الالتزام يُغَيِّره (١٨٠) درجةً! وقد وضَّح النبي ﷺ أنَّ معادن البشر لا تتغير بمجرد دخولهم في الدِّين، إلا إذا تهذَّبَت نفوسهم بالعِلْم في الدِّين، ومُعاهَدة نفوسهم وتقويمها، وذلك ليس بالجهد البسيط؛ فقال ﷺ: «خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ، إِذَا فَقِهُوا»[(١)]، وقال ﷺ أيضًا: «إِنَّ المؤمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا توَّابًا نَسِيًّا، إذا ذُكِّرَ ذكَرَ»[(٢)]؛ فنَصَّ النبيُّ ﷺ أنَّ الإنسان لا يتغيَّر بمجرد نُطْقه الشهادة أو حَمْله هَمّ الدِّين، بل يدخل دائرة الإسلام أو التديُّن ومعه ما معه من رواسب الجاهلية من طباعٍ جُبِل عليها، وشهواتٍ اعتادها، ويحتاج إلى سنوات ليتخلَّص منها، وتلك الأحاديث ليس الغرض منها خَلْق الأعذار للوقوع

(١) صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير. حديث رقم (٣٢٦٧).

(٢) سبق تخريجه.

في المعاصي بحُجة الجِبلَّة الإنسانية -حاشا لله-، بل المقصود منها هو البُعد عن المِثالية في النظرة إلى الأشخاص عامةً.

وكان النبي ﷺ يُراعي ذلك البُعد في تعامله مع الجميع، حتى مع زوجاته؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلَتْ إحدى أُمَّهات المُؤمِنين بِصَحْفَةٍ[١] فيها طعام، فضَرَبَتِ التي النبيُّ ﷺ في بيتها يَدَ الخَادِمِ، فسقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَانْفَلَقَتْ، فجمع النبيُّ ﷺ فِلَقَ الصَّحْفَةِ، ثم جَعَل يَجمَع فيها الطعام الذي كان في الصَّحْفَةِ، ويقول: «غَارَتْ أُمُّكُمْ»، ثُمَّ حَبَسَ الخادمَ حتى أُتِيَ بِصَحْفَةٍ من عند التي هو في بَيْتِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصحيحةَ إلى التي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وأَمسَكَ المَكسورة في بَيْتِ التي كَسَرَتْ[٢].

٢- تقدير درجة العلاقة بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّي:

من المُلاحَظ في تعامُل النبي ﷺ مع أخطاء الصحابة رضي الله عنهم تنوُّع أسلوبه وفقًا للعلاقة بينه وبين الصحابي، ومن الواضح أنَّ أولئك الصحابة ليسوا على درجةٍ واحدةٍ في القرب من النبي ﷺ؛ فكان التوجيه مُتناسِب مع نوع العلاقة ودرجتها بينه وبينهم، ووفقًا للموقف نفسه.

فالشاب الذي استأذن النبيَّ في الزنا؛ قد استخدم معه ﷺ أسلوب الحوار المُباشِر والإقناع ثم دعا له[٣]، رغم أنه لم يستخدم ذلك الأسلوب مع خوَّات ابن جُبَير والفَضْل بن عباس رضي الله عنهم؛ أمَّا خوَّات فقد استخدم معه النبيُّ ﷺ التعاهُد

(١) وعاء يُؤكل فيه.

(٢) رواه البخاري. باب: الغَيْرة. حديث رقم (٥٢٢٥).

(٣) سبق تخريجه.

بالنصيحة والتعريض له بمُلاحَظة الخطأ؛ بقوله ﷺ: «ما فَعَل شِرَاد جَمَلِكَ؟»[١]، وأمَّا الفَضْل فقد استخدم معه النبيُّ ﷺ النُّصْح باليد وأدار وجهه عن المرأة[٢].

واختلاف طُرُق النُّصْح هو من حِكمة النبي ﷺ؛ فَوَجَّهَ النُّصح لكل مُتَرَبٍّ وفقًا لطبيعة العلاقة بينهما، فلم يتحاور مع خوَّات أو الفَضْل كما تحاوَرَ مع الشاب الذي استأذنه في الزنا، ولم يستخدم الأسلوب الذي اتبعه مع خوَّات في موقف الشاب، كون طبيعة العلاقة لا تسمح بالمُرافَقة مثل ما كان مع خوَّات، فكان كل تقويم للخطأ وفقًا لكل مُتَرَبٍّ وما يُصْلِحُه.

«فالتربية هي تواصُلٌ مع المشاعر والوجدان والعقول، وهي ألوانٌ مختلفةٌ وفقًا لطبيعة الذين يتعامل المُرَبِّي معهم، ولكلِّ لونٍ تدرُّجاته الفاتحة والغامقة؛ إنها عملياتٌ حساسةٌ للغاية، تحتاج إلى ماهرٍ كمهارة مهندس الصوت القابع خلف جهاز ميزان الصوت، وكل أداءٍ له مقاديره من الوزن والترتيب الدَّقِيقَيْن»[٣].

إذًا؛ يجب على المُرَبِّي عند تقويم أخطاء مُتَرَبِّيه مُراعاة: (درجة العلاقة، طبيعة الموقف).

٣- عدم لَمْز المُتَرَبِّي بالذَّنْب:

من الهَدْي النَّبَوي في جميع حوادث الذنوب التي حدثت في حياته ﷺ من أصحابه رضي الله عنهم؛ أنه ﷺ لم يَكُن لِيَلْمِزَ أحدهم بذنب أحدَثَه، ولا يُعيِّر أحدًا بإثمٍ وَقَع فيه، فلم يُعيِّر النبيُّ ﷺ خوَّات بن جُبَير رضي الله عنه بذنبه، ولم يذْكُر ﷺ للفَضْل ابن عباس رضي الله عنهما خطأه بعدها، بل انتهى الأمر بانتهاء التقويم.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) فايز سعيد الزهراني. **التربية من جديد**. ص٢٢٦.

حتى في تطبيق الحدود -وهي آكَد-؛ رفَضَ ﷺ لَعْن شارب الخمر بعدما لعنه أحدُ الناس لكثرة ما يؤتى به ليُجلَد، فقال النبيُّ ﷺ: «لاَ تَلْعَنُوهُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ»[١]. حتى إنه ﷺ رَفَض اللَّمْزَ والسَّبَّ بعد مماتهم وليس في حياتهم فقط؛ فعند رَجْم الغامِدِيَّة < أقبَلَ خالد بن الوليد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بحَجَرٍ، فرَمَى رأسَها فتَنَضَّحَ الدمُ على وجهِ خالدٍ فسَبَّها، فسمِعَ النبيُّ ﷺ سَبَّهُ إيَّاهَا؛ فقال ﷺ: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَد تابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ[٢] لَغُفِرَ لَهُ»[٣].

فالمُرَبِّي الحاذق هو مَن ينتهي عن ذِكْر الخطأ بانتهاء تقويمه، ولا يُعيِّر المُتَرَبِّي كلَّما رآه، بل يحاول أن يتصنَّع أمام المُتَرَبِّي نسيانه للخطأ، حتى وإن ذَكَره المُتَرَبِّي.

وفي لَمْز المُتَرَبِّي بخطأه الكثير من المشكلات النفسية التي تترتب عليه؛ منها ضيق صدر المُتَرَبِّي بالمُرَبِّي كلَّما عَيَّره بالخطأ وذكَّره به؛ الأمر الذي قد يَصِل بالمُتَرَبِّي إلى تَرْك المَحضن بالكلية لصعوبة تحمُّل ما يفعله المُرَبِّي بنفسيَّته! كما أنَّ التعيير بالخطأ يصْنَع في ذِهن المُتَرَبِّي صورةً خاطئةً عن نفسه تظل عالقةً في ذِهنه؛ مما يجعله غيرَ قادرٍ على تجاوُز الخطأ أو التغلُّب عليه، وكأنَّ هذا الخطأ هو الخطأ الأوحد في حياته؛ وهذا يُنافي الطبيعة البشرية -في الأساس-؛ فيُحمِّل نَفْسَ المُتَرَبِّي ما لا تَطِيق.

---

(١) رواه البخاري. باب: ما يُكره من لعن شارب الخمر، وإنه ليس بخارج من الملة. حديث رقم (٦٧٨٠).

(٢) صاحب المَكْس: هو الذي يأخذ مالاً -بغير حق- من التجار إذا مَرُّوا به، فهو آكل للسُّحت. والمَكْس كبيرة من أقبح الكبائر، إلى الحد الذي جَعَل النبي ﷺ يَضرِب بها المثل في قصة الغامِدِيَّة < .

(٣) رواه مسلم. باب: مَن اعترف على نفسه بالزنا. حديث رقم (١٦٩٥).

وقد يوصِل تعيير المُتَرَبِّي بخطأه إلى درجة اللامُبالاة؛ حيث يستوي عنده فِعْل الخطأ وعدمه؛ بل إنَّ هذا التعيير سيَخلُقُ حاجزًا بين المُتَرَبِّي ومُرَبِّيه؛ يمنع المُتَرَبِّي من البَوْح بأيِّ مشكلة يعانيها أو أيِّ خطأ يحتاج فيه لإرشاد؛ «فجميع وظائف المُرَبِّي ومَهَامِّه تَصُبُّ في البناء والارتقاء بمستوى الأفراد، وليس من المقبول أبدًا التصرُّف بأيِّ صورةٍ يُمْكِن من شأنها انتقاص الأفراد أو تحطيم نفوسهم، تحت أي مُسَمًّى ولأيِّ سببٍ»[١]. يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله: «إنَّ تعييرك لأخيك بذنبه أعظمُ إثمًا من ذنبه وأشدُّ من معصيته؛ لِما فيه من صَوْلَةِ الطاعة[٢]، وتزكيةِ النفس وشُكْرِها، والمُناداةِ عليها بالبراءةِ من الذنب! ولعل كَسْرَته بذنبه، وبَوْئِه به[٣]، وما أحدث له من الذِّلة والخضوع، والإزْرَاء على نفسه[٤]، والتخلُّص من مرض الدَّعْوى[٥] والكِبر والعُجْب، ووقُوفه بين يَدَي الله عز وجل ناكِسَ الرأس خاشعَ الطَّرْف[٦] مُنكسِرَ القلب؛ أنفعُ له، وخيرٌ من صَوْلَة طاعتك، وتكثُّرك بها[٧]، والاعتداد بها[٨]، والمِنَّة على الله عز وجل وخَلْقِه بها[٩]»[١٠].

---

(١) محمد عادل. **منهاج المربي**. ص١٤١.

(٢) المُعيِّر قد اغترَّ بطاعته فعيَّر أخاه صاحب الذنب.

(٣) اعترافه بذنبه.

(٤) أن يحتقر المُذنِبُ نفسه لأنه عَصَى الله جل جلاله.

(٥) أن يدَّعي الإنسان ويزعم أنه كبير على المعصية.

(٦) الانكسار والخشوع يملآن عينَيْه لِما اقترَفَه في حق الله جل جلاله.

(٧) تفاخُرك بها.

(٨) الاعتماد عليها والاستغناء بها عن الله جل جلاله.

(٩) التعالي بالإحسان.

(١٠) ابن قيم الجوزية. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. دار الكتاب العربي، بيروت. ط٣، ١٤١٦هـ. ١/ ١٩٥. بتصرف يسير.

٤- عدم الضغط على المُتَرَبِّي للاعتراف (أو الفَضْفَضَة):

بعض المُرَبِّين يزعم أنَّ من عُمْق العلاقة بينه وبين مَن يُرَبِّيهم ضرورة البَوْح بمعاصيهم، وأنه كلَّما اعترف المُتَرَبِّي بكَمٍّ أخطائه نجحت العملية التربوية، وكأنَّ العملية التربوية كالطَّقْس المَسيحي[١] الذي يُشْبِه الاعتراف للقِسِّيس والحصول على صَكِّ الغُفْران[٢]! وهذا خطأ جَسِيم له تأثير سلبي على العملية التربوية، فالمطلوب من المُرَبِّي أن يُقوِّم الأخطاء الظاهرة فقط من المُتَرَبِّي، أو التي حكاها من نفسه دون فُضول أو ضغط.

حتى لو طلب المُتَرَبِّي مساعدة مُرَبِّيه في تقويم خطأ خَفِي، فيساعده المُرَبِّي دون الخوض معه بشكل عميق ومُفصَّل؛ لِئَلَّا يتحوَّل الإجراء من تقويمِ سلوكٍ خاطئٍ إلى فَضْفَضَةٍ هدفها إراحة ضمير المُتَرَبِّي وتسكينه فقط، ولِئَلَّا يترتب عليها هدمُ سِتْر الحياء بين المُرَبِّي والمُتَرَبِّي، فتتأثر علاقة التوجيه والإرشاد بالسلب.

وتلك المشكلات الخَفِية عالَجها سيِّد المُرَبِّين ﷺ من خلال الحديث العامِّ غير المُوجَّه، والإرشادات الإيمانية التي تُجدِّد الإيمانيات داخل قلوبهم؛ فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إلا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتادُهُ الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنيا، إِنَّ المُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[٣].

---

(١) طريقة العبادات والاحتفالات الدِّينية عند المسيحيين.

(٢) ما كانت تُسَلِّمُه الكنيسة الكَاثُولِيكِيَّة في القرون الوسطى لمُوَاطِنِيها ويُسْمَحُ لهُم بدخول الجَنَّة -وفقًا لما كانت تَدَّعِيه-.

(٣) صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير. حديث رقم (٥٧٣٥).

١٧- ضَبْط التصوُّرات الذهنية

«الحُكمُ على الشيء فَرْعٌ عن تصوُّره» هي قاعدة فقهية معروفة[١]؛ يقول ابن العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح تلك القاعدة: «الحُكمُ على الشيء فَرْعٌ عن تصوُّره؛ فلا تَحْكُمْ على شيء إلا بعد أن تتصوَّره تصوُّرًا تامًّا؛ حتى يكون الحُكم مطابقًا للواقع، وإلا حَدَثَ خَلَلٌ كبيرٌ جدًّا»[٢]؛ فلا بُدَّ من التصوُّر الذهني الواقعي للحالة المُعَيَّنة التي حصلت فيها المسألة؛ لأنَّ مَن أساء التصوُّر أساء الفَهْم، ومَن أساء الفَهْم أساء الحُكم؛ لذلك فإنَّ «أكثر أغلاط الفتاوى من التصوُّر»[٣].

وبناءً على القاعدة المذكورة؛ فإنه لا بُدَّ أن تكون المُدخَلات التي يُبنَى عليها التفكير سليمة؛ لكي تكون مُخرَجات ونتائج التفكير سليمة أيضًا، حتى يُطلَق الحُكم الصحيح على المسألة.

---

(١) محمد بن صالح العثيمين. **شرح الأصول من علم الأصول**. دار ابن الجوزي، الرياض. ط٤، ١٤٣٥هـ. ص٦٤٥.

(٢) المصدر نفسه. ص٦٤٥. بتصرف يسير.

(٣) محمد بن الحسن الثعالبي. **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٦هـ. ٢/ ٥٧١.

وتربويًّا؛ تُستعمَل تلك القاعدة فيما يُسمى بـ«ضَبْط التصوُّرات الذهنية»، وهذه التصوُّرات الذهنية تتمثَّل في «المُدخَلات»، وتُستعمَل مع المُتَرَبِّين لمُعالَجة تصوُّراتهم الخاطئة عن الأحكام والعبادات والأمور المُتعلِّقة بالدِّين والحياة عامةً.

ومُعالَجة التصوُّرات الذهنية الخاطئة إجراءٌ تربويٌّ قد مَارَسَه النبيُّ ﷺ مع الصحابة رضي الله عنهم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: جاء ثلاثة رَهْطٍ[1] إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عِبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تَقَالُّوها[2]، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غَفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، قال أحدهم: أمَّا أنا؛ فإني أصلي الليل أبدًا[3]، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أُفْطِر[4]، وقال آخر: أنا أعتَزِل النساء فلا أتزوَّج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أَنتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؛ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[5].

بالتأمُّل في الحديث السابق؛ نجد أنَّ الاضطراب الذي حَدَث في قراراتهم كان بناءً على مُدخَلات خاطئة بُنِيَت على تصوُّراتٍ ذهنيةٍ مثاليةٍ عن العبادة، فكانت المُخرَجات أنهم ظنوا أنَّ العبادة لا تُؤَدَّى إلا بالشكل المثالي الذي ظنوه! وقد عالج النبيُّ ﷺ تصوُّراتهم الذهنية داخل عقولهم؛ فقال: «لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ».

---

(١) ثلاثة رجال.

(٢) عَدُّوها قليلة.

(٣) دائمًا دون انقطاع.

(٤) أُواصِل الصيام يومًا بعد يوم.

(٥) رواه البخاري. باب: الترغيب في النكاح. حديث رقم (٥٠٦٣).

ويَحدُث اضطرابُ التصوُّرات الذهنية عند المُتَرَبِّين على صورتَيْن:

الصورة الأولى (المثالية): وهي تعني مثالية الصورة الذهنية في تطبيق الأعمال التعبُّدية أو الطموح أو الوُسْع المبذول؛ بسبب الفَهْم الخاطئ لأمثلة عُلُو الهِمَّة بأنها هي القاعدة أو أنها هي الحد الأدنى المطلوب للعبادة؛ فينشأ في ذهن المتصوِّر تصوُّرٌ بأنها لا تُؤَدَّى إلا على نفس صورة المثال المطروح؛ فعبادة قيام الليل -مثلًا- رُوِيَ فيها أنَّ عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يَمُرُّ بالآية من وِرْده بالليل فيَسْقُط حتى يُعادَ[1] كما يُعادُ المريضُ[2]. ورُوِيَ أنَّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأَ القرآنَ ليلةً في ركعةٍ لم يُصَلِّ غيرها[3]. فتجتمع تلك المُدخَلات -وما شابَهَها- وتُشكِّل عند المُتَرَبِّي تصوراتٍ خاطئةً «مثاليةً» عن عبادة قيام الليل، ويَظن أنه لا تتم العبادة إلا بتلك الطريقة التي سمعها بالأمثال التي ضُرِبَت سلفًا، حتى لو رَكَع بضع ركعات خفيفة في الليل لَشَعَر بتأنيب الضمير؛ بأنه لم يَصِل إلى مستوى التصوُّر الذهني «المثالي» المَبني في عقله عن قيام الليل، وقد يُحبَط ويتوقَّف عن العبادة من الأساس؛ فحَدَثَت المُخرَجات الفاسدة بسبب عدم ضبط المُتَرَبِّي للمُدخَلات، وبسبب التقصير في إفهام المُتَرَبِّي بأنَّ كل تلك الأمثلة هي مجرد أمثلة لتحفيز همته للمواظبة على قيام الليل، حتى ولو قام بركعةٍ أو ركعتَيْن.

إشكالية مثالية التصوُّر الذهني؛ تتمثَّل في تحويل أمثلة عُلُو الهِمَّة في ذهن المُتَرَبِّي إلى الحد الأدنى الذي لا تُمارَس العبادة إلا به، فإمَّا أن يُؤدِّيها كما

---

(١) يُزار.

(٢) ابن الأثير. **الكامل في التاريخ**. تحقيق: عمر عبد السلام تدمري. دار الكتاب العربي، بيروت. ط١، ١٤١٧هـ. ٢/ ٤٣٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. ٢/ ٤٨٢.

سَمِعَها في المثال المطروح عليه وإلا فلا، فيُحاوِل المُتَرَبِّي جاهدًا الوصول لتلك المستويات الصعبة والاستدامة عليها، وهو ما لا تَسَعه طاقته البشرية؛ مما يترتب عليه تَرْك العبادة بالكلية، بل قد يصل الأمر إلى الانتكاس وترك الالتزام بالكلية، ولن يُشَادَّ الدِّين أَحَدٌ إلا غَلَبَه؛ كما قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ[١] أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ[٢]، فَسَدِّدُوا[٣] وَقَارِبُوا[٤] وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ[٥]»[٦].

وقد حَدَث ذلك الإشكال مع حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ رضي الله عنه لمَّا تَشكَّل عنده تصوُّر خاطئ عن الإيمان، فظن في نفسه النفاق، فصَحَّح له الرسولُ ﷺ هذا التصوُّر بأنَّ الإيمان يَزيد ويَنقُص؛ فعن حَنْظَلَةَ الأُسَيِّدِيِّ -وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ- قال: لَقِيَني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلتُ: نافَقَ حَنْظَلَة، قال: سبحان الله ما تقول؟! قلتُ: نكُون عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرنا بالنار والجنة حتى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ[٧]، فنَسِينَا كثيرًا، قال أبو بكر: فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هذا، فانطلقتُ أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قلتُ: يا رسول الله،

---

(١) يُكلِّف نفسه من العبادة فوق طاقته.

(٢) رَدَّه إلى اليُسر والاعتدال.

(٣) اِلْزَمُوا التوسُّط في الأعمال.

(٤) اقتربوا من فِعْل الأكمل إن لم تسطيعوه.

(٥) استعينوا على مُداوَمة العبادة بإيقاعها في الأوقات التي تَنشَطُون فيها؛ كأول النهار وبعد الزوال وآخر الليل.

(٦) رواه البخاري. باب: الدِّين يسر. حديث رقم (٣٩).

(٧) اشتغلنا وانشغلنا بأزواجنا وأولادنا وأموالنا وتجارتنا وبالالتزامات المعيشية اليومية.

نكُون عندك تُذَكِّرنا بالنار والجنة حتى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فإذا خرجنا من عندك عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، نَسِينَا كثيرًا، فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً»، قالها رسول الله ﷺ ثلاثَ مرات[١].

أدرك سيِّد المُرَبِّين ﷺ الخلَلَ الذي وقع في ذهن حَنْظَلَة بمثالية الصورة الذهنية لإيمانيات الفرد المسلم، وسرعان ما صَحَّح له ﷺ التصوُّر بأنَّ الإيمان يَزيد ويَنقُص، وأنَّ الحالة الإيمانية المُثلى لا تدوم لأحدٍ من المؤمنين.

يَحدُث ذلك التصوُّر الخاطئ أيضًا أثناء دخول شهر رمضان المُبارَك، فيَدخُل المُتَرَبِّي مُستحضِرًا في ذهنه عبادة السَّلَف الصالح في رمضان، وأنَّ الآثار المَروِيَّة عن عبادتهم هو المستوى الأدنى المطلوب منه تنفيذه، وإذا لم يُطبِّقْه فقد خَسِر! رغم أنَّ الفوز برمضان لا يتطلَّب سوى صيام الشهر واجتناب المعاصي وتجديد التوبة، وصلاة القيام وإطعام الطعام وقراءة القرآن -ما استطاع إلى ذلك سبيلًا-، أمَّا أن يَحدُث خَلَلٌ في ذهن المُتَرَبِّي باستحضار نماذج من عبادات السَّلَف الصالح في رمضان واعتبار هذه النماذج هي الأصل أو الحد الأدنى؛ فهو خطأ جَسِيم؛ وقد يُعرِّض الفرد للانتكاس لعَجْزه عن القيام بالتصوُّر بالمطلوب في ذهنه!

أَضِف إلى ذلك؛ أنَّ لكُلِّ عَبدٍ بابًا تعبُّديًّا مَنَّ الله به عليه، هذا الباب يختلف عن غيره؛ فأحدُهم فَتَح الله عليه في قيام الليل، وآخَر فَتَح الله عليه في صيام

---

(١) رواه مسلم. باب: فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة، وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدُّنيا. حديث رقم (٢٧٥٠).

التطوُّع، وثالث فَتَح الله عليه في قضاء حوائج الناس؛ وعندما يَحدُث تصوُّر ذهني خاطئ بعدم القدرة على المُواظَبَة على عبادة لم يفتح الله بها عليه؛ يشعر المُتَرَبِّي بالتقصير والنفاق!

وحتى لو كانت همته عالية؛ فهو عالي الهِمَّة فيما فتح الله عليه من عبادة، وأمَّا العبادة التي لم يكن فيها عالي الهمة؛ فهو يصيب منها الحد الأدنى، وبالتصوُّرات الذهنية الخاطئة المُتضخِّمة عن تطبيق العبادات سيكون عُرْضَة للانتكاس والإحساس بالذنب والنفاق بسبب عجزه عن تطبيق تلك التصوُّرات المَغلوطة في ذهنه.

من التصوُّرات الذهنية الخاطئة أيضًا؛ تصوُّر التلذُّذ بالعبادات؛ فأحدُهم يسمع عن نماذج من السَّلَف الصالح في التلذُّذ بالعبادة، وعندما يُمارِس العبادة لا يَجدُ ما سمعه عن تلك النماذج؛ فيحزن أو يشعر بخَلَل في نفسه! والخَلَل هنا ليس في نفسه، ولكن فيمَن طرح عليه تلك النماذج دون ضبطها ضبطًا صحيحًا في ذهنه؛ لأن درجة التلذُّذ بالعبادة تتطلب درجةً عاليةً من الإيمان قد لا تكون مُتوَفِّرةً عند أغلب السامعين لتلك النماذج، وقد حَدَث ذلك مع السَّلَف الصالح أنفسهم؛ حيث قال ثابت البُنَانِي رحمه الله: «كابَدتُّ قيام الليل عشرين سَنةً[1]، وتَنعَّمتُ به عشرين سَنةً أخرى»[2].

كما أنَّ الأصل في العبادة أنها تُقام -ابتداءً- بالمُجاهَدة والمُكابَدة وحَمْل النفس على فِعْلها؛ حيث إنَّ الأصل في فِعْل الطاعات واجتناب المُحَرَّمات أن

(١) عَانَى شِدَّته وتحمَّلَ مَشاقَّه.

(٢) ابن رجب الحنبلي. **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**. دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت. ط١، ١٤٢٤هـ. ص٤٣.

تكون ثقيلةً على النفس؛ كما قال النبيُّ ﷺ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[١]؛ ومعنى الحديث أنه: «لن يَصِل المرء إلى الجنة إلا بارتكاب المَكاره، ولن يَصِل إلى النار إلا بارتكاب الشهوات، وكذلك هما مَحجوبَتان بهما؛ فمَن هَتَك الحجاب وَصَل إلى المَحجوب؛ فهَتْك حجاب الجنة باقتحام المَكاره، وهَتْك حجاب النار بارتكاب الشهوات. فأمَّا المَكاره فيَدخُل فيها: الاجتهاد في العبادات والمُواظَبة عليها والصبر على مَشاقِّها، وكَظْم الغَيْظ، والعفو، والحلم، والصَّدَقة، والإحسان إلى المُسيء، والصبر عن الشهوات، ونحو ذلك. وأمَّا الشهوات التي النار مَحفوفة بها؛ فالظاهر أنها الشهوات المحرمة: كالخمر، والزنا، والنظر إلى الأجنبية، والغيبة، واستعمال الملاهي، ونحو ذلك»[٢]، ولا تَصِل النفس إلى مكانة التلذُّذ بالعبادة إلا بعد فِطامها، وقد تحتاج إلى سنين، وقد لا يَصِل إليها العبدُ لكونها مِنحةً ربانيةً قد يَمُنُّ الله ﷻ بها عليه أو لا.

من صُوَر تلك المشكلة أيضًا؛ قَوْلَبَةُ التديُّن في شكلٍ مُعيَّنٍ؛ وهذه إشكالية تَحدُث للكثيرين؛ حيث يتشكَّل في ذهن المُتَرَبِّي أنَّ الهَدْي الظاهر يساوي الالتزام بالدِّين، رغم أنَّ الهَدْي الظاهر هو جزء صغير من الدِّين؛ وبالتالي يحكُم على غيره -ممَّن لا يطَبِّقون الهَدْي الظاهر- بالبُعد عن الالتزام، رغم أنه من المُتحمل أن يكون الذي يحكُم عليه هو أكثر اتباعًا للسُّنة في عباداته! وتلك الإشكالية لم يَسْلَم منها أغلب أبناء التيار الإسلامي، خاصةً في بداية التزامهم! وكم خَسِرَت الكِيَانات الدعوية من كوادر بسبب تلك الإشكالية التي رَسَمَتْ نَمَطًا مُعيَّنًا للتديُّن وحَصَرَتْه في هيئة مُحدَّدة، ومِن المُمكِن أن يكون تاركها معذورًا بسبب

---

(١) رواه مسلم. كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها. حديث رقم (٢٨٢٢).

(٢) النووي. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. ١٧/ ١٦٥. بتصرف يسير.

الظروف الأمنية أو تضييق أسرته عليه! ولا نُنْكِر أهمية السَّمْت الظاهر للمُنتسِب إلى حقل الدعوة، ولكن ما لا يُمْكِن قبوله أبدًا هو حَصْر التديُّن في سُنَن مُعَيَّنة وجعلها هي الضابط الوحيد للعمل لنُصْرة الدِّين والانتساب للحاكِمية؛ وهذا كله نِتَاج التصوُّرات الذهنية المَغلوطة!

الصورة الثانية (رَد الفعل تجاه المثالية): لمَّا خاف المُتَرَبِّي من تعرُّضه للإحباط عبر التصوُّرات الذهنية «المثالية»، أو مَرَّ -فعلًا- بتجربة مثالية مُحبِطة؛ مال إلى النموذج البسيط الذي يرضى فيه بالقليل، ولا يتطلَّع فيه إلى المستويات العالية من العبادة أو الطموح أو الأهداف؛ وهو -للأسف- رَدُّ فِعْلٍ عنيفٍ ليس فيه توسُّط.

وقد مال كثيرٌ من الشباب -في الآونة الأخيرة- إلى هذا النموذج «العادي»؛ كَرَدِّ فِعْلٍ تجاه التصوُّرات الذهنية «المثالية» التي بَثَّتْها محاضرات وكُتُب التنمية البشرية وقَصَص النجاح؛ عبر تضخيم التصوُّرات وترديد العبارة الشهيرة: «أخْرِج المارِد الذي بداخلك»؛ فجاء رَد الفعل عنيفًا لمَّا اكتشف الشبابُ صعوبةَ -أو استحالة- تحقيق تلك الصورة «المثالية» المرسومة في أذهانهم؛ فاختاروا النموذج «العادي» في جميع مستويات حياتهم!

وإشكالية هذه الصورة أخَفُّ من الصورة الأولى؛ فهو يحتاج إلى التحفيز وعُلُو الهِمَّة، ولكن بشكلٍ مُنضبِطٍ وتصوُّرٍ وَسَطِيٍّ؛ لأنَّ الإسلام وجَّهَ إلى عدم الرضا بالدُّونِيَّة عندما يكون الفرد قادرًا على فِعْل ما هو أفضل؛ يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من علامة كمال العقل؛ عُلُو الهِمَّة، والراضي بالدُّونِ دَنِيء!»[1]؛ وكما قال المتنبي:

---

(١) ابن الجوزي. **صيد الخاطر**. ص١٧.

وَلَمْ أَرَ فِي عُيوبِ النَّاسِ عَيبًا كَنَقْصِ القَادِرينَ على التَّمَامِ

وقد علَّمَنا النبيُّ ﷺ في سؤالنا الجنةَ أن نسأل اللهَ الدرجات العُلا منها؛ فقال ﷺ: «الْجَنَّةُ مِائَةُ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ مِنْهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ الْفِرْدَوْسُ أَعْلَاهَا دَرَجَةً وَمِنْهَا تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ الْأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، وَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»[(١)]؛ فهذا توجيه نبوي جليل بعدم الرضا بالدُّونِيَّة. وأيضًا قد ضَرَب لنا النبيُّ ﷺ مَثَلًا مع عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما حين حفَّزَه إلى قيام الليل؛ فقال ﷺ: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ»، فكان عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا[(٢)].

وأخيرًا: إنَّ المُرَبِّي يَقَع على عاتقه مسئولية ضَبْط تلك المُعادَلة المُعقَّدة؛ وهي مُعادَلة ضَبْط التصوُّرات الذهنية وتشكيلها وتوجيهها نحو الوَسَطية، وأنْ يُفْهِمَ المُرَبِّي مُتَرَبِّيه أنَّ الإسلام يَحْوِي التصوُّر الذهني السليم في طَيَّات القرآن الكريم والسُّنة المُطهَّرة؛ فالله تعالى هو مَن قال: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[(٣)]، وهو مَن قال أيضًا: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٤)]، وهذا ليس تناقُضًا، وإنما هو تكامُل، وجَمْعُها بتصوُّرات ذهنية وَسَطية هو حَلُّ تلك المُعادَلة المُعقَّدة -في ظاهرها-.

---

(١) صحَّحه الألباني في صحيح الجامع الصغير. حديث رقم (٣٤٢٩).

(٢) رواه البخاري. باب: مناقب عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. حديث رقم (٣٧٣٩). ومسلم. باب: من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. حديث رقم (٢٤٧٩).

(٣) الفرقان: ٧٤.

(٤) يوسف: ١٠١.



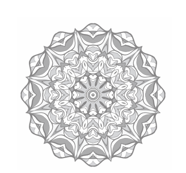

الباب الثاني: مقالاتُ الكِيَان التربوي

إليك أيها الكِيَان:

«الجاهلية المُنظَّمة لا يهزمها سوى إسلام مُنظَّم»

سيد قطب



١- الوجه الآخَر لِمأْسَسَة العمل الدعوي

إنَّ القيـام بالدعـوة إلى الله ﷻ عملٌ قد شـرَّفَ اللهُ به مَـن اصطفاه من عباده؛ لتحقيـق الغايـة المنشـودة مـن خَلْقهم، ولإرسـاء مفهـوم العُبودية والتسـليم لرب العالمين ﷻ رُبوبيةً وأُلوهيةً، والسير على منهج الأنبياء والرُّسُل -عليهم الصلاة والسـلام- لضَبْـط العِبَـاد على طريـق الله ﷻ الـذي ارتضـاه لهـم؛ فالدعـوة هـي «برنامجٌ كاملٌ يَضُمُّ في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس؛ ليُبْصِروا الغاية من مَحياهم، وليستكشفوا معالم الطريق الذي يَجْمَعهم راشدين»[١].

وانطلاقًـا مـن قـول النبـي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِـبُّ إِذَا عَمِـلَ أَحَدُكُـمْ عَمَـلًا أَنْ يُتْقِنَـهُ»[٢]؛ فقـد طوَّر العاملـون في الحقل الدعوي أسـلوب إدارة العمل، وأدخَلوا فيـه المؤسسـية؛ في محاولـةٍ منهـم لتأطير العمـل ضمـن سياق جماعي، وتوزيع الأعمال والتخصُّصات؛ من أَجْل البُعد عن الارتجال والفردية وسوء التخطيط؛ «فلـم يَعُـد اليـوم مجـالٌ للنزاع علـى أنَّ العمل المؤسسـي خيرٌ وأَوْلَـى من العمل

---

(١) محمد الغزالي. مع الله. دار الكتب الحديثة، القاهرة. ط٤. ب.ت. ص١٧.

(٢) حسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة. حديث رقم (١١١٣).

الفردي الذي لا يزال مَرَضًا من أمراض التخلُّف الحضاري في مجتمعات المسلمين»[١].

وللعمل المؤسسي مُميزاتٌ عديدةٌ في إدارته؛ فهو ينسجم مع فطرة الإنسان الاجتماعية من حُب العمل الجماعي، ويَحِدُّ من غرائزه النفسية من حُب السيطرة والتملُّك والأنانية؛ فهو يضبط العمل من خلال عملية إدارية مُنظَّمة تَحكُمها لوائح وقوانين تَحِدُّ التخبُّطَ والعشوائيةَ والانفرادَ في اتخاذ القرار وتساعد على الاستمرارية، وقد أثبتت الشخصيات والكِيَانات الدعوية التي تبنَّت الأسلوب المؤسسي في عملها؛ نجاحًا في استمرارها، وصلابة بُنيانها، وعدم تأثُّرها بالفردية أو التخبُّط في الأداء، وتطبيق شرع الله ﷻ في أمره بالشورى وجماعية الرأي.

قد يظن البعض أننا سنناقش مزايا وفوائد النظام المؤسسي وأثره على العمل الدعوي -وقد كُتِب في ذلك ما لا يُحصى من المقالات والكتب-، ولكن ما سنطرحه نقيض ذلك؛ حيث إننا سنتناول الوجه الآخَر للنظام المؤسسي في إدارة العملية الدعوية؛ في محاولةٍ لسدِّ الثغرات التي ظهرت -مُؤَخَّرًا- بعد انتشار المؤسسية في الكِيَانات الدعوية، ولفت النظر إلى الشروخ التي بدأت تَظْهَر في الأبنية بتوضيح العيوب والسلبيات. والحديث سيتناول المؤسسات الدعوية التي تُخصِّص أجورًا للعاملين فيها.

بين مِطرَقة الإنجاز وسِنْدان الإخلاص:

صراعٌ كبيرٌ يعيشه مَن يتقاضى أجرًا في الكِيَانات الدعوية التي تَتبنَّى الأسلوب المؤسسي في إدارتها؛ بين تحصيل الدُّنيا والآخرة، ولا سيَّما أنَّ مَهَامَّ

---

(١) محمد ناجي عطية. **مقال بعنوان «بين العمل الفردي والعمل المؤسسي»**. موقع (www.siironline.org).

وظيفته ليست دُنْيَوِيَّةً بَحْتَةً فيستطيع الفصل فيرتاح؛ ولا هي تطوُّعية -بدون أجر- فيرتاح باله من هَمِّ التفكير في تحقيق التوازن.

فإدارة الكِيَانات الدعوية التي تَتبنَّى المؤسسية في العمل؛ مثلها مثل إدارة أيِّ كِيَانٍ إداريٍّ دُنْيَوِيٍّ يَطْلُب إنجازًا شهريًّا وسنويًّا يُقيِّمُ به موظفيه؛ وبناءً عليه يتم الاستبعاد أو الترقية أو الخصم أو المكافأة، ويتعامل بالغياب والحضور، ومثل هذا الأسلوب يجعل المُوظَّف يعيش صراعًا بين إخلاصه في العمل الأُخْرَوِيّ الذي يبتغي فيه وجه الله ﷻ ويريد إتمامه على أكمل وجه، ومحاولة حِفَاظه على وظيفته التي يتكسَّب منها؛ مما يجعله -إذا لم يَسْتَطِع التوازن- يقصِّر في إحدى الكفتين لصالح الأخرى.

فمن أَجْل إرضاء إدارة المؤسسة؛ قد يسقط منه إخلاصه في العمل ونسيان الاحتساب لله ﷻ، ويصير كالقائم الذي ليس له من قيامه إلا السهر والتعب، وكالصائم الذي ليس له من صومه إلا الجوع والعطش! كما قد يلجأ أحدهم -أحيانًا- إلى التغاضي عن بعض الثوابت، أو التغافل عمَّا يراه صحيحًا دعويًّا؛ من أَجْل تسيير الأمور أو تحقيق بعض الإنجازات التي تراها الإدارة لكي ترضى عنه وتُحسَب له في سجل إنجازاته الوظيفية، لكنه -في الحقيقة- يَضُرُّ بمصلحة العمل الدعوي.

وحل تلك المُعضِلة يَكْمُن في استيعاب الإدارة طبيعة العمل، وإضفاء بعض المرونة في التعامل مع موظفيها الدُّعاة؛ بحيث لا تؤثر صرامة الإداريات على إخلاصهم وعطائهم. وعلى الجانب الآخَر يَتعيَّن على الموظف مُجاهَدة النفس بعملِ ما يرضي الله ﷻ ثم ضميره، بعيدًا عن أي مُحاباة أو إثبات الذات أو حُب الظهور، ويحمد الله ﷻ أن جَمَع له خَيرَي الدُّنيا والآخرة معًا.

ويجب أن نلفت النظر إلى أنَّ المؤسسات الدعوية التي يعمل فيها أعضاؤها دون أخذ أجر؛ هي أكثر إثمارًا، ولا يعاني مُنتسبُوها من تلك الصراعات إلا في أضيق الحدود؛ وذلك لسببَيْن؛ **الأول**: أنهم لا ينتظرون أجرًا دُنْيَوِيًّا مقابل سعيهم. **والثاني**: أنَّ الإدارة تهتم بالجوانب التربوية والإيمانية، وتُذكِّر -دائمًا- العاملين باحتساب الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ. على عكس المؤسسات المُتبَنِّية سياسة دفع المقابل.

قَوْمَجَة الدعوة:

تنتشر كثير من المؤسسات الدعوية المُتبَنِّية سياسة التوظيف في دُوَل تَتبنَّى تكريس النعرة القومية وتدعيم الولاء للدولة -كالمؤسسات الدعوية في دُوَل الخليج-؛ فتُفرَض على المؤسسة قيود تتصادم مع صُلْب دعوة الإسلام، الذي عمل رسوله ﷺ على تحلية نفوس أصحابه بزَرْع الولاء للدِّين ونَبْذ أي عُنْصُريةٍ أو تفرقةٍ بسبب لونٍ أو عِرْقٍ أو جنسٍ؛ فتتحوَّل خاصية الدعوة من عالميتها وإنسانيتها إلى دعوة خاصة بفئة من البشر لهم أوصاف مُحدَّدة وصفات مُعيَّنة، وإذا لم تَتوَفَّر فيهم حُرِموا خيرها، فكأنهم عَمُوا وصَمُّوا عن مُراد الآية الكريمة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[1] التي أمَرَتْ بنَبْذ التفرقة!

وقد نَفهَم -مع رَفْضِنا- التفرقة على أساس الدِّين أو العِرْق أو اللون أو الجنسية؛ في الخدمات الصحية أو المزايا الدُّنْيَوِيَّة المُقدَّمة من الدولة نفسها لمواطنيها، أمَّا أن تكون الدعوة خاضعةً لهذا التفريق؛ فهذا الذي يستحيل على العقل استيعابه!

(١) عبس: ١.

والأَدْهَى والأَمَرّ؛ أن يكون القائم على تلك المؤسسات من أنصار تلك النظرية وغير مُدرِك عالمية دعوة الإسلام؛ فيُجبِر الموظفين على تلك الرؤية مُستغِلًّا تقاضيهم الرواتب والمقابل الدُّنْيَوِيّ؛ وهذه طامَّة كبرى! ومن المُؤسِف أن تَجِدَ تدليسًا ولَيًّا لعُنُق النصوص، واستغلالًا لأحاديث حَنِين النبي ﷺ إلى مكة وملاعب صِباه في تبرير ما يحدث من تلك القَوْمَجَة!

وقد حكى لي ناشطٌ حقوقيٌّ يعمل في منظمةٍ للمجتمع المدني تابعة لأمريكا؛ أنَّ المنظمة طلبت منه تشكيل فريق عمل في دولته، واشترطت عليه عدم الاهتمام بجنسية عضو الفريق أو عِرْقه، وقالوا له نَصًّا: «نحن لا نعترف بالجنسيات»! فالعجب أن يأتي بعد ذلك مسلمٌ يُكَرِّس مؤسسته بناءً على تلك القوميات والعصبيات، ويضرب في بعض ثوابت دينه الذي جَمَع (الرُّومي، والفارسي، والحبشي)، وصَبَغهم بصِبغة واحدة!

الفردية المُقَنّعة:

قد ذَكَرْنا أنَّ من مُميزات العمل المؤسسي؛ جماعية العمل، والبُعد عن الفردية في اتخاذ القرار؛ ولكن ثَمَّة أزمة تَحدُث في الخفاء بتكوين «جماعات الضغط» الخاضعة لنفوذ شخصٍ ما يملك قوةَ تأثير -أيًّا كان نوع القوة- داخل المؤسسة؛ فيخرج القرار النهائي بشكل جماعي -ظاهريًّا-، لكنه -في الحقيقة- مُبَطَّن بفردية الشخص صاحب التأثير المُسيطِر على اللُّوبي!

وتَكْمُن خطورة اللُّوبي في نوايا وتوجُّهات ذلك الشخص المُسيطِر أو الأشخاص المُسيطِرين، فإن كانت نوايا حسنة؛ صَبَّت في مصلحة العمل، وإن كانت نوايا وُصُولية خبيثة مُتجرِّدة من الإخلاص؛ بَئِسَ العمل بها وساهمت في خرابه!

فنتائج الفردية والعشوائية هي نتائج حتمية لكل مؤسسة يَنْخَر فيها اللُّوبي الذي يعطِّل سُنة الشورى -بشكلٍ غير مباشر- بولائه للأفراد أصحاب النفوذ، كما أنه يُوقِف عملية تجديد الدماء في الكِيَان، بل يساهم في تجلُّطه؛ وهذا إيذان بانهيار الكِيَان على المدى الطويل! وهذه المشكلة تظهر -بشكلٍ كبير- في المؤسسات التي لا يتقاضى مُنتسبُوها أجورًا، ونادرًا ما تَجِدُ مَن يكوِّن اللُّوبي بدافع الإخلاص وحِرْصه على العمل، فالأغلب يكون بدوافع الوُصُولية وحُب السيطرة وتوهُّم الحِفَاظ على الكِيَان.

حتى لا يكون التيه مسارًا إجباريًّا:

يقول سيد قطب رحمه الله: «الانحراف الطفيف في أول الطريق؛ ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق»[1]؛ فطول الطريق دون تذكير أو تنبيه أو تقييم وتصحيح المسار؛ يجعل التيه في نهايته مسارًا إجباريًّا، ولا سيَّما إذا تم الاستسلام الكامل للمصالح والمفاسد بشكل غير مُنضبِط.

فَحَرِيٌّ بكل كِيَان دعوي أن يقف مع نفسه، ويضبط بوصلته، ويتذكر ثوابته التي انطلق منها، ويضع تقييمًا لوضعه الحالي؛ بحيث لا يُفاجَأ بأنه قد انسلخ من ثوابته وانحرف عن الطريق بالكلية؛ بسبب تَرْكه ذلك التقييم وإهماله مُعالَجة الشروخ التي طرأت على العمل.

---

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٤/ ٢٢٤٥.

٢- فَصْل السياسي عن الدعوي

بعد موجة الربيع العربي الأولى، وتخلُّص الشعوب من حالة الكَبْت السياسي التي عانوها من حُكَّامهم المُستبِدين؛ فَتَحَت الحياة السياسية أبوابها أمام الفصائل والكِيَانات التي طالما اشتاقت لمُمارَسة السياسة، وكان «التيار الإسلامي» من بين التيارات التي قرَّرت دخول اللعبة السياسة، على تنوُّع مَشارِبه واختلاف تنظيماته وانتماءاته.

وخَرَجَت من رَحِم تنظيمات التيار الإسلامي أحزابٌ انْتَمَت -أغلبها- إلى صاحبة الباع الأكبر في العمل السياسي (جماعة الإخوان المسلمين)، بجميع فروعها في الدُّوَل التي شَهِدَت الثورات. أمَّا التيار السَّلَفي؛ فمنه مَن شارك -مثل: سَلَفية مصر-، ومنه مَن أحْجَمَ عن المشاركة -مثل: سَلَفية تونس-.

ارتكبت تلك الكِيَانات خطأً جَسِيمًا؛ وهو عدم الفصل الإداري بين الكِيَان الدعوي والسياسي؛ مما كان له الأثر السلبي على الكِيَان بالكلية، ودَفَع ضريبته الكِيَان الدعوي بشكل كبير، فبلا شك أنَّ ديننا الحنيف لا يقبل فَصْل الدِّين عن السياسة، وقد كان النبي ﷺ داعيًا إلى الله وقائدًا سياسيًّا في نفس الوقت.

لكن ما نقصده هو الفصل الإداري وليس المَرجِعي بين الكِيَانَيْن (السياسي، والدعوي)؛ أي إنَّ الكِيَان الدعوي يعمل بكوادر ولَافِتَات مختلفة تمامًا عن الكِيَان السياسي؛ لكي لا يرتبط مصير الكِيَانَيْن ببعضهما، ويدفع أحدهما ضريبة تصرُّفات الآخر، وللأسف عادةً ما يكون الكِيَان الدعوي هو المَجني عليه! وقد نشأ عن عدم الفصل الإداري بين الكِيَانَيْن عِدَّة سلبيات؛ منها:

١- تشتيت المجهودات:

فحين يخرج الحزب السياسي من رَحِم الجماعة الدعوية؛ سيحتاج -يقينًا- إلى دَعْمٍ تنظيميٍّ وإداريٍّ وماليٍّ لكي يقوى ويَكْبُر؛ الأمر الذي يَحْمِل الجماعة أو الفصيل على نقل عددٍ من العاملين بالقطاع الدعوي لسد العجز الكائن بالقطاع السياسي؛ مما يُؤدِّي إلى تشتيت الجهود داخل الكِيَان كليًّا، ولا سيَّما إذا كانت الجماعة تعاني من نَقْص الكوادر أو العاملين داخلها؛ وهو ما يسمى بـ«النقلة النوعية الخاطئة».

فنقل الكفاءات الدعوية فجأةً إلى الساحة السياسية؛ يُؤدِّي إلى بعثرة الجهود؛ فتَجِدُ الكادر الدعوي يعطي عطاء الخمسين بالمائة في الجهتين؛ مما يكون له أثر سلبي على الدعوة والسياسة في آن واحد.

وأمَّا إن كان الكادر الدعوي غير مُتخصِّص في السياسة وليس من أهلها؛ فيصير كالمُنْبَتِّ: لا أرضًا قَطَع، ولا ظَهرًا أبقى؛ فلا هو أعطى الدعوة ما ينبغي، ولا هو أعطى السياسة ما هو مطلوب؛ لأنه مَن تكلَّم في غير فَنِّه أتى بالعجائب!

فالاستعانة بأهل التخصُّص -حتى ولو لم يكونوا من أبناء الكِيَان-؛ ستُحقِّق ما نهدف إليه من الفصل، ويَحفَظ الكِيَان الدعوي من بَعثَرة وتشتيت

جهوده، كما أنَّ الكِيَان السياسي سيقوى بدخول أهل التخصُّص فيه؛ حتى لا يدفع الكِيَانان ثمن الأخطاء الواقعة بسبب عدم التخصُّص أو قِلَّة التركيز.

٢- التأثير على المرونة السياسية للحزب:

الأيديولوجيا الفكرية للحزب وللجماعة مُتطابِقة -إلى حَدٍّ كبير-، وكلاهما جعل الإسلام مَرجعيةً له، ولكن كل منهما اتخذ مسارًا للعمل من خلاله، ومن المعروف أنَّ العمل السياسي -على الأقل في الوقت الراهن- يحتاج إلى مُرونة ومُراوَغة وعدم تقيُّد بثوابت، بعكس الدعوة إلى الله ﷻ لها ثوابت وقيود لا تستطيع الانحراف عنها. فلو ربَطْنا العمل السياسي بالعمل الدعوي إداريًّا؛ فسيقضي واحدٌ منهما على الآخَر -بلا شك-، فإمَّا أن تُقيِّد الدعوةُ -بثوابتها- مرونةَ الحزب السياسي، وإمَّا أن يَفرِض الحزب نفسه على الجماعة بمرونته؛ فيُؤثِّر على ثوابت الدعوة وقيودها، ويصير الأمر مُتميِّعًا؛ ومثال ذلك ما نراه من تصريحاتٍ وسُلُوكياتٍ لقياداتٍ إسلاميةٍ عندما دخلت المجال السياسي خالَفَتْ فيه -تمامًا- الثوابت التي دَرَسُوها في الكِيَان الدعوي!

أَضِف إلى ذلك؛ أنَّ الكِيَان الدعوي له تَبِعات ثقيلة؛ مثل: المحاضن التربوية، والأعمال الخيرية، وحلقات التحفيظ؛ ولا يستطيع المُراوغَة كما يفعل الحزب السياسي الذي يَحمِل تَبِعات أخطائه فقط.

حَدَث ذلك الفصل في دولة المغرب بين حركة «التوحيد والإصلاح» وحزب «الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية»، وهذا الأخير الذي أصبح بعد ذلك حزب «العدالة والتنمية»؛ «حَدَث ذلك الفصل عام (١٩٩٨م) حينما أصْدَرَت الحركةُ ورقةً حول علاقة الحزب بالحركة؛ حيث أكَّدَت أنَّ كُلًّا من

الكِيَانين هيئةٌ مُستقِلةٌ عن الآخَر استقلالًا قانونيًّا وفِعْليًّا، وليس لأيٍّ منهما وصاية على الآخَر، ويجمعهما التشاور والتعاون والتنسيق»[(١)].

وقد صرَّح عبد الإله بن كيران[(٢)] حين برَّر استقالته من حركة «التوحيد والإصلاح»؛ قائلًا: «حتى يترسَّخ السلوكُ السائدُ داخل الحزب، والمبني على الفصل بين النشاطَيْن؛ «الدعوي» الذي تقوم به الحركة، و«السياسي» الذي يمارسه حزب العدالة والتنمية السياسي»[(٣)].

وتَمَّمَ محمد الحمداوي -رئيس حركة «التوحيد والإصلاح»- على معنى الاشتراك في الأيديولوجيا بعدها بسنوات؛ بقوله: «إنَّ التمايُز بين حركته وحزب «العدالة والتنمية» الحاكِم في المغرب؛ لا ينفي وحدة المشروع والاشتراك في الأهداف»[(٤)].

والصورة المُثلى أن يَدْعَم الكِيَان الدعوي أقربَ كِيَان سياسي له في الأيديولوجيا الفكرية، ولا يتدخل بنفسه لإنشاء كِيَانٍ نابعٍ من رَحِم الكِيَان الدعوي، مع مُراعاة أنَّ ظروف النشأة وطبيعة البلدان تكون حاكمةَ نَمَطِ الفصل بين الدعوة والسياسة، فكل بلد أدرى بشِعَابه.

---

(١) محمد بون العثماني. مقال بعنوان «**العدالة والتنمية المغربي: التكوين الفكري وتجربة الحكم**». موقع (www.ida2at.com).

(٢) رئيس الوزراء المغربي السابق، وأمين عام حزب «العدالة والتنمية» ذي المرجعية الإسلامية.

(٣) **تقرير بعنوان «بن كيران: لا زعامة في الحزب إلا زعامة المؤسسة»**. موقع (www.swissinfo.ch).

(٤) **خبر بعنوان «الحمداوي: تمايز (التوحيد) و(العدالة) لا ينفي وحدة المشروع والأهداف»**. موقع (www.hespress.com).

٣- إقامة حاجز بين الكِيَان السياسي والمجتمع:

من الأمور السلبية الناتجة عن عدم الفصل الإداري بين السياسة والدعوة؛ إقامةُ حاجزٍ بين الحزب والمجتمع، فمن المُفترَض أن يَقبَل الحزب السياسي بانضمام جميع فئات وطبقات المجتمع -حتى وإن وُجِدَ اختلاف معه في العقيدة أو الفكر-، ولكن طالما صُبغ الحزب بصِبغة الجماعة الدعوية؛ سيظل عائقًا أمامَ انضمام أفراد جُدُد من المجتمع، وهو ما يحتاجه أي حزب كي يُوَسِّع قاعدته ويُزَوِّد انتشاره. ومن الأمور السلبية أيضًا؛ ما يكون -أحيانًا- من مَنْع أعضاء الجماعة بالانضمام إلى أحزاب أخرى. أَضِف إلى ذلك؛ أنَّ تلك الصِّبغة تجعل فرصة «الاصطياد في الماء العَكِر» مفتوحةً على مِصراعَيْها، فحين يمارس الكِيَان الدعوي أنشطته الخيرية سيُعطي الفرصة للمُتربِّصين بالكِيَان لنَعْت النشاط الخيري بـ«المكاسب السياسية». كما أنَّ أي قرار سياسي يصدر من الحزب سيَنْعَته المُتربِّصون بـ«القرار الخاطئ»؛ لأنَّ مَن اتخذه ليس مُتخصِّصًا في السياسة.

٤- لُقْمَة سائغة:

ما حدث لـ«جبهة الإنقاذ» في الجزائر خيرُ دليل على استغلال هذا الثَّغر الخطير في إسقاط الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية؛ فحينما اكتسَحَت «جبهة الإنقاذ» الانتخابات التشريعية عام (١٩٩١م)، وفازت في (٨٥٦) بلديةً بـ(١٨٨) مقعدًا من أصل (٢٣١)؛ وهو ما جعلها تصل إلى أحد مراكز صُنْع القرار، حينها لفَّقوا لـ«جبهة الإنقاذ» تهمة الانقلاب على النظام الديمقراطي، وأعلن وزير الدفاع الجزائري قرار إلغاء الانتخابات وأُتْبِعَ بإعلان حالة الطوارئ، وردَّد

النظام الجزائري الموالي للغرب بعض الإشاعات المُغرِضة على الجبهة وحزبها، وهو ما استغله النظام لبث الرعب في قلوب المُواطِنين منهم/ ومنعهم من العمل السياسي عام (١٩٩٢م)، والقرار سارٍ إلى الآن؛ فصار التداخل بين الدعوة والسياسة مُسوِّغًا للغرب لتقييد التيار الإسلامي من مُمارَسة السياسة.

وما حدث في مصر ليس ببعيدٍ عنا؛ فتشابُك الكِيَان الدعوي والسياسي لـ«جماعة الإخوان المسلمين»، أثَّر في التجربة الدعوية لهم، وشَلَّ الكِيَان الدعوي تمامًا بمجرد سقوط الكِيَان السياسي.

همسة أخيرة:

إنَّ لكل دولة ظروفها وطبيعتها الخاصة، وإنَّ تحديد نسبة التداخل الوظيفي بالفصل أو الاندماج؛ هو أمر نسبي يرجع لطبيعة الدعوة والظروف المحيطة بها، ولكن ما نريده أن يدرك أبناء التيار الإسلامي أنَّ الغرب مُتربِّص له وجنوده من العلمانيين؛ لتشويه صورته، وتقييد آماله في التمكين له بأي شكلٍ كان؛ ومن ثَمَّ وَجَب سد تلك الثغور التي يُؤتَى من قِبَلها.

٣- مأساة صانع الرجال

عاش مع تلاميذه أجمل أيام عمره؛ يعلِّمهم العِلْم، ويَغْرس فيهم فضائل الأخلاق، بَذَل مجهودًا كبيرًا من المُتابَعة لتقويم سلوكهم، وبَذَل مجهودًا أكبر في بناء عقولهم، وكان كل همه أن يُخرِج جيلًا جديدًا يَحمِل المَشعل من بعده؛ إلى أن جاءت مرحلة العمل والتكسُّب الدُّنْيَوِيّ -كبقية البشر-؛ فتضاءَلَ مَجهوده معهم نظرًا لإرهاقه وصعوبة الجمع بين تربيتهم وعمله الدُّنْيَوِيّ الذي يَقتات منه.

ظل صاحبنا هذا يعلِّم تلاميذه دون كَلَلٍ ولا مَلَلٍ في ظِلِّ هذا الضغط، إلى أن جاءت مرحلة الإقبال على الزواج -كبقية البشر-، ولكي يَقْدِر على البَاءَة[1] أصبح بين خيارَيْن لا ثالث لهما؛ إمَّا أن يعمل في وظيفتَيْن فيضيع يومه كله، وإمَّا أن يسافر إلى الخارج؛ فاحتار صاحبنا ووَجَد نفسه بين خيارَيْن؛ إمَّا أن يترك تلاميذه بعد هذا المجهود الطويل الذي بَذَله معهم -ومنهم من لم يُفطَم بَعدُ من التعلُّق به-، وإمَّا أن يُكْمِل معهم ويؤخِّر زواجه إلى أن يقضي اللهُ أمرًا كان مفعولًا.

---

(١) أعباء الزواج.

إنها قصة «صانع الرجال»؛ تلك المأساة المُتكرِّرة والحلقة المُفرَغة في أغلب الكِيَانات الإسلامية؛ فالمُرَبِّي يبذل ما في وُسْعه مع الشباب لإخراج جيل جديد من الشباب، وتربية كوادر جديدة، إلى أن تأتي اللحظة الفارقة؛ وهي البحث عن العمل أو الزواج؛ فينشغل في البحث عن «لقمة العيش» داخل بلده -وأحيانًا خارجها-، أو ينشغل لأنه يريد «الزواج»؛ فيتوقَّف مجهودُ أعوامٍ من بناءِ وتربيةِ الأفراد.

لماذا نهتم بالمُرَبِّي؟!

أولًا: المُرَبِّي هو عَصَب أيِّ كِيَانٍ وحَجَر زاويته؛ فأغلب كوادر الكِيَان قد استقبلها المُرَبِّي وغَرَسَ فيها معاني الخير، وساهَم في بناء عقلها قبل توجيهها في مجال تخصُّصها؛ فهو الصانع الذي حَوَّل المادة الخام (طاقات البشر) إلى مواد مُصنَّعة (طاقات تَخدِم الكِيَان)؛ فالكادر السياسي والعِلْمي والإعلامي كل منهم كان له مع «المُرَبِّي» نصيب، فمِن باب أَوْلَى أن يُراعَى ماديًّا، ولا يتم التفريط في جهده بسهولة، حتى لو اضطُر الكِيَان إلى شراء وقته؛ «فالتربية جهدٌ يفوق الإمكانات والطاقات العاملة فيه، ولا يزال يعاني من قصورٍ ومشكلاتٍ بسبب اعتماده على فَضْلَة أوقات المُرَبِّين»[1].

ثانيًا: لا شك أنَّ التربية تقوم على رَبْط المُتَرَبِّي بالمنهج لا بالمُرَبِّي، ولكن إذا غاب المُرَبِّي أو انقطع عن المَحضن بسبب انشغاله، فسيكون أمام المُتَرَبِّي في مَحضنه عِدَّة خيارات؛ إمَّا أن ينسجم مع مُرَبٍّ آخَر وتستمر العملية بلا مشكلات، وإمَّا أنَّ المُتَرَبِّي لن يستطيع التكيُّف مع المُرَبِّي الجديد فينقطع عن

(١) محمد الدويش. مقال بعنوان **«تربية الشباب: الأهداف والوسائل»**. موقع (almurab-bi.com). بتصرف يسير.

المَحضـن، وإمَّـا أنَّ الكِيَان لن يَجِدَ مَن يقوم مَقام المُرَبِّي الأول؛ فينقطع المُتَرَبِّي أيضًا عن المَحضن!

ثالثًا: انشغال المُرَبِّي أكثر من اللازم بأمر الدُّنيا يمنعه من الارتقاء بنفسه؛ وبذلك يَقِلُّ رصيده وعطاؤه مع المُتَرَبِّين، حتى إذا استنفد وُسْعه في تقديم كل ما عنده فسيَجِد نفسه مُفلِسًا أمام مَن يُرَبِّيهم، فالوقت المُتبقِّي له سيكفي -بالكاد- لمتابعة المَحضن، ومع الوقت سيتحوَّل من شمسٍ تضيء للآخرين، إلى شمعة تضيء ولكن تحرق نفسها!

رابعًا: الشركات التي تسعى إلى «الرِّبْح الدُّنْيَوِيّ» تتسابق لحيازة العامل الماهر الناجح في مجاله، وتعرض عليه الحوافز والمُكافآت من أَجْل كَسْب وَلائه لمكان العمل، بل إنَّ بعض الشركات تُقدِّم لهم التسهيلات الصحية والمادية كامتيازاتٍ لهم، فلماذا لا تهتم الكِيَانات الدعوية التي تسعى إلى «الرِّبْح الأُخْرَوِيّ» والأهداف السامية؛ لماذا لا تهتم بالعامل الناجح فيها، وهو ليس كأيِّ عاملٍ، بل هو أساس الكِيَان؟!

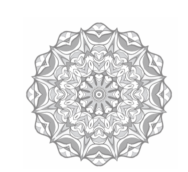
خامسًا: لا يَخفَى على أحدٍ الأموال الطائلة التي تُصرَف بصورة مُنظَّمة من أهل الباطل لمُحاربة الإسلام، ولا سيَّما إنفاقهم في مجال التربية وعلى القائمين عليه في كِيَاناتهم؛ ومن تتبَّع أخبارهم في الاهتمام بالنشأ والتبشير فسيَجِد العجب من اهتمامهم بذلك المجال، وصَرْفهم الأموال الطائلة عليه، ولقد دلَّنا سيد قطب رحمه الله على الطريقة المُثلَى لمُحارَبة ذلك الباطل المُنظَّم؛ فقال: «الجاهلية المُنظَّمة لا يهزمها سوى إسلام مُنظَّم»؛ فالباطل المُنظَّم لا يهزمه حق عشوائي مُبَعثَر لا يأخذ القائمون عليه بأسباب تقويته واشتداد بأسه.

وماذا بعد؟!

من الفِطْنة أن يتم عرض المشكلة بعلاجها؛ كي لا يكون الأمر مجرد تنفيسٍ عن الهموم وتفريغ لشعور الضيق؛ والعلاج يكمن في: بداية عمل مؤسسي يقوم على تكامل الأدوار داخل الكِيَانات الدعوية، الهدف منه الوصول إلى الاكتفاء الذاتي من النفقات والإعالة لرجال التربية. بمعنى أَدَقّ: إنشاء ذراع اقتصادي لكل كِيَان، هذا الذراع يكون مسئولًا عن تمويل الكِيَان وتشغيل عناصره بعدد ساعات محدود؛ بحيث يُوَفِّر لهم فرصة عملٍ -ذات ساعات قليلة- لسد حاجتهم من الدُّنيا، ويُوَفِّر لهم أيضًا الوقت الكافي لمُمارَسة دعوتهم، ويُعتقَد أن يكون ذلك بديلًا عن إخراج راتب شهري؛ لأنَّ من العناصر مَن يَأْنَف من قبول أجرٍ دون مقابل. وفي المقابل يبذل الكادر أو العُنْصُر -الذي يتيح له الكِيَان تلك الميزة- أقصى ما عنده في خدمة الدعوة إلى الله ﷻ، ولا يفتر عن طلب العِلْم بمجرد الوصول إلى الراحة المادية التي وفَّرها له الكِيَان؛ حيث إنه «قد تصير الدعوة مَتجرًا لأبناء الدُّنيا -يلزمها أحيانًا-، حتى إذا صار مُوظَّفًا كبيرًا أو أستاذًا جامعيًّا أو اختصاصيًّا خبيرًا؛ تَرَكها وانفرد يبني مستقبله. كلمة مُرَّة يجب أن يتقبلها الدُّعاة؛ فإنَّ كَتِفَ الدعوة يَئِنُّ لكثرة الذين حمَّلَهم وتنكَّروا له! فاعقدوا العزم على الوفاء لهذه الدعوة المباركة أيها الإخوة، واجعلوا الشهادة العالية أو التجارة أو المنصب في خدمة الدعوة لا للصِّيت»[١].

---

(١) محمد أحمد الراشد. **المسار**. دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة. ط٥، ٢٠٠٤م. ص٢٤٦، ٢٤٧.



٤- نضوج العمل التربوي (إنشاء المدارس)

كثير من الكِيَانات الدعوية تعتمد في مسيرها التربوي على تأسيس المدارس النظامية لمُمارَسة العملية التربوية داخلها، وبالاطلاع على سِيَر تلك الكِيَانات ستَجِدُ أنَّ الوصول لمرحلة المدارس النظامية هي المرحلة الأخيرة، أو أنها مرحلة النُّضْج لدى أيِّ كِيَان، وكأنها الصورة المُثلى التي ارتضاها أصحاب الكِيَانات دون اتفاق -على اختلاف بلدانهم وظروفهم-.

وقد لامَسْتُ ذلك الاهتمام عند ثلاثة كِيَانات دعوية لا توجد بينها أي مساحة مشتركة، لا في المنهج العام ولا في النشأة ولا في منهج التربية نفسه، ولكنها فَطِنَتْ لأهمية إنشاء المدارس النظامية؛ والكِيَانات الثلاثة هي: (جماعة الخدمة -فتح الله كولن-، وجماعة أُمة الإسلام، وجماعة الإخوان المسلمين)؛ وقد قصدتُّ ذلك الاختيار لإثبات أهمية الفكرة كونها تتكرر عند ثلاثة تنظيمات لا توجد بينها أي مساحة مشتركة، بل منها المنحرف فكريًّا -كجماعة أُمة الإسلام في أمريكا-.

أولًا: جماعة الخدمة (فتح الله كولن): تُعرَف حركة كولن بـ«جماعة

الخدمة» في تركيا، نشأت منذ الثمانينيات، وتُصنَّف بأنها حركة وطنية دينية، لها العديد من الأنشطة المجتمعية داخل الدولة التُّركية، وتَبنَّى الجماعة إستراتيجية التغَلْغُل داخل مؤسسات الدولة في الأمن والقضاء والمالية، وكان هناك تقاسُم بين «حزب العدالة والتنمية» و«جماعة الخدمة» في كل المجالات، حتى إنَّ البعض يعبِّر عنها أنها الظهير الدعوي للحزب، ولكن لم تستمر العلاقة طويلًا؛ فبعد الاستفتاء الذي أُجرِيَ عام (٢٠١٠م)، والذي يُعَدُّ رَمْزًا لانتهاء دور الجيش في الحُكم، ظهرت الخلافات بين «حزب العدالة والتنمية» و«جماعة الخدمة»، والتي بَلَغَت أَوْجَها بوقوف جماعة كولن وراء محاولة الانقلاب الفاشل عام (٢٠١٦م).

تَبنَّت «جماعة الخدمة» سياسة إقامة الأنشطة الاجتماعية ونشر مبادئها عبر إنشاء المدارس، والتي بدأت فكرتها -من الأساس- بِتَبَنِّي كولن بيوت الطلبة الجامعيِّين وإقامة الأنشطة الدعوية داخلها.

وكان لبيوت الطلبة تأثير كبير في تربية أتباع كولن؛ «فَمَعَ مرور الوقت أصبح الطلاب الذين أقاموا في بيوت الطلبة من أكبر المُدافِعين عن أفكار كولن الخدمية، وعادوا إلى قُرَاهُم لنشر خبراتهم وفرصهم القَيِّمة مُسلَّحين بتعليمٍ جيدٍ، فأصبحوا تجارًا ورجال أعمال ومهنيِّين في مجتمعاتهم»[1].

«تطوَّرت الفكرة ونَضِجَت حتى مع السياسات الليبرالية الجديدة في تركيا في أوائل الثمانينات، وأنشأَتْ جماعة كولن أول مدرستَيْن لها عام (١٩٨٢م)، ثم تَبِعَتْها مئات المدارس خلال العقدَيْن اللاحِقَيْن في جميع أنحاء تركيا، وبعدها في

---

(١) هيلين روز إيبو. **حركة كولن**. ترجمة: مروة يوسف. مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت. ط١، ٢٠١٥م. ص٧٧.

إفريقيا وفي الجمهوريات التابعة للاتحاد السوفيتي، حتى قُدِّرَ مجموع المدارس بأكثر من ألف مَدرَسة موجودة في جميع أنحاء تركيا وفي مائة دولة حول العالَم تقع في خمس قارَّات، وكلها مُتَبَنِّية أفكار وفلسفة كولن التعليمية»[(١)].

ثانيًا: جماعة أُمة الإسلام: نَشَأَتْ «جماعة أُمة الإسلام» عام (١٩٣٠م) في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي مُنظَّمة من مُنظَّمات المسلمين من ذوي الأصل الإفريقي داخل أمريكا، تَبَنَّت تلك المُنظَّمة بعض مبادئ الدِّين الإسلامي؛ مثل: المنظومة السلوكية من مَنْع العلاقات المُحرَّمة، وشُرْب الخمور، والدخان، ...إلخ. ولكن كانت تَدِينُ ببعض الأفكار العُنْصُرية؛ مثل: اعتقاد تفوُّق العِرْق الأسود على الأبيض، والاعتقاد بنُبُوة إليجاه محمد[(٢)]. ويُعد (إليجاه محمد، ومالكوم إكس، ومحمد علي كلاي، ولويس فرخان) أبرز رموز التنظيم، ولكن (مالكوم إكس، ومحمد علي كلاي) توجَّهَا إلى الإسلام الصحيح قبل وفاتهما.

المُنظَّمة كانت تَتبنَّى المؤسسية داخل صفوفها، واجتَذَبَتْ ملايين من الأمريكيِّين السود داخل صفوفها، والشاهد أنها أَوْلَت التعليم وإنشاء المدارس اهتمامًا بالغًا؛ نظرًا لمستوى السُّود المُتردِّي ثقافيًّا بسبب العُنْصُرية التي واجهوها في تلك الحِقبة، «واعتمدت الحركة على نَشْر تعاليمها داخل المدارس الخاصة بها، وكان للحركة مدرستان باسم «الجامعة الإسلامية» في شيكاغو وديترويت

---

(١) هيلين روز إيبو. **حركة كولن**. ترجمة: مروة يوسف. مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت. ط١، ٢٠١٥م. ص٢١٦. بتصرف.

(٢) ويُسمَّى أيضًا «والي فارد محمد»، وهو زعيم «جماعة أُمة الإسلام» من عام (١٩٣٤م) حتى وفاته عام (١٩٧٥م)؛ علَّم أتباعه الاعتماد على أنفسهم، وتحقيق الاكتفاء الذاتي بإقامة مدارسهم وأعمالهم الخاصة بهم.

لتدريس العلوم والرياضيات والتاريخ واللغة العربية»[1]، «وبَلَغ عدد الطلاب فيها (٨٠٠٠) طالب، وأُلْحِقَ بها مركز للفتيات لتعلُّم مهارات إدارة المنزل وتعلُّم مهارات تربية الأولاد، وقد لَقِيَت المَدرَسة إقبالًا شديدًا من الطلاب السُّود المسلمين والسُّود غير المسلمين من الفقراء، وظهرت تلك المدارس إبَّان الحِقبة العُنْصُرية»[2].

توزَّعَت مدارس «جماعة أُمَّة الإسلام» في جميع أنحاء أمريكا وجُزُر الكاريبي[3]، وفي عام (١٩٧٥م) قد بَلَغَتْ (٧٥) مَدرَسةً بجميع مراحلها التأسيسية والثانوية، وقد وَصَفَت جمعيةُ البحوث التربوية الأمريكية تلك المدارسَ بأنها «نماذج للتربية الإسلامية تحقِّق نتائج جديرة بالثناء»[4].

ثالثًا: جماعة الإخوان المسلمين: وهي حركة إسلامية أَسَّسَها حسن البَنَّا ﷺ عام (١٩٢٨م)؛ وهي حركة إصلاحية شاملة، اهتمت بالإصلاح في جميع مستوياتها، ومُنتشِرة في أكثر من (٧٠) دولةً على مستوى العالم.

ولَسْنَا بصَدَد التعريف بالجماعة؛ فالكل يعلم تاريخها العريق، وفي الغالب قد تأثَرَت بها وبمنهجها أغلب كِيَانات التيار الإسلامي. ولكنَّنا بصَدَد ذِكْر جهودها في التربية واتجاهها إلى تأسيس المدارس؛ ففي عام (١٩٣١م) أنشَأَت الجماعةُ «مَعهد حِرَاء الإسلامي» في مدينة «الإسماعيلية» المصرية،

---

(1) **The Black Muslims in America**، Charles Eric Lincoln، p224.

(2) **The Life and Times of Elijah Muhammad**، Claude Andrew Clegg III ،p252.

(٣) تُطلَق على جميع الجُزُر التي تقع في البحر الكاريبي؛ وهي في الجنوب الشرقي من أمريكا الشمالية.

(4) **Black Education: A Transformative Research and Action Agenda for the New Century**، Joyce E. King، p242.

وهو عبارة عن مَدرَسة يتلقَّى فيها التلاميذ الدِّين، والقراءة، والحساب، والعلوم، والجغرافيا، والتاريخ؛ إضافةً إلى مبادئ التربية الصناعية التي كانت تُدْعَم بالتربية العملية؛ حيث كان للإخوان بعض الوِرَش[١] والمصانع، وفي عام (١٩٣٣م) أنشَأَت الجماعةُ «مَدرَسة أُمَّهات المؤمنين»، وكان منهج المَدرَسة يَشْمَل الدِّين، والقراءة، والكتابة، والحساب، وتاريخ السَّلَف الصالح -رجالًا ونساءً-، وتدبير المنزل والشئون الصحية، ومبادئ التربية وريادة الأطفال[٢].

«وفي عام (١٩٤٦م) أنشَأَت الجماعةُ لجنة تأسيس المدارس الابتدائية والثانوية للبنين والبنات في القاهرة والإسكندرية، وقد تم حَصْر مؤسسات الإخوان التعليمية في مصر عام (١٩٥١م) فوُجِدَت (٣١) مَدرَسةً، مُعْظَمها لرياض الأطفال»[٣].

فالشاهد أنَّ «جماعة الإخوان المسلمين» اتَّجَهت -من بداية نشأتها وحتى الآن- إلى اعتماد المدارس النظامية في تطبيق سياستها التربوية؛ حتى بَلَغ عدد المدارس المُغلَقة في مصر بعد تنفيذ الانقلاب المشئوم (١٧٤) مَدرَسةً على مستوى جمهورية مصر العربية!

وباستعراض الثلاث تجارب السابقة غير المشتركة في النشأة، ولا في الأفكار، ولا في الظروف الاجتماعية والسياسية؛ سنَجِدُ أنَّ تأسيس المدارس

(١) مكانٌ مُعَدٌّ لصناعة الأشياء أو إصلاحها يدويًّا.

(٢) أحمد ربيع خلف الله. **الفكر التربوي وتطبيقاته لدى جماعة الإخوان المسلمين**. مُستفاد من موقع (www.ikhwanwiki.com).

(٣) عبد الحليم الكناني. **الشجرة الطيبة**. دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة. ب.ط. ٢٠١٠م. الفصل الرابع.

كان هو العامل المشترك بين الثلاث تجارب، وأنَّ المدارس كانت أفضل الصُّوَر لتطبيق العمل التربوي لجميع الكِيَانات.

لماذا المدارس؟

التاريخ خيرُ شاهدٍ:

أدرَكَ الوزيرُ «نِظَام المُلْك»[١] رَحِمَهُ اللهُ ذلك الأمر؛ حيث أدرَكَ أنَّ المدارس النظامية هي الأسلوب الأمثل للعملية التربوية، وكان وَقْف المد الشيعي -الذي توحَّش في كل أنحاء الدولة الإسلامية- من نِتَاج إنشاء المدارس النظامية وقتها.

«لقد أدرَكَ الوزيرُ «نِظَام المُلْك» رَحِمَهُ اللهُ أنَّ المدارس هي الأسلوب الأمثل لخدمة دين الله عَزَّ وَجَلَّ في وقته، ولجهاد أعداء الأمة الإسلامية؛ فأنفَقَ الأموال وأَسَّسَ الإدارات للقيام بهذا الواجب الجديد الذي حتَّمَتْه ظروف العصر. ولقد كان من نِتَاج هذا البناء الكبير -أعْنِي: المدارس النظامية- أن تَصَدَّر العلماءُ المشهدَ الاجتماعي والفكري، وأصبحت الحركة العلمية ذات تأثير حقيقي في المجتمع، وظَهَر للناس علماء مُرَبُّون، ساهمت هذه المدارس في تنميذجهم؛ مثل: أَبي إسحاق الشيرازي، وأَبي المعالي الجويني، وأَبي حامد الغزالي»[٢].

---

(١) هو أبو علي الحسن بن علي بن العباس الطوسي، المُلقَّب بـ«نِظَام المُلْك»؛ عمل وزيرًا لمدة ثلاثين عامًا لاثنين من سلاطين السلاجقة «ألب أرسلان»، وابنه «ملكشاه». لم يكن نِظَام المُلْك وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحَسْب؛ بل كان داعيًا للعِلْم والأدب مُحبًّا لهما، أنشأ المدارس المعروفة باسمه «المدارس النظامية» وأجرى لها الرواتب، وجَذَب إليها كبار الفقهاء والمُحدِّثين.

(٢) فايز سعيد الزهراني. **التربية من جديد**. ص٨٣. بتصرف يسير واختصار.

بديل أفضل:

اتجاه الكِيَان الدعوي إلى اعتماد المدارس وسيلةً أساسيةً للعمل التربوي داخلها؛ يُمثِّل حالةً من تطوُّر العمل ووصوله إلى مرحلة النُّضج، ولا أقصد بكلامي الاستغناء عن المسجد أو أنَّ دوره أقل فاعلية، لكن المدارس هي وسيلة تُمَكِّن الكِيَان الدعوي من مُمارَسة تربيته فيها بشكل رسمي دون التعرُّض لمُساءَلات، ولا سيَّما إذا كان الكِيَان في دولةٍ يحكمها نظام مُستبِد، أو نظام غير مسلم يتوجَّس من أنشطة المساجد عمومًا.

والناس -عامةً- في نموذج الدولة الحديثة الذي نحياه؛ قد تميل إلى تعليم أبنائها فضائل الأخلاق عبر مُؤسَّسة رسمية مُعتمَدة من الدولة، بينما يرفضوها إذا كانت من جهةٍ غيرِ رسميةٍ -ككِيَانٍ دعويٍّ أو ما شابه- رغم أنَّ المحتوى واحد! فالمَدرَسة هي النموذج الوحيد المُطَمْئِن لولي أمر المُتَرَبِّي.

رأس مال بشري:

قد يَجِدُ الكِيَان الدعوي صعوبةً في جَذْب الشباب إليه عبر المساجد، وحتى لو نَجَح في اجتذابهم فسيكون العدد محدودًا جدًّا بالمُقارَنة بالمَدرَسة التي تُجبِر الطلاب على الذهاب إليها؛ فالمَدرَسة -في نموذج الدول الحديثة- تفتح لك الباب لجميع فئات المجتمع، وتُتيح لك جميع صنوف الأفراد لمُمارَسة العملية التربوية معهم. كما يستطيع الكِيَان الدعوي من خلالها مُمارَسة العمل التربوي مع فئاتٍ عديدةٍ، فيُمْكِنه تكوين أنشطة نُخْبَوِيَّة للمُتميِّزين وأنشطة تجميعية للمُحِبِّين. بالإضافة إلى تعليم السَّمْت والأخلاق الإسلامية -في العموم- لكل مُنتسِبي المَدرَسة؛ وهو ما سيُثْمِر بشكل إيجابي -فيما بعد- بخَلْق شريحة

مُحِبِّين كبرى ومُتعاطِفين مع الكِيَان، وهذا قد شَهِدتُّه بنفسي؛ حيث إنَّ الكثير من زملائي يرفض الافتراءات التي وُجِّهت إلى كِيَان الإخوان -مثلًا- بسبب أنه تَربَّى في مدراسهم وخالَطهم، ويعلم يقينًا أنَّ ما يُقال عنهم مَحْض افتراء!

استثمار مالي:

من العوائق التي تواجه الكِيَانات الدعوية؛ تمويلُ الأنشطة التربوية، وهو ما قد يُعرِّض الكِيَان الدعوي للحاجة إلى التمويل المُستمِر، وللأسف لا يوجد سبيل للتمويل سوى البحث عن مُموِّل لتلك الأنشطة، ونادرًا ما تَجِدُ مُموِّلًا، وإن وُجِدَ المُموِّل فسيُمَوِّل بشروطه وتحكُّماته وتوجيهاته؛ لأنه صاحب التمويل!

ومشروع المَدرَسة يغنيك عن كل هذا؛ كونه مشروعًا استثماريًّا يَدِرُّ أرباحًا ليست بالبسيطة -إن أُديرَ بشكلٍ جيدٍ-، تُمَكِّن الكِيَان التربوي والدعوي من الاعتماد على أنفسهم وعدم انتظار تمويل من فَرْد أو جهة خيرية، وقد يحقق عائد المَدرَسة وَفْرًا عن حاجة العمل التربوي، فتستفيد من ذلك العائد أنشطةٌ داخل الكِيَان الدعوي ككل.

توظيف الكوادر:

من العوائق التي تواجه الكِيَانات الدعوية؛ توظيفُ عناصرها -كما بيَّنْتُ في المقال السابق (مأساة صانع الرجال)-؛ فمن فوائد المَدرَسة أنها جهة قادرة على استيعاب وظائف كثيرة داخلها؛ مثل: (مُعلِّم - مُشرِف إداري - أخصائي اجتماعي - محاسب - سكرتير - مُنسِّق مواد - مُشرِف حافلة - سائق - طبيب أو زائر صحي)؛ فكل تلك الوظائف مُتواجِدة داخل كل مَدرَسة ولا غِنى عنها، كما أنَّ تلك التخصُّصات مُتواجِدة بوَفْرةٍ داخل كل كِيَان ويحتاجون إليها،

والمَدرَسة تحقِّق ذلك الهدف؛ والنتيجة أنها تكون قد وَظَّفت كوادرها، وفي نفس الوقت لم تُشكِّل الكوادر عِبْئًا عليها.

ومن اللازم مُراعاته؛ تعيينُ الكفاءات في المَدرَسة لكي نحافظ على مستوى المَدرَسة الأكاديمي، فالأمر ليس مجرد توظيف كادر فحَسْب، فالكادر إن لم يكن كُفْئًا فتعيين غيره أفضل -ولو لم يكن من أبناء الكِيَان الدعوي-؛ فقد حدَّد الله ﷻ معايير اختيار أصحاب المُهِمَّات في القرآن قائلًا على لسان إحدى ابنتَيْ شعيب عليه السلام حينما أشارت على أبيها استئجار موسى عليه السلام ليرعى غَنَمَهم: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[1]؛ «قالت ذلك لأنه جدير بأن يُستأجَر؛ لجَمْعه بين القوة والأمانة؛ فبالقوة يُؤدِّي ما كُلِّفَ به، وبالأمانة يَحفَظ ما ائتُمِنَ عليه»[2]. فجاءت «القوة» بمعنى «الكفاءة»، و«الأمانة» بمعنى «الثقة»؛ فاختار الله ﷻ الكفاءة وجَعَلَها المعيار الأول، وتَبِعَها بالثقة التي تُزيِّن عملية الاختيار وتجعله مثاليًّا.

مَرافق خدمية:

المدارس تُتيح خدماتها -في مَرافقها العامة- للكِيَان الدعوي ككل؛ فيُمْكِن الاستفادة من ملاعب الكُرة، والفصول، وقاعات التدريب والمحاضرات، والحافلات، وغيرها؛ وكل تلك المَرافق يصعب على الكِيَان التربوي الحصول عليها في ظل عدم وجود مدارس، وإن وُجِدَت فسَيَتِم تأجيرها بأموال طائلة ستُحَمِّل الكِيَان تكاليف إضافية.

---

(١) القصص: ٢٦.

(٢) نخبة من العلماء. **المختصر في تفسير القرآن الكريم**. ص٣٨٨.

وعلى المستوى الشخصي؛ فقد حَضَرتُ نشاطًا صيفيًّا تابعًا لكِيَان دعوي في مَدرَسة من المدارس التي فَتَحت أبوابها لتأجير مَرافقها لهذا النشاط، وقد استوعَبَت المَدرَسة عددًا تجاوَز (٢٠٠) طالب و(٢٠) مُشرِفًا داخل النشاط؛ الأمر الذي يَصْعُب تنفيذه لو كان النشاط مُقتصِرًا على المسجد فقط.

وأخيرًا: قالوا قديمًا في الأمثال تعليقًا على الصفقات المُربِحة: «ضَرَبَ عُصْفُورَيْن بحَجَرٍ واحدٍ»، وأمَّا مشروع المَدرَسة النظامية فهو ضَرْبُ عصافير -وليس عُصْفُورَيْن فقط- بحَجَرٍ واحدٍ؛ لأنه يجمع فوائد كثيرة -كما ذُكِرَ سابقًا-.

٥- ضَبْط البوصلة

في يوم ما؛ فُتِح في شارعنا محل لبيع الفاكهة، وبدأ يعرض بضاعته عن طريق فَرْشها أمام باب المحل وعلى جزء بسيط من الرصيف بشكلٍ لا يُؤثِّر على حركة المرور في الشارع، ومع مرور الأيام أخذ صاحب المحل يتوسَّع شيئًا فشيئًا؛ حتى استولى على نصف الرصيف، ثم بعدها بأسابيع تطوَّر الأمر إلى أن استولى على الرصيف كله وجزء من الشارع! كل ذلك كان يَحدُث ولا أحد في شارعنا يشعر أو يلاحظ؛ نظرًا لتوسُّعه البطيء جدًّا.

جلستُ أُفكِّر في توسُّع صاحب المحل، وكيف كان ذلك التوسُّع يتطوَّر بشكل غير مَلحوظ حتى ابتلعَ الرصيفَ وجزءًا من الشارع لحسابه! هذا التغيُّر البطيء السارق يَحدُث في حياتنا -خاصةً في عالَم الأفكار-؛ فتتحوَّل الأفكار والمبادئ من النقيض إلى النقيض؛ لأنها تتغيَّر ببُطْء، ولا نشعُر بذلك التغيُّر كما حَدَث مع توسُّع صاحب المحل. ذلك التغيُّر البطيء في الأفكار هو السِّر في لُغْز التغيُّرات التي تطرأ على الكِيَانات الإسلامية في تغييرهم لأفكارهم ومبادئهم مع مرور الوقت؛ فالبداية أصولية راديكالية، ثم تنزلق بعدها في تنازلاتٍ صغيرةٍ

تراكم ككُرة الثلج؛ حتى تَفقِد البوصلةَ وتنحرف تمامًا عن وجهتها التي أُسِّسَت من أجلها! ذلك التغيُّر الذي قال عنه سيد قطب رحمه الله: «الانحراف الطفيف في أول الطريق؛ ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق. وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها -ولو يسير-، وفي إغفالِ طَرَفٍ منها -ولو ضئيل-؛ لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة؛ لأن استعداده للتسليم يتزايد كلَّما رجع خطوة إلى الوراء»[١].

التعامل مع القوميات والوطنية والولاء للأوطان مثال واضح على التغيُّر البطيء؛ فجميع الكِيَانات الإسلامية في بداية نشأتها لم تَكُن مُؤمِنةً بتلك المصطلحات والنظريات، بل كانت تهدف إلى استعادة الخلافة مرة أخرى والتحرُّر من الحدود الوهمية التي حَدَّها الغرب، وعلى مَرِّ السنين كانت تلك الكِيَانات الإسلامية تكافح مصطلحاتِ القومية والوطنية والولاء للحدود المُتوهَّمة، وتتعامل معها تعامُل المُضطر، ولكن مع مرور الوقت ودخول البرلمانات واندماج بعض الإسلاميين في حكومات بعض البلدان وقيام الثورات؛ تحوَّل الأمر شيئًا فشيئًا إلى تصريحاتٍ بقُدسية تلك القوميات وجواز الموت في سبيلها، وتفاسير مَلْوِيَّة الأعناق لأحاديث النبي ﷺ عن حُبِّه لمكة المكرمة، وكيف أنَّ حب أوطان «سايكس بيكو» من الإيمان! تظل كُرة الثلج تَكبُر شيئًا فشيئًا بتغيُّرٍ بسيط؛ حتى يأتي الجيل الرابع أو الخامس من الكِيَان لا يعلم شيئًا عن تلك الأصول التي نشأ عليها كِيَانه، بل تكون أصوله هي التحوُّلات التي انتهى إليها الكِيَان! فالأمر كما قال سيد قطب؛ انحراف طفيف في أول الطريق لم ينضبط، ولم يتم الرجوع إلى الخط المستقيم مرة أخرى؛ انتهى بانحرافٍ كاملٍ في آخِر الطريق.

---

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٤/ ٢٢٤٥.

ولعل هذا التغيُّر البطيء هو ما كان يَحدُث للجنود الأسرى الأمريكان في الحرب الكورية في خمسينيات القرن الماضي؛ حيث كان الجندي الأمريكي مُحارِبًا ضد الصينيين، ثم ينتهي به المآل إلى عميلٍ يُنَظِّر للشيوعية ومَحاسِنها ويُبْرِزها ضد الرأسمالية الأمريكية! استعمل الصينيون مع الأسرى الأمريكان مبدأ «انتزع من الخصم تنازلًا صغيرًا مهما كان، ثم ابنِ عليه»؛ فكانوا يُمرِّرون الأسير بمراحل خمس؛ **الأولى**: تنازُل صغير يبدو في غاية البساطة؛ مثل: (أمريكا ليست كاملة)، أو (لا توجد مشكلة بطالة في الدولة الشيوعية). **والثانية**: يَبْنون على الاعتراف الأول خطوة ثانية؛ وهي: أنهم يطلبون من الأسير كتابة قائمة بالمشكلات التي تعني أنَّ أمريكا ليست كاملة، ثم يوقع باسمه على القائمة. **والثالثة**: يطلبون من الأسير كتابة مقال مُوسَّع يشرح فيه تلك النقاط التي كتبها في القائمة سابقًا. **والرابعة**: مواجهته بأنَّ هذا اعترافه ومُعتقَده، ويقال له: أليس هذا ما تعتقده أنت بنفسك دون إجبار أحد؟ والآن لا نطالبك بأكثر من تصريحك بمُعتقَدك؛ فإن كنتَ واثقًا من مُعتقَدك فأنت على استعدادٍ للالتزام به، ألستَ كذلك؟ وهكذا تتتابع الخطوات! **والخامسة**: تُقام بعدها مُنافَسة بين الأسرى لكتابة أفضل مقالٍ في المُقارَنة بين الرأسمالية الأمريكية والشيوعية، ويفوز مقال أحد المأسورين -المكتوب طواعيةً منه-، ثم بعد ذلك يتم بث المقال على موجات الراديو المُوجَّهة للقوات الأمريكية وفي كل مُعسكَر الاعتقال؛ بحيث يسمعها الأسير نفسه؛ فيَجدُ الأسير نفسه قد قام بتصريحات تَخدِم العدو؛ فصار بطريقة أو بأخرى مُتعاوِنًا مع العدو! ينتهي الأسير إلى تغيير نظرته إلى نفسه وحصول توافُق وانسجام مع الفعل الذي تورَّط في القيام به طواعيةً، والتعريف الذي حاز عليه كمُتعاون جديد مع العدو. بدأ الأمر بتغيُّرٍ بطيءٍ ليس له أي قيمة، ثم كَبُرت كُرة الثلج واستدرجوه إلى خطوات أخرى غيَّرت من نفسيَّته؛ فانسجم معها!

وهـذا الـذي يَحـدُث بالضبط مـع بعض الكِيَانات الإسـلامية التي انسـلخَت مـن أصولهـا وجذورهـا، وصـارت تَتبنَّى -عن قناعـة- نظريات تخالـف أصولها وثوابتهـا؛ يبـدأ الأمـر معهم بفتـوى جَلْب المصلحة، وهـم مُتيقِّنون بـأنَّ دخولهم في الأمـر المحظـور مجـرد إجـراء مُؤقَّت لحين تحصيـل المصلحة، ثـم تَكبُر كُرة الثلـج يومًا بعـد يـوم حتـى يصبـح المحظـور أمرًا عاديًّا، ثـم تنقلب الآيـة بالدفاع عـن المحظـور والتظاهـر بأنك تتبنَّاه وأنـه مـن أصولـك، حتى ينشـأ عنـدك جيل فاقـد البوصلـة لا يعـرف تلـك الأصـول التـي نشـأ عليهـا كِيَانـه. أَعلَـم أن هنـاك مُستجَدَّات مـن المُمكِـن أن تطـرأ علـى الكِيَـان ويَلْـزم التعامـل معهـا بتقديـر المَصلَحـة والمَفسَـدة، ولكـن في نفـس الوقـت يجـب أن نتعامـل مـع المصلحـة بشـكلٍ لا يَنْسِـف أصـول الكِيَـان الـذي نشـأ عليـه، وأن تكـون هنـاك مركزيـة للهـدف الأصلـي، وأن تتمحـور كل المصالـح حولـه؛ بحيـث تـراوِغ بالمفاسـد والمصالـح وترجـع مرة أخرى إلى قواعدك وأصولك سـالمًا غير فاقد البوصلة.

٦- ما فَعَلَتْه الكنيسةُ ولم نَفْعَلْه نحن!

تعرفتُ على صديقٍ مسلمٍ كان مسيحيًّا قبل اعتناقه الإسلام، وكان ذا رتبة في التبشير الأرثوذكسي، ودعاني فضولي إلى سؤاله عن الأنشطة التي كان يمارسها في التبشير، ومن بين حديثه جَذَبَ انتباهي «نشاط الكنيسة التربوي»؛ ففوجئتُ بمدى اهتمام الكنيسة بالجانب التربوي (الحياتي)، بجانب الأنشطة الدِّينية والتثقيفية!

فاجَأَني صديقي هذا بأنهم في الكنيسة يتعاقدون مع طبَّاخٍ في فندقٍ مشهورٍ لإلقاء دوراتٍ في «الطبخ» للبنات في الكنيسة، كما يَعْقِدون دوراتٍ في «الآداب السلوكية أو الإتيكيت» للبنات، ودوراتٍ في «الديكور» وكيفية تنسيق أثاث المنزل، كل ذلك يحكيه صديقي وأنا أستحضر في ذهني أنشطة المحاضن الخاصة بنا -الخاصة بالمسلمين- وأقارن بين الاثنين، وأتحسَّر على نُدْرة تلك الأنشطة في محاضننا.

الأمر الذي جعلني أتذكَّر إجابة أمي -حفظها الله- حين سألتُها عن معرفتها بطريقة «ضَرْب الحُقَن»[1]، حيث كانت لا تذهب بنا إلى الصيدليات، بل حقَّقت

---

(١) أداة خاصَّة ذات إبْرة، يُدفع بها السائلُ أو الدواءُ في الجسم، أو يُسحب منه حُقنة زجاجية.

لنا الاكتفاء الذاتي في ذلك الأمر، وكان صِيتُها بين جيراننا في تلك المهارة يجعلهم يأتون بأبنائهم كي تضرب لهم الحُقَن؛ فأجابتني بأنها تعلَّمَت تلك المهارة في الكنيسة! حيث إنها كانت تَسكُن في منطقةٍ بها عدد كبير من المسيحيين، والكنيسة كانت تَعْقِد أنشطةً في «الإسعافات الأولية»، وكانت أمي تُحضُرُ تلك الأنشطة، كما كانت تنظِّم لهم الكنيسةُ دوراتٍ في «الخياطة»، وكل ذلك كان بلا مقابل، وغير مُقتصِر على المسيحيين فقط، بل كان الباب مفتوحًا للمسلمين أيضًا!

من الواضح في إجابة أمي، وفي الأنشطة التي رواها لي صديقي؛ أنَّ الكنيسة تُولِي اهتمامًا بالغًا بالأنشطة الاجتماعية (الحياتية)، وهو أمر مُحزِن لنُدْرة وجوده في جماعة المسلمين عامةً وفي الكِيَانات الدعوية خاصةً! فطُغْيان الاهتمام بالعلوم الشرعية والفكرية جَعَل ذلك الجانب مُهمَلًا، على الرغم من احتياج كل البشر لتلك المهارات، على تنوُّع أجناسهم وأديانهم!

التربية الحياتية لماذا؟

التربية الإسلامية تربيةٌ مُتكامِلةٌ شاملةٌ، ليست تربيةً لاهُوتِيَّةً[1] تُرَكِّز على الجوانب الدِّينية فقط -وإن استدعى الظرفُ البيئي والزماني والمكاني التركيزَ على العلوم الشرعية-، ولكن لا يكون الأمر مُسوِّغًا لإهمال الجانب الحياتي أو المجتمعي، وقد ضربتُ مثالًا -في أول الكتاب- وبيَّنتُ أنَّ عملية التربية شديدة الشَّبَه بعملية تشييد المباني، فكما أنَّ عملية تشييد المبنى لا تَتمُّ إلا بشكلٍ مُتكامِلٍ؛ من تصميم المعمار، وصَبِّ الأساسات، وإتمام الكماليات والدِّهانات وأعمال

(١) عِلْم اللاَّهُوت: هو عِلْم يبحث في وجود الله وذاته وصفاته، ويقوم عند المسيحيين مقام عِلْم الكلام عند المسلمين، ويُسمَّى أيضًا «عِلْم الربوبية والإلهيات».

الكهرباء والنجارة ليَخْرُج البناء في أَبْهى وأكمل صورة؛ فكذلك العملية التربوية يجب أن تكون مُتكامِلةً ليَخْرُج البناء التربوي في أَبْهى وأكمل صورة، فالكِيَانات المُتميِّزة هي التي تحرص على تكامُل الجوانب التربوية في بناء أفرادها؛ مثل: الجوانب العِلْمية، والسلوكية، والاجتماعية، والفكرية، ...إلخ.

كما أنَّ التربية الحياتية تتناغم مع شمول الشريعة، فالشريعة جاءت شاملةً لكل جوانب الحياة؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾(١)؛ فمن المنطقي تطبيق الدِّين بشموله التي اتصف به، وتجنُّب تجزئته أو تبعيض ذلك الشمول، وعلى الرغم من أنَّ العِلْم الشرعي هو حَجَر زاويةِ بقيةِ التخصُّصات؛ فإنه ليس مُسوِّغًا أن ينال كل الاهتمام وتُهمَل الجوانب الأخرى.

أمثلة من السُّنة على التربية الحياتية:

لئلا يظن البعض أن أهل الباطل هم وحدهم من لديهم تربية حياتية؛ أَوَدُّ تصحيح ذلك المفهوم الخاطئ بذكر ما نفخر به في السُّنة المُطهَّرة -على صاحبها أفضل الصلاة والسلام-؛ فهو خير مَن طبَّق خاصية الشمولية في تربية وتعليم أصحابه رضي الله عنهم؛ فعن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنَّ أَحَدَ المشركين قال له: «قد علَّمكم نبيُّكم صلى الله عليه وسلم كُلَّ شيءٍ، حتى الخِرَاءة(٢)»(٣)، فالدِّين الذي يُعلِّم أبناءه دقائق أمور الدُّنيا حتى آداب قضاء الحاجة؛ من باب أَوْلَى أن يُولِي اهتمامًا لتعليم باقي الآداب الحياتية، وهذا ما قد حصل بالفعل، لكن الدُّعاة قصروا في الاهتمام بها.

---

(١) النحل: ٨٩.

(٢) الغائط.

(٣) رواه مسلم. باب: الاستطابة. حديث رقم (٢٦٢).

وقد مَرَّ النبيُّ ﷺ بغُلامٍ يَسْلُخُ شاةً فوجَدَه لا يُحْسِنُ السَّلْخ؛ فقال له النبيُّ ﷺ: «تَنَحَّ حَتَّى أُرِيكَ»، فأَدْخَلَ رسولُ الله ﷺ يَدَه بين الجِلْد واللَّحم فَدَحَسَ بها[١] حتى تَوارَتْ إلى الإبط[٢][٣]. فلو كان دِيننا لا يَشْمَل تعلُّم تلك المهارات؛ لَما اهتم النبيُّ ﷺ بتعليم الغلام تلك المهارة المُهِمَّة -مهارة سَلْخ الشاة-، لكن النبي ﷺ -دليل الأُمة البشري- يعلِّمنا أنَّ التربية مُتكامِلة الجوانب، وأنَّ الدِّين الإسلامي شامل، لا يهتم بجانبٍ على حساب إهمال جانبٍ آخر.

من الأمثلة الواضحة أيضًا في تربية النبي ﷺ الحياتية للصحابة رضي الله عنهم؛ ما رواه عُمَر بن أَبي سَلَمَة رضي الله عنه من توجيه النبي ﷺ له عندما كانت يده تَطِيشُ في الصَّحْفَة[٤] عندما كان غلامًا صغيرًا؛ فقال له النبيُّ ﷺ: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». فامتَثَل عُمَر بن أَبي سَلَمَة رضي الله عنه توجيه النبي ﷺ؛ حيث قال بعد هذا التوجيه: «فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[٥]»[٦].

وهذا كَلَدَة بن الحَنْبَل رضي الله عنه عندما جاء إلى النبي ﷺ فدخل عليه ولم يُسَلِّم ولم يستأذن؛ فقال له النبيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟»[٧]. وفي

---

(١) الدَّحْس: هو إدخال اليد بين جِلْد الذبيحة ولحمها.

(٢) استترَتْ يده ﷺ بجِلْد الشاة.

(٣) صحَّحه الألباني في صحيح أبي داود. حديث رقم (١٧٩).

(٤) الصَّحْفَة: هي إناء من آنية الطعام. والمعنى: أنَّ يده كانت تُمَد إلى كل جوانب الإناء؛ فيأكل من أمامه ومن أمام غيره، وهذا يتنافى مع آداب الطعام.

(٥) أي: أصبحَتْ هذه هي صفة أكلي وطريقتي فيه بعد ذلك.

(٦) رواه البخاري. باب: التسمية على الطعام والأكل باليمين. حديث رقم (٥٣٧٦). ومسلم. باب: آداب الطعام والشراب وأحكامهما. حديث رقم (٢٠٢٢).

(٧) صحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة. حديث رقم (٨١٨).

هذا التوجيه النَّبَوي تعليمُ الآداب السلوكية -أو الإتيكيت-، وهي من المهارات الحياتية.

وهذه رُفَيْدَة الأَسْلَمِيَّة < ؛كانت امرأةً صالحةً تُداوِي المرضى والجرحى؛ حيث أنشأ المسلمون أول مستشفى إسلامي حربي في غزوة الأحزاب، وقد ضَرَب النبيُّ ﷺ خيمةً في مسجده الشريف في المدينة عندما دارت رَحَى الغزوة؛ فأمَرَ النبيُّ ﷺ أن تكون رُفَيْدَة الأَسْلَمِيَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبَوي الحربي؛ وبذلك أصبَحَتْ أول مُمرِّضة عسكرية في الإسلام. ولمَّا أُصيب سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسَهْمٍ في غزوة الخندق؛ أَمَرَ النبيُّ ﷺ أن يَمكُث سعدٌ في خيمة رُفَيْدَة في مسجده ﷺ لتُداويه؛ حيث قال ﷺ: «اجْعَلُوهُ فِي خَيْمَةِ رُفَيْدَةَ حَتَّى أَعُودَهُ مِنْ قَرِيبٍ»[١]. وشَهِدَتْ رُفَيْدَةُ غزوةَ خيبر مع النبي ﷺ، وأعطاها النبيُّ ﷺ حِصَّة رَجُلٍ مُقاتِلٍ تقديرًا لها على مجهودها في تطبيب المرضى والجرحى[٢]. وشَهِدَ أيضًا عددٌ من النساء غزوةَ خيبر؛ حيث جاء نِسْوَةٌ إلى النبيِّ ﷺ وقُلْنَ له: يا رسول الله، قد أَرَدْنَا أن نَخرُج معك إلى خيبر؛ فنُداوي الجرحى ونُعِين المسلمين بما استطعنا. فقال النبيُّ ﷺ: «على بَرَكة الله»[٣].

القرآن الكريم والسُّنة المُطهَّرة قد حَوَيَا كل الآداب الحياتية في المعاملات

---

(١) علي محمد الصلابي. **غزوات الرسول ﷺ: دروس وعبر وفوائد**. مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة. ط١، ١٤٢٨هـ. ص٢١٦. بتصرف.

(٢) ابن عبد البر. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**. تحقيق: علي محمد البجاوي. دار الجيل، بيروت. ط١، ١٤١٢هـ. ٤/ ١٩٠٧. بتصرف.

(٣) عبد الملك بن هشام. **السيرة النبوية لابن هشام**. تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ الشلبي. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة. ط٢، ١٣٧٥هـ. ٢/ ٣٤٢. بتصرف.

اليومية، وفي تربية الأبناء، وفي التعامُل بين الزوجَيْن؛ ولَسْنَا هنا بمقام عَرْضها، ولكن الشاهد هو تذكير إخواننا الدُّعاة والمُرَبِّين بضرورة وجود وتكثيف تلك الأنشطة في المحاضن التربوية، لا سيَّما في المحاضن النسائية.

وأخيرًا: لمَّا قَدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فَسُئِلُوا عن ذلك؟ فقالوا: هذا اليوم الذي أظْهَرَ اللهُ فيه موسى وبَنِي إسرائيل على فرعون[١]، فنحن نصومه تعظيمًا له. فقال النبيُّ ﷺ: «نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ»[٢]. فهذه قاعدة قَعَّدَها النبيُّ ﷺ؛ أنَّ المسلمين أَوْلَى بالحق من غيرهم -من أهل الباطل-. وقد قيل: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»؛ فنحن -المسلمين- أَوْلَى من أهل الباطل بتطبيق شمولية الدِّين وتعليم أولادنا تلك المهارات المُهِمَّة التي لا غِنى عنها.

فالكِيَانات التربوية -لا سيَّما النسائية- يَتعيَّن عليها إقامة دوراتٍ لتعليم المهارات الحياتية؛ مثل: (فنون الطبخ - فنون الآداب السلوكية - الديكور - تدبير نفقات المنزل - فنون تربية الأبناء - الإسعافات الأولية - دورات التأهيل للزواج - دورات التقنية)، وغيرها من الدورات النافعة الحاوية لمهارات الحياة، وأن يُقدَّم للذُّكُور مثلها بما يناسب طبيعتهم الذُّكُورية.

كما يُمْكِن للكِيَانات تقديم تلك الأنشطة بشكلٍ عامٍّ تَكْسِب من خلالها فئة المُحبِّين، وتَستقطِب الكثير من المَدْعُوّين، كما تُعلِّم -في نفس الوقت- أبناءَ الكِيَان مهارات الحياة التي تُهِمُّ كل فرد.

---

(١) أي: جَعَلَهم ظاهرين عليه غالبين.

(٢) رواه البخاري. باب: إتيان اليهودِ النبيَّ ﷺ حين قدم المدينة. حديث رقم (٣٩٤٣). واللفظ له. ومسلم. باب: صوم يوم عاشوراء. حديث رقم (١١٣٠).

٧- أَرْشَفَة التجارب (مُستودَع الخبرات)

تَنقَّلْتُ بين عددٍ من المحاضن التربوية -كمُشرِف تربوي-، وعلى تنوُّع تلك المحاضن وتغيُّر البيئات؛ لاحظتُ بَذْل القائمين عليها جهدًا جَهيدًا في التحضير والتخطيط للأنشطة، كما يتطلَّب منهم الأمر بذل جهد أكبر في وَضْع المناهج لمختلف المراحل ووسائل التعليم والإلقاء. وبالنظر من الأعلى لجميع تلك المحاضن وَجَدتُّ أنَّ هناك خطوةً إجرائيةً ما تتكرَّر؛ وهي التخطيط للنشاط وبَذْل الجهد في العَصْف الذهني لتوليد الأفكار والألعاب وطُرُق التعلُّم المُستخدَمة، وهو ما يستنزف كثيرًا من الجهد والوقت المبذول للتحضير.

العجيب أنَّ كل كِيَان من هذه الكِيَانات كان يتعامل مع العملية التربوية وكأنه أول مَن يقوم بها في التاريخ؛ فيَصُوغ المناهج من الألف إلى الياء، ويَعْصِف ذهنه في التخطيط وكتابة الدراسات للأنشطة وكأنه أول مَن أتى بالفكرة! وللأسف يأتي مَن بعدهم -وقد يكونوا من نفس الكِيَان- ليكرِّروا نفس التجربة المُستنزِفة للجهد والوقت، ونَظَل نَدُور في حلقة مُفرَغة من الاستنزاف!

ولكن لمَّا دَخَلْتُ بعض محاضن الخليج التربوية (المؤسسية)؛ وَجَدتُّ

إجراءً مُتميِّزًا يتَّبعونه في تنفيذ أنشطتهم؛ وهو «أَرْشَفَة ملفات الدراسات الخاصة بالأنشطة»؛ بحيث يستفيد منها مُشرِفو الحلقات في كل عام؛ هي عملية شبيهة بالأَرْشَفَة في المصالح الحكومية، لكنها ليست أَرْشَفَة البيانات وإنما هي أَرْشَفَة الدراسات الخاصة بالأنشطة، حيث لا يتكرَّر الجهد المبذول في التخطيط للأنشطة نفسها.

أغلب الكِيَانات التربوية لا تهتم بهذا الإجراء رغم أهميته وفائدته في حِفْظ الجهد والوقت! حتى إنَّ المشاريع التربوية الإلكترونية البحثية لا تُولِي هذا الأمر اهتمامًا، وهو تأسيس رُكْن لأَرْشَفَة الدراسات وأفكار الأنشطة والمناهج؛ بحيث تستفيد منه الكِيَانات الأخرى وتبدأ من حيث انتهى الآخرون، ولا تستنزف من طاقة أبنائها ولا وقتها.

أَرْشِيف أشبه بمُستودَع الخبرات؛ فيه كل الأنشطة والأفكار والدراسات التي لا يتخلَّى عنها أي كِيَان تربوي، تُكتَب بشكلٍ عامٍّ أو تفصيليٍّ، وكل كِيَان يستفيد منها بقَدْر ما يناسب بيئته وزمانه ومكانه، أَرْشِيف يُعلِّم الأجيال الجديدة مما تَعَلَّم رُشْدًا.

الاستفادة من الخبرات في القرآن والسُّنة:

قصص القرآن كانت خير ما يُلهِمُنا فكرةَ أَرْشَفَة التجارب؛ فقد قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1]؛ قال الطبري رحمه الله: «لقد كان في قصص يوسف عليه السلام وإخوته عِبْرة لأهل الحِجَا[2] والعقول يعتبرون بها،

(١) يوسف: ١١١.

(٢) الحِجا: الذكاء والحِكْمة والفِطْنة.

وموعظة يتَّعِظون بها»(١)؛ فالله تعالى قَصَّ لنا القَصَص للاستفادة من التجارب التي ذُكِرَت فيها والاسترشاد بها، فهي بمَثَابَة خلاصة تجارب إنسانية لهداية أهل الإيمان بها.

وخير دليل على ذلك قصة أصحاب الكهف؛ حيث كانت القصة مُلهِمَةً للنبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم لتنفيذ فكرة الهجرة والفِرَار بالدِّين، وأعطتهم القصة الخطوط العريضة للتنفيذ، حيث الفِرَار بالدِّين إلى مكان آخَر غير الذي يعيشون فيه بين أهل الكُفر، كما أنَّ هجرة النبي ﷺ وصحابته رضي الله عنهم كانت هجرةً جماعيةً وكان لا بُدَّ من الحذر فيها، مع تغيير التفاصيل وفقًا للبيئة والزمان والمكان.

وَجْه المُقارَنة	أهل الكهف	هجرة الحبشة
الفكرة	الهجرة	الهجرة
المكان	كهف خارج البلد	الحبشة
صفة الهجرة	جماعية	جماعية
الغرض من الهجرة	الفِرَار بالدِّين، وحِفْظ النفس	الفِرَار بالدِّين، وحِفْظ النفس
الاحتياطات	الحذر حتى لا يشعر بهم أحد	تسلُّل وتَخَفٍّ حتى لا تلاحقهم قريش

كل تلك العناصر كانت مشتركة بين هجرة أهل الكهف وبين هجرة الصحابة إلى الحبشة؛ فكانت قصة أهل الكهف بمَثَابَة مُستودَع خبرات إنسانية للصحابة

(١) ابن جرير الطبري. **جامع البيان في تأويل القرآن**. ١٦/ ٣١٢.

يستفيدون منها الخطوط العريضة في تنفيذ رحلتهم، مع وَضْع التفاصيل الدقيقة وفقًا لبيئتهم وزمانهم ومكانهم.

وقد بيَّن اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في عِدَّة مواضع مَشروعيةَ الاستفادة من خبرات السابقين؛ فقال تعالى للنبيِّ ﷺ: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[1] من أهل التوراة والإنجيل من أهل الصِّدْق والإيمان بك، دون أهل الكذب والكُفْر؛ لإثبات الحق. وقال تعالى أيضًا للنبيِّ ﷺ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[2].

ولذلك؛ فإنَّ «من جملة المراتب العُليا لتفسير القرآن الكريم؛ عِلْمَ أحوال البشر؛ فقد أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الكتاب وجَعَله آخر الكتب، وبيَّن فيه ما لم يُبَيِّنْه في غيره. بيَّن فيه كثيرًا من أحوال الخَلْق وطبائعهم، والسُّنَن الإلهية في البشر، قَصَّ علينا أحسنَ القَصَص عن الأُمم وسِيَرها المُوافِقة لسُنته فيها. فلا بُدَّ للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومَناشئ اختلاف أحوالهم؛ من قوةٍ وضَعْفٍ، وعِزٍّ وذُلٍّ، وعِلْمٍ وجَهْلٍ، وإيمانٍ وكُفْرٍ، ومن العِلْم بأحوال العالَم الكبير عُلْوِيِّهِ وَسُفْلِيِّهِ، ويُحتاج في هذا إلى فنونٍ كثيرةٍ من أهَمِّها؛ التاريخ بأنواعه. فلا يُعقَل كيف يُمْكِن لأَحَدٍ أن يفسِّر قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[3] وهو لا يَعْرِف أحوال البشر، وكيف اتَّحدوا، وكيف تفرَّقوا؟ وما معنى تلك الواحدة التي كانوا عليها؟ وهل كانت نافعة أم ضارة؟ وماذا كان من آثار بَعْثِه عَزَّ وَجَلَّ النبيِّين فيهم؟ أجملَ

---

(١) يونس: ٩٤.

(٢) الزخرف: ٤٥.

(٣) البقرة: ٢١٣.

القرآن الكلام عن الأُمم، وعن السُّنَن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنْفُس؛ وهو إجمالٌ صادرٌ عمَّن أَحَاطَ بكل شيءٍ عِلْمًا، وأمَرَنا بالنظر والتفكُّر، والسَيْر في الأرض لنَفْهَمَ إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاءً وكمالًا، ولو اكتفينا من عِلْم الكون بنظرةٍ في ظاهره؛ لَكُنَّا كَمَن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من عِلْمٍ وحكمةٍ!»[١].

ولا أجدُ مثالًا أوْضَحَ من حوارِ سيدنا موسى مع سيدنا محمد -عليهما الصلاة والسلام- في رحلة المعراج؛ حيث استفاد النبيُّ ﷺ من تجربة موسى عليه السلام مع قومه، حينما فُرِضَت الصلاةُ خمسينَ صلاةً كل يوم؛ يقول النبيُّ ﷺ: «فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلاَةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي واللهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ، وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ، وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»[٢].

---

(١) محمد رشيد رضا. **تفسير المنار**. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة. ب.ط. ١٩٩٠م. ١/ ٢٠، ٢١. بتصرف يسير.

(٢) رواه البخاري. باب: المعراج. حديث رقم (٣٨٨٧).

وقد استفاد النبيُّ ﷺ أيضًا من أفكارِ وخبراتِ الحضارات الأخرى غير المُسْلِمة؛ مثل: استجابته ﷺ لفكرة سلمان الفارسي رضي الله عنه في حفر خندقٍ على الحدود الشمالية للمدينة المنورة؛ كوسيلةٍ دفاعيةٍ في غزوة الأحزاب، مع أنها فكرةٌ فارسيةٌ من الأساس[١]. وكذلك استجابته ﷺ للخبرة الرُّومية في النجارة؛ حين عَرَضَ عليه تَميم الدَّاري[٢] رضي الله عنه أن يصنع له مِنبَرًا، فاستجاب له النبيُّ ﷺ، مع أنها فكرةٌ روميةٌ من الأساس[٣]. فقد اعتمد النبيُّ ﷺ العديدَ من الأفكار المُستمَدة من الحضارات الأخرى غير المُسْلِمة، ما دامت لا تُعارِض عقيدة وأحكام الإسلام.

كما استفاد الخلفاء في إقامة الدولة الإسلامية من تجارب الفُرْس والرُّوم، وأخذوا كثيرًا من الخبرات والأعراف السياسية والإدارية والاقتصادية؛ فكانت خلاصة تجارب استفادوا منها بدلًا من البدء من الصفر.

الأَرْشَفَة تُوَفِّر الوقت وتَضمَن الجودة:

أغلب العلامات التجارية العالمية تعمل -حاليًا- بنظام (إدارة الجودة/

---

(١) علي محمد الصلابي. **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث**. ص٥٩٤. بتصرف واختصار.

(٢) كان تَميم الدَّاري رضي الله عنه كثيرَ السفر إلى أرض الرُّوم؛ لذلك تعلَّم النجارة من هناك. وقد اختلف العلماء في اسم صانعِ مِنبَرِ رسول الله ﷺ على أقوالٍ شتَّى؛ فمنهم مَن قال: «تَميم الدَّاري» وهو الأرجح عندي، ومنهم مَن قال: «باقول الرُّومي»، ومنهم مَن قال: «إصباح»، ومنهم مَن قال: «إبراهيم»، ومنهم مَن قال: «قَبِيصَة المَخْزُومِي»، ومنهم مَن قال: «مَيمون».

(٣) ابن حجر العسقلاني. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**. ٢/ ٣٩٨، ٣٩٩. بتصرف واختصار.

Quality System)، والذي يَضمَن الحِفَاظ على جودة العمل؛ فمثلًا: بعض المطاعم تَشتَرِط على المُنتفِعين بعلاماتها التجارية قيودًا وشروطًا مُعَيَّنةً خاصة بتصميم الفرع ومساحته واللوحات، كما تَفْرِض عليهم إمداد الفرع بنفس المواد الخام التي يُوَرِّدونها لبقية الفروع، حتى طريقة الطَّهْي يجب أن تكون خاضعةً لنفس القواعد والشروط؛ ليَخْرج العمل بنفس الجودة وفي وقتٍ أقل!

وبالنظر إلى نظام إدارة الجودة من جهة أنه مُستودَع للخبرات؛ فهو يُوَفِّر الجهد والوقت؛ حيث إنه يُوَفِّر للمُصمِّم المُشرِفِ على تصميم المطعم خامات المطعم وطريقة تصميمه من الداخل. ويُوَفِّر الجهد والوقت للعُمَّال؛ حيث إنهم يسيرون وفق خطوات مُتَّبَعة لطَهْي وتقديم الوجبات. وكل ذلك لا يحدث في المطاعم العادية التي لا تَتبنَّى تلك السياسات!

حتى في أي مؤسسة عُمَّالية؛ مع تراكُم الخبرة لمُوظَّفٍ ما داخل المؤسسة يقابل ذلك زيادة في راتبه، وتلك الزيادة التي قد يراها البعض عِبْئًا على المؤسسة؛ هي -في الحقيقة- توفير لنفقاتها، فعُنْصُر «الخبرة» يُوَفِّر لها الجهد والوقت، بدلًا من الإتيان بعناصر جديدة قليلة الخبرة، كما يحافظ على الجودة المطلوبة من خلال إتقانه للعمل بجودة يصعب على غيره الإتيان بها؛ فهو لها بمَثَابَة «مُستودَع خبرات».

ونحن في الكِيَانات الدعوية نَأْمُل امتلاكَ أنظمةٍ لأَرْشَفَة التجارب وبنوكَ أفكارٍ تُوَفِّر للعاملين فيها الجهد والوقت ومُعاناة البداية من الصفر، وبالطبع لا نقصد أن يكون الأمر بالدِّقة المُتناهِية الموجودة في أنظمة إدارة الجودة لدى العلامات التجارية العالمية؛ فنحن نتعامل مع بشر وليس منتجات، لكن ما نَرْنُو إليه هو صُنْع نماذج عامة تحوي خطوطًا عريضةً لأي نشاط، أو مَساراتٍ عامةً

لمناهج المراحل المختلفة، تتغيَّر تفاصيلها بتغيُّر البيئة والزمان والمكان.

الأَرْشَفَة تُطوِّر الأداء:

من مُميزات أَرْشَفَة التجارب أنها لا تجعل مُستخدِمها يبدأ أنشطته من الصفر؛ فهو يُكْمِل على ما تركه الآخرون من خبرات؛ ومن ثَمَّ فإنه يُوَجِّه جهده ووقته إلى تطوير التفاصيل الخاصة بالأنشطة والدراسات؛ مما يُثْمِر عنه تطوير الأداء، بدلًا من أن يستنزف الوقت في إنشاء تجربة جديدة بالكلية.

وخير شاهد على تلك النتيجة؛ الاستفاداتُ التي حَدَثَت بين الحضارات، فكل الحضارات التي تميَّزت قد استفادت من مُستودَع خبرات الأُمَم التي سبقتها، مع تطوير تلك الخبرات بوَضْع التفاصيل التي تناسب بيئتهم وزمانهم ومكانهم؛ فالمسلمون استفادوا من حضارة الفُرْس والرُّوم، وأوروبا الحديثة استفادت من حضارة المسلمين في الأندلس، وكُلٌّ يأخذ ممَّن قبله ويُطوِّره؛ وهو ما سُمِّيَ بعد ذلك بـ«تفاعُل الحضارات»؛ فكل حضارة تأخذ ما يناسبها وما يتَّفق مع طبيعتها. فالبناء على النتائج السابقة أكثر إفادةً من البناء من الصفر؛ لأنه يعمل على بَذْل الجهد والوقت للتطوير والتحسين، بدلًا من بَذْلهما للبناء من جديد.

٨- الاحترافية في العمل

«إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[١] حديث مشهور قد حفظه أغلبنا في صغره، وهو وصية نَبَوية للسعي إلى تحسين المنتج النهائي وإخراجه في أَبْهى وأكمل صورة. وهي وصية عَمِلَ بها البعضُ وتغافَلَ عنها الكثيرُ في أعمالهم الدعوية!

ومن ضمن مفاهيم إتقان العمل؛ مصطلحُ «الاحترافية»؛ ذلك المطلب الذي إذا غاب عن أي منتجٍ غاب تميُّزه في الحال، وظل يدور في حلقة مُفرَغة إلى أن يخرج من حَلبة المُنافَسة بالكلية!

ومن تحديات العصر الذي نحياه؛ الحداثةُ التي تفرض علينا المُنافَسة بقوة وتحسين جودة منتجاتنا لتصبح قادرة على المُنافَسة بشكل قوي، وهو ما يُشَكِّل عِبْئًا ثقيلًا على الكِيَانات الإسلامية؛ لأنها كِيَانات تَحكُمها قيودٌ شرعيةٌ، هذه القيود ليست موجودةً عند غيرها؛ فيزيد عليها التحدي بالمُطالَبة بإخراج منتج احترافي محكوم بالقيود الشرعية.

---

(١) سبق تخريجه.

«وأجيال اليوم يتنافس على التواصل معها الكثيرون؛ في القنوات الفضائية، ومواقع التواصل الاجتماعي، والفعاليات الواقعية؛ والمُرَبِّي إذ يدخُل إلى ساحة المُنافَسة التواصلية فإنه بحاجة إلى القَدْر الذي يجعله قادرًا على الفوز على مُنافِسيه في تواصله مع هذه الأجيال»[1].

ولكي نَصِل لمرحلة الاحترافية في المُنافَسة يجب أن نُطبِّق بعض التوصيات في كِيَاناتنا الإسلامية؛ ومن أهمِّها:

المؤسسية:

كي يَصِل الكِيَان الدعوي إلى مستوى الاحترافية؛ لا بُدَّ من العمل في إطار مؤسسي كي تتضافر الجهود في سياق مُتقَن ومُنظَّم، وفق تجمُّع إداري يتكامل بلوائح وقواعد لتحقيق أهداف الكِيَان في أحسن الأشكال الاحترافية، وهو أمر مُطبَّق بشكل كبير في الكِيَانات الدعوية -على تنوُّع توجُّهاتها-، لا سيَّما الكِيَانات الدعوية في الخليج.

لا مُقارَنة بين العمل الفردي وبين العمل المؤسسي (الجماعي) من ناحية الفاعلية والإثمار، ويُحقِّق العمل المؤسسي الاحترافية في العمل والخروج في أَبْهى صورة؛ عبر التالي:

١. تحقيقه التكامل في العمل؛ حيث إنَّ الأعمال الفردية مهما كان مستواها فلا تَصِل درجة إتقانها إلى درجة الإتقان في العمل المؤسسي.

٢. دَفْع العمل إلى الخروج بشكل احترافي؛ عبر التنافُس بين الأفراد.

---

(١) فايز سعيد الزهراني. **التربية من جديد**. ص٢٢٦.

٣. يضمن استمرارية العمل بكفاءة؛ حيث إنَّ العمل يقوم به عِدَّة جهات مختلفة، ولا يقوم به شخص واحد.

٤. الشورى في اتخاذ القرارات؛ حيث لا تُترَك فرصة للتفرُّد بأخذ القرار أو القيادة الفردية في القرارات المُتعلِّقة بالمؤسسة.

٥. وجود لوائح ونُظُم تنظم العمل وتوزعه، ويُحْتكَم إليها عند الخلاف.

٦. وجود نظام مُراقَبة وتقويم مُستمِر؛ للتأكُّد من سلامة التنفيذ.

إسناد الأمر لأهله:

تأمَّلْ طلب بَنِي إسرائيل حينما قالوا لنبيٍّ لهم: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]؛ فلماذا لم يطلبوا من نبيِّهم أن يقُود هو بنفسه المعركة؟ ولماذا لم يتقدَّم نبيُّهم ليقُودهم ويُنَصِّب نفسه قائدًا حربيًّا حينما طلبوا؟ تَجِدُ الإجابة في قول نبيِّهم حينما أخبَرَهم بالقائد الذي قد بعَثَه الله لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[2]، فاعترضوا قائلين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[3]، اعترضوا عليه لأنهم لا يَعْلَمون المعايير الصحيحة للقيادة؛ إذ لم يَكُن من أبناء الملوك، ولا يمتلك مالًا كثيرًا يستعين به على المُلك؛ فبيَّن لهم نبيُّهم المعايير الصحيحة للقيادة قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾[4]؛ فالله ﷻ اختاره لأنه أعلمهم وأقواهم.

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

(٢) البقرة: ٢٤٧.

(٣) البقرة: ٢٤٧.

(٤) البقرة: ٢٤٧.

وقد قدَّم الله «الكفاءة» على «الثقة» في قوله ﷻ على لسان إحدى ابنتَيْ شعيب عليه السلام حينما أشارت على أبيها استئجار موسى عليه السلام ليرعى غَنَمَهم: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[1]؛ «قالت ذلك لأنه جدير بأن يُستأجَر؛ لجَمْعه بين القوة والأمانة؛ فبالقوة يُؤدِّي ما كُلِّفَ به، وبالأمانة يَحفَظ ما ائتُمِنَ عليه»[2]. فجاءت «القوة» بمعنى «الكفاءة»، و«الأمانة» بمعنى «الثقة»؛ فاختار الله ﷻ الكفاءة وجَعَلَها المعيار الأول، وتَبِعَها بالثقة التي تُزيِّن عملية الاختيار وتجعله مثاليًّا.

«وقد ذكر ابن خلدون رحمه الله أنَّ للناس مَذهَبَيْن في استخدام الأَكْفاء غير الثقات وتقديمهم على الثقات غير الأَكْفاء، واختار رحمه الله استخدام غير الثقات إذا كانوا مُؤهَّلين؛ لأنَّ بالإمكان وَضْع بعض التدابير التي تَحِدُّ سرقاتهم، أمَّا إذا كان المُستخدَم لا يُحْسِن شيئًا؛ فماذا نعمل به؟!

وقد وَلَّى النبيُّ ﷺ أهلَ الكفاية الحربية مع أنَّ في الصحابة مَن هُم أَتْقَى منهم وأَوْرَع؛ لأنَّ القوة (البَسالة وحُسْن التخطيط) تُطلَب في قيادة الجيش أكثر من الأمانة، مع أنهم كانوا بكل المقاييس من الأُمَناء الأخيار، وطَلَب بعضُ الصحابة -ممَّن عُرِفوا بالزُّهد والوَرَع- الولايةَ على بعض أمور المسلمين؛ فحَجَبَها النبيُّ ﷺ عنهم لضَعْفهم.

سيَظَل النَّمَط الذي يجمع بين «القوة» و«الأمانة» نادرًا في بَنِي الإنسان، وكلَّما اقتربَا من الكمال في شخصٍ؛ صار وُجُوده أكثر نُدْرةً، فالقوي الذي لا يُؤتَمَن، والموثوق العاجز هُم أكثر الناس، والذين فيهم شيء من «القوة» وشيء

(١) القصص: ٢٦.

(٢) نخبة من العلماء. **المختصر في تفسير القرآن الكريم**. ص٣٨٨.

من «الأمانة» كثيرون؛ وقد رُوِيَ عن عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «أشكو إلى اللهِ جَلَد الفاجِر وعَجْز الثقة»؛ فكلٌّ منهما لا يُمثِّل المسلم المطلوب»[١].

ولقد شَهِدتُ بنفْسي أشخاصًا من التيار الإسلامي قائمين على بعض المشاريع الإعلامية، ولا يستطيعون صياغة خطابٍ أو خبرٍ أو تقريرٍ! فكان مُؤهِّله الوحيد في التعيين ثقةَ المُموِّل ليس إلا! ألم يقرأ هؤلاء قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾[٢]؟! ألم يقرأوا قول الله عَزَّ وَجَلَّ على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٣]؟! ألم يقرأوا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ؛ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ"[٤]؟! أَم عَمُوا وصَمُّوا عن كل ذلك؟! لا سيَّما أنَّ العمل الإسلامي مُقيَّد بضوابط الشريعة، على العكس في الأعمال غير الإسلامية؛ وهو تحدٍّ كبيرٌ يزيد من تمسُّكنا بشرط الكفاءة في إسناد الأمور لأهلها.

وللأسف أغلب العمل الإسلامي غير خاضع لهذا المبدأ، ويعاني من التخبُّط والعشوائية، وعدم احترام التخصُّص، وتولية أهل الثقة وأهل السَّمْت وتقديمهم على أهل الكفاءة وأصحاب الخبرة!

التطوير المُستمِر:

من وسائل الوصول إلى الاحترافية في العمل؛ مواجهةُ التحديات التي

---

(١) عبد الكريم بكار. **مقال بعنوان** ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. موقع (www.saaid.net).

(٢) القصص: ٢٦.

(٣) يوسف: ٥٥.

(٤) رواه البخاري. باب: مَن سُئل علمًا وهو مشتغل في حديثه، فأتم الحديث ثم أجاب السائل. حديث رقم (٥٩).

تطرأ على الواقع والتغلُّب عليها، وتكييف رسالتنا مع التغيُّرات دون الإخلال بالثوابت، ودون الإخلال بجَذْب الفئة المُستهدَفة؛ فمن المأساة أن تَجِدَ لقاءً دعويًّا بنفس العنوان الذي يُعْقَد به من السبعينيات، ومُستمِرًّا إلى العَقْد الثاني من القرن الحادي والعشرين بنفس المضمون والشكل! والعجيب أنك تَجِدُ اندهاشًا من القائمين على تلك اللقاءات بسبب عُزوف الشباب عنها!

وأثناء حديثنا عن تلك اللقاءات الدعوية التقليدية؛ دعونا نَنْظر إلى الصعيد الآخر؛ حيث المشاريع التي جَذَبَتْ آلاف الشباب بسبب مُواكَبة مضمونها وأسلوبها للتغيُّر الطارئ في الواقع، وفي الوقت الذي يجلس الشيخ على مكتب في أستوديو للوعظ أو تعليم الناس؛ تَجِدُ على الصعيد الآخَر مَنْ طوَّر أسلوبه، وطريقة عَرْضه، ومضمون كلامه؛ ليَجْتَذِب الناس أكثر من الشيخ.

وقد حاولتُ مرةً عَدَّ المشاركين في إعداد برنامج ساخر -يستهدف التيار الإسلامي بسُخريةٍ-؛ فكانت المفاجأة أن تجاوَز عددهم (٣٠) فردًا! وعلى ضِفَّتنا المِسْكِينة هذه؛ تكاد لا تُذكَر كلمة «إعداد» في أي برنامج! فالمطلوب هو: إخراج وإدارة المضمون بشكلٍ احترافيٍّ؛ لتأهيله لكسب التحدي أمام هذا الكَمِّ الهائل الذي يتلقَّاه الجمهور عبر الوسائل الأخرى، فلا يَصْلُح -بأيِّ حالٍ من الأحوال- أن تُعْقَد مؤتمرات مناقشة الأفكار، ونماذج المحاكاة، والصالونات الثقافية؛ ونحن لا نُطوِّر عَمَلَنا!

فلا بُدَّ من تطوير ذوي الاختصاص في مجالاتهم؛ بالتدريب المُستمِر، والدراسة، والاطلاع على التجارب الأخرى والاستفادة منها، وتدوين التجارب للاستفادة من السلبيات والإيجابيات، ولا مانع من عَقْد جلسات للعَصْف الذهني؛ للتطوير المُستمِر، ودراسة علوم الإدارة والتخطيط للاستفادة منها.

إلغاء المحسوبية[١]:

يقول الله ﷻ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[٢]؛ فقد حَثَّ القرآنُ الكريمُ على نَفْع الناس، ودَفَعهم إلى التيسير على العِبَاد، وهذه سُمِّيَت «شفاعة حَسَنة» حَضَّ عليها اللهُ ﷻ؛ وهو ما كان لوجه الله، وكان من باب الإرفاق، ولم يكن فيه حرمان مَن هو أَوْلَى وأَحَقّ من جهة الكفاءة. أمَّا «الشفاعة السيئة»؛ فهي الشفاعة في حدود الله ﷻ، أو إعطاء أَحَد شيئًا ليس من حقه، أو هَضْم الحقوق.

فالمحسوبية وتفضيل المعارف على الأَكْفاء؛ من العوامل الرئيسة لغياب الاحترافية؛ لأنَّ الغالب فيها تولية العمل لغير الأَكْفاء؛ مما يُؤثِّر على جودة العمل، والمحسوبية هي الوجه الآخَر لتولية الأمر لغير أهله، وهي ظاهرة مُنتشِرة في الكيَانات الدعوية بشكل مُخِيف!

فكُلٌّ منا يحب الخير لأهله ولمعارفه، ولكن حُب العمل للدِّين يجب أن يفوق ذلك الحُب؛ ولنا أُسْوة حَسَنة في رسول الله ﷺ حين طَلَبَ منه أبو ذَرٍّ رضي الله عنه الاستعمالَ؛ والاستعمال الذي قَصَده أبو ذَرٍّ هو أن يجعله ﷺ عاملًا، أو واليًا، أو حاكمًا، أو مُوظَّفًا كبيرًا ذا مسئولية؛ فقال أبو ذَرٍّ رضي الله عنه للنبيِّ ﷺ: يا رسول الله، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قال: فَضَرَبَ ﷺ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثم قال: "يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي

---

(١) المحسوبية: هي إسناد الوظائف أو مَنْح التَّرقيات على أساس القرابة العائلية أو السياسية، لا على أساس الكفاءة.

(٢) النساء: ٨٥.

عَلَيْهِ فِيهَا»[١]؛ فبالرغم من حُب النبي ﷺ لأبي ذرٍّ؛ فإنه لم يُوَلِّه مُهِمَّةً يرى أنه غير كُفْءٍ لها، مع أنه أبو ذرٍّ الذي مَدَحه النبيُّ ﷺ قائلًا: «مَا أَقَلَّتِ الْغَبْرَاءُ، وَلَا أَظَلَّتِ الْخَضْرَاءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أَبِي ذَرٍّ[٢]»[٣]. فلو اجتمعَت «القرابة أو المعرفة» مع «الكفاءة»؛ فَبِهَا ونِعْمَتْ، أمَّا أن يكون الشخصُ غيرَ كُفْءٍ ونعتمده في تولية الأمر لمجرد المعرفة أو القرابة؛ فإننا بذلك نَجْنِي جنايةً عظيمةً على العمل.

صناعة الكوادر:

إنَّ «صناعة الكوادر» من إحدى الوسائل الناجحة لتوفير الاحترافية في العمل الإسلامي؛ فالشركات التي تسعى إلى «الرِّبْح الدُّنْيَوِيّ» تتسابق لحيازة العامل الماهر الناجح في مجاله، وتعرض عليه الحوافز والمكافآت، بل تساعده في دراسته وحضور دوراتٍ في مجاله؛ من أَجْل كَسْب ولائه لمكان العمل، وخروج العمل في أفضل صورة. فَحَرِيٌّ بالكِيَانات الإسلامية ذات «الرِّبْح الأُخْرَوِيّ» والأهداف السامية أن تهتم بصناعة الكوادر، ودعمهم بكل ما يريدون من إمكانات للوصول بالعمل إلى أقصى جودة.

ومن طرف آخَر -في جانب الكادر-؛ لا بُدَّ أن يُسخِّر الكادر كُلَّ طاقته وكُلَّ ما استفاده من دراسةٍ ودَعْمٍ لخدمة الثَّغْر الواقف عليه، ولا يُسَخِّر ما حصَّله لخدمةِ أغراضٍ دُنْيَوِيَّةٍ فحَسْب؛ حيث إنه «قد تصير الدعوة مَتجرًا لأبناء الدُّنيا -يلزمها أحيانًا-، حتى إذا صار مُوظَّفًا كبيرًا أو أستاذًا جامعيًّا أو اختصاصيًّا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي: ليس تحت السماء رَجُل، ولا فوق الأرض رَجُل أصدق كلامًا من أبي ذرٍّ.

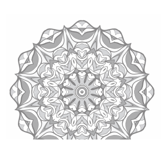
(٣) صحَّحه الألباني في السلسلة الصحيحة. حديث رقم (٢٣٤٣).

خبيرًا؛ تَرَكها وانفرد يبني مستقبله. كلمة مُرَّة يجب أن يتقبلها الدُّعاة؛ فإنَّ كَتِفَ الدعوة يَئِنُّ لكثرة الذين حمَّلَهم وتنكَّروا له! فاعقدوا العزم على الوفاء لهذه الدعوة المباركة أيها الإخوة، واجعلوا الشهادة العالية أو التجارة أو المنصب في خدمة الدعوة لا للصِّيت»[1].

وأخيرًا: إننا -في هذه الدُّنيا- في صراعٍ عَقَدِيٍّ بامتياز؛ فوَجَب الحِرْص على جودة قنواتنا ووسائلنا التي نَجْتَذِب بها الناس إلى مُعسكَرنا؛ لأننا إذا قصَّرنا ذهبوا للمُعسكَرات الأخرى التي تعادي الإسلام؛ وقد صَدَقَ سيد قطب رحمه الله حين قال: «الجاهلية المُنظَّمة لا يهزمها سوى إسلام مُنظَّم»؛ فالوسائل الجاهلية المحترفة لا تهزمها إلا وسائل إسلامية ذات جودة عالية ومحترفة أيضًا.

---

(١) محمد أحمد الراشد. **المسار**. ص٢٤٦، ٢٤٧.



٩- تحديات العمل النسائي الدعوي

بمنطق الشراكة الفطرية التي أوجدَها اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بين الذَّكَر والأنثى في الكون، وعموم رسالة الإسلام التي جاءت لكل البشر -ذُكُورًا وإناثًا-؛ فإنه قد حَرِصَتْ كل الكِيَانات الدعوية -على تنوُّع توجُّهاتها- على وجود ذراعٍ دعويٍّ نسائي مُوازٍ؛ ليُدير داخلها الأنشطة النسائية، ويعمل على إصلاح شريك الإنسانية وتمكينه من صناعة دورٍ نَهْضَوِيٍّ وشرعيٍّ مناسب لطبيعته البشرية؛ فهو القائل سبحانه: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾[1]؛ فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ يَشْمَل الذَّكَر والأنثى. وأيضًا قال عَزَّ وَجَلَّ في خطابٍ مباشرٍ: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾[2]؛ فقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ﴾ يَشْمَل «ذُكُورهم وإناثهم»[3]. وليس

---

(١) يوسف: ١٠٨.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) عبد الرحمن بن ناصر السعدي. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**. ص ٣٤٣.

من العقل إلغاء دور المرأة في الدعوة والإصلاح والتربية؛ فهي «مُرَبِّية أجيالٍ، وصانعة أبطالٍ، ورائدة دعوةٍ، وعُنْصُر وَعْيٍ ونهضةٍ وبناءٍ في شَتَّى شئون الحياة، تقف إلى جانب الرَّجُل في إعمار الكون، وإثراء الحياة، وإسعاد الوجود، وترطيب جفاف العيش»[١].

فالحاجة ماسَّة للدعوة والتربية في مجتمعات النساء؛ حيث إن المرأة أقْدَر على البيان والدعوة والتوجيه داخل الأوساط النسائية؛ نظرًا لتجانُس الظروف والتكاليف الشرعية والحياتية، وتشابُه الجنس. ولكن نظرًا للطبيعة الفطرية للمرأة، وطبيعة الأعباء التي عليها، وقيود العُرْف والشرع المُغايِرة لشريكها (الرَّجُل)؛ فقد طَرَأتْ بعض التحديات على الكِيَانات الدعوية النسائية؛ ومنها:

ارتباك الأولويات:

من إشكاليات العمل الدعوي النسائي؛ ارتباكُ الأولويات وتقديمُ المُسْتَحَبات من الأعمال على الواجبات؛ بسبب المُوازَنة بين أعباء الأسرة وأعباء الدعوة؛ فعلى سبيل المثال: تُهمِل إحداهنَّ تربيةَ أبنائها أو رعايةَ زوجها مقابل البَذْل الدعوي مع الكِيَان الذي تنتمي إليه؛ مما يُؤدِّي إلى اختلالٍ في ميزان أولوياتها، ومما يَعُود عليها بالضرر في دُنياها ودِينها، فليس من الحَصَافة الاهتمام بالكماليات مع أنَّ البناء الرئيس مُتهالِك!

العمل الدعوي عمل جليل، ويترتب عليه الكثير من الخير والثواب والنفع، لكن حينما يقع في ميزانٍ واحدٍ مع مسئوليات الأسرة والبيت؛ تُرجَّح كِفَّة الأسرة؛

---

(١) محمد علي الهاشمي. **شخصية المرأة المسلمة**. دار البشائر الإسلامية، بيروت. ب.ط. ١٩٩٤م.

لأنَّ العمل الدعوي بالنسبة للمرأة يُعَدُّ عملًا مفضولًا، فواجبات الأسرة -سواء للرَّجُل أو المرأة- هي أولوية، ومنها ما يرقى إلى الفريضة؛ أيْ إنَّ المُقصِّر فيها سيُحاسَب أمام الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾[1]، وأكَّد على تلك الفريضة والأولوية حديث النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالأَمِيرُ رَاعٍ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَوَلَدِهِ؛ فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[2]. أَضِف إلى ذلك أنَّ المرأة لها خصوصية في مسألة تربية الأبناء؛ فمساحتها في التربية الأُسَرية أوسع من مساحة الرَّجُل؛ لقيامها بالحَمْل والولادة والرضاعة والحضانة؛ مما يجعلها أكثر التصاقًا بالأبناء؛ مما يزيد من تَبِعَة مسئوليتها في التربية الأُسَرية.

فإذا لم يتَّسِع وقت المرأة الداعية لبيتها وللكِيَان الدعوي معًا، واختارت بيتها؛ فهي الحَصَافة بعينها؛ لأنها قدَّمَت الفَرْض على المُسْتَحَب، فمن الممكن أن يُجْبَر غياب المرأة الداعية في الكِيَان الدعوي عبر أيِّ زميلةٍ أخرى -ظروفها الحياتية أنسب-، لكنها إذا غابت عن الأسرة فمَن سيُعوِّض غيابها؟!

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس العاقل الذي يَعْلَم الخيرَ من الشرِّ؛ وإنما العاقل الذي يَعْلَم خَيرَ الخيرَيْن وشرَّ الشرَّيْن»[3]؛ أي: يُحْسِن المُفاضَلة بين المصالح إذا كَثُرَت أمامه، وبين المفاسد إذا كَثُرَت عليه وأُجبِر على فِعْلها، فالمرأة الداعية

---

(١) التحريم: ٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**. تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة. ب.ط. ١٤١٦هـ. ٢٠/ ٥٤.

الفَطِنة هي التي تُجِيد ترتيب أعبائها، ولا تقدِّم فاضلًا على مَفضولٍ ولا مُسْتَحَبًّا على واجبٍ.

أمَّا مسألة طاعة الزوج؛ فهي داخلة ضمن إطار الواجبات الأُسَرية المُكلَّفة بها المرأة؛ لأنَّ طاعة الزوج مُقدَّمة (واجبة) -ما لم يَأْمُر زوجته بمعصية-؛ لقوله ﷻ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[1]، وقال النبيُّ ﷺ: «إِذَا صَلَّتِ المرأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا؛ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ»[2]؛ فكل تلك الأدلة -وغيرها- مُباشِرة وقطعية على وجوب طاعة الزوج -في غير معصية-، وبالقياس على حديث النبيِّ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوْجُهَا شَاهِدٌ[3] إِلاَّ بِإِذْنِهِ...»[4]؛ فلا يجوز للمرأة أن تصوم النافلة أو القضاء -إذا كان القضاء مُوسَّعًا- دون إذن زوجها؛ لأنَّ صيام النافلة والقضاء المُوسَّع من المُسْتَحَبات، بينما حق الزوج من المفروضات؛ وبالقياس فإنَّ العمل الدعوي (المُسْتَحَب) لا يجوز تقديمه على طاعة الزوج (الفَرْض)، ولَسْنَا هنا في مقام نُصْح الرَّجُل بالسماح لزوجته بالخروج للدعوة أو التحمُّل والصبر معها، فهذا له مقام آخر.

وقد تَجِدُ المرأةُ بديلًا إذا لم تستطع الخروج لضيق وقتها وكَثْرة مسئولياتها الأُسَرية؛ عبر استثمار التقنية الرقمية بعَقْد لقاءاتٍ عن بُعد من خلال البرامج المتاحة -وما أكثرها اليوم-؛ وبهذا تكون قد سدَّدَت وقارَبَت.

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) حسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب. حديث رقم (١٩٣٢).

(٣) أي: ما دام حاضرًا، وليس مسافرًا ولا غائبًا.

(٤) رواه البخاري. باب: لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه. حديث رقم (٥١٩٥).

كوادر غير مؤهَّلة:

من التحديات التي تواجه الكِيَانات الدعوية النسائية؛ ضَعْفُ مستوى المُتصدِّرات من الكوادر؛ مما كان له أثر سلبي على الأداء الدعوي داخل الكِيَانات النسائية؛ من ضَعْفِ جودة المُخرَجات، وانتشار المشكلات، والشِّقَاق داخل الكِيَانات.

تَكْمُن الإشكالية في طريقة اختيار الكوادر؛ فأغلب الكادر النسائي يُختار على أساس الثقة فقط مع تجاهُل الكفاءة، فتُختار فلانة لمجرد أنها زوجة القيادي الفلاني، أو أنها أُخْتُ فلانٍ الموثوق به! وهذا كله خير بشرط اقترانه بالكفاءة؛ مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾[1]، أو أنه تم اختيارها وفق أُسُس وضوابط، لكن غُضَّ الطرف عن تطويرها ومتابعتها بعد ذلك.

العمل الدعوي النسائي عمل حسَّاس لصلته الوطيدة برُوَّاده من الإناث، وهم أعمدة البيوت وقِوَامها؛ وقد صَدَقَ عبد الحميد بن بَادِيس رحمه الله في قوله الشهير: «إذا علَّمتَ ولدًا فقد علَّمتَ فردًا، وإذا علَّمتَ بنتًا فقد علَّمتَ أُمةً»، وإذا لم تكن المرأة الداعية ذات كفاءةٍ شرعيةٍ وحياتيةٍ وقادرةٍ على التوجيه الكَيِّس لتلاميذها؛ فسيكُون أَثَرها شبيهًا بعمليةِ تخريبٍ هَرَميٍّ! فَهَبْ أنَّ كادرًا نسائيًّا بخبرةٍ حياتيةٍ قليلةٍ تجلس في لقاءٍ مع بناتٍ صغيراتٍ تَنْقُل إليهنَّ خبراتٍ حياتيةٍ مَغلوطةٍ وتصوُّراتٍ مُشوَّهةٍ عن الزواج، ثم تنتقل بهنَّ إلى لقاءٍ شرعيٍّ تُعَلِّمهنَّ معلوماتٍ بها الكثير من الأخطاء؛ فتُضَيِّق واسعًا، أو تُوَسِّع ضَيِّقًا، أو تُحِلُّ حرامًا، أو تُحَرِّم حلالًا؛ وقِسْ على ذلك الكثير من الأمور.

---

(١) القصص: ٢٦.

ودواء ذلك كله؛ هو إدراكُ الكِيَان خطورةَ تصدير مثل هذه الكوادر التي تَبْنِي وتُشَيِّد -ظاهريًّا- لكنها تَهْدِم وتُخَرِّب -فِعْليًّا-! ودواء ذلك أيضًا هو إنزالُ قواعد الشرع عند تصدير الكفاءات، عبر تطبيق شرط القوة (الكفاءة) والأمانة (الثقة)، وتَذَكُّر تحذير النبيِّ ﷺ: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ؛ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[(١)].

إهمال المهارات الحياتية:

الوظيفة الأساسية للتربية هي إعداد الفرد للحياة، سواء من خلال إكسابه مهارات وعلوم جديدة أو تقويم لسلوكه، وتُعَدُّ المهارات الحياتية مهارات أساسية لا غِنى عنها لكل فرد؛ للتكيُّف مع الحياة بشكلٍ أكثر نجاحًا، وتَأْدِيَة الدور بشكلٍ فعَّالٍ وناجحٍ في الأسرة والمجتمع.

والمهارات الحياتية تتنوَّع وفقًا لجنس المُتلقِّي؛ فالإناث لهنَّ ما يناسب أعباءهنَّ ومسئولياتهنَّ المستقبلية، وللذُّكُور ما يناسبهم أيضًا؛ وقد قال الله ﷻ في وَصْف الأنثى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾[(٢)]؛ وفي الآية بيان بأنَّ طبيعة الأنثى تختلف عن طبيعة الذَّكَر في النشأة والمسئوليات؛ وعليه يترتب تخصيص المهارات الحياتية المُقدَّمة.

والمهارات الحياتية المُقدَّمة في الكِيَانات الدعوية النسائية تعاني من الشُّح؛ بسبب حَصْر اهتمام المحاضن الدعوية بالعلوم الشرعية فقط، ولا عيب في الاهتمام بالعِلْم الشرعي وتقديمه، لكن التربية السليمة لا بُدَّ أن تكون مُتكامِلة،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) الزخرف: ١٨.

وتهتم بتهيئة الفرد بشكلٍ ناجحٍ في محيطه الأُسَري والمجتمعي؛ لذلك لا بُدَّ من المُوازَنة بين تدريس تلك المهارات بجانب العلوم الشرعية.

ومن المُؤسِف أن تَجِدَ الكِيَانات غير المُسْلِمة تهتم اهتمامًا بالغًا بتدريس تلك المهارات، ونحن على الشاطئ الآخَر منهم! ففي الكنيسة يَعْقِدون دوراتٍ لتعليم المهارات الحياتية؛ مثل: (فنون الطبخ - فنون الآداب السلوكية - الديكور - تدبير نفقات المنزل - فنون تربية الأبناء - الإسعافات الأولية - دورات التأهيل للزواج - دورات التقنية)، وغيرها من الدورات النافعة الحاوية لمهارات الحياة؛ كل هذا مُوجَّه لفئة الإناث، فنحن أَوْلَى منهم بتعليم تلك المهارات في محاضننا، للمُوازَنة بين العلوم الشرعية والمهارات الحياتية النافعة، لا سيَّما عند فئة الإناث لطبيعة أعبائهنَّ الحياتية، فكما نريد الاهتمام بالبناء الشرعي للمرأة الداعية، يجب أيضًا أن يتكامل بناؤها بما يُكلِّل حياتها الشخصية بالنجاح؛ فالتربية الإسلامية تربية شاملة مُتكامِلة، ليست تربيةً لاهُوتِيَّةً تُرَكِّز على الجوانب الدِّينية فقط -وإن استدعى الظرفُ البيئي والزماني والمكاني التركيزَ على العلوم الشرعية-.

الطبيعة النفسية للمرأة:

قلَّما تَجِدُ كِيَانًا مؤسسيًّا خاليًا من الشِّقَاق والنِّزاع؛ وذلك يرجع لطبيعة البشر الذين جُبِلوا على الاختلاف والجِدَال والتفاوت في الأذواق والآراء، وهي سُنة كونية سَنَّها الله ﷻ بين عباده؛ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾[1]. وقد تظهر تلك المشكلات في الكِيَانات النسائية

---

(١) هود: ١١٨، ١١٩.

بشكلٍ مُضاعَف أكثر من الكيَانات الأخرى؛ بسبب خِلْقة النساء التي تميل إلى تغليب العاطفة في كثيرٍ من علاقتها ومشكلاتها، وأحيانًا تكون هناك اعتبارات أخرى نفسية وعاطفية داخل عقولهنَّ وقلوبهنَّ غير مُترجَمة لشعور، بل تُترجَم لسُلُوكيات لا يستطيع الرَّجُل استيعابها أو إدراكها. وقد تُؤدِّي تلك السلبيات إلى إفساد صَفْو الكِيَان الدعوي؛ عبر تكوين التكتُّلات، وضَعْف التنسيق -أحيانًا- أو انعدامه بين أعضاء الكِيَان؛ مما يكون له أثر سلبي على نِتَاج الكِيَان ككل؛ فنتيجة الاختلاف والتنازُع مَحتومة كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[1].

وعلاج ذلك من خلال: إحكام الكِيَان بلوائح وقِيَم تضبط العلاقات بين عناصره (المُعلِّمات والطالبات)؛ بحيث لا تَسْنَح الفرصةُ لتلك الإشكاليات النفسية التي تُسبِّب الشِّقَاق والنِّزاع بين عناصر الكِيَان. كما أنَّ ضَبْط النية من المُعِينات على التغلُّب على تلك الإشكاليات النفسية؛ فالاجتهاد في ضَبْط النية أشبه بعملية «إعادة ضَبْط المَصنَع» التي تَحدُث في الهواتف المحمولة لتُعِيده إلى نفس النظام الذي أُنشئ به قبل دخول أيِّ تعديلات عليه من قِبَل مُستخدِمه.

وضَبْط النية ليس أمرًا مُهِمًّا للداعيات فحَسْب، بل لكل عاملٍ في الدعوة؛ فَمَعَ مرور الوقت داخل الكِيَان قد تنحرف النوايا، وتتغيَّر المقاصد، وينقاد القلب إلى الهوى الذي يُضلِّله عن طريق الإخلاص وضَبْط نيته، وقد رَبَط القرآن الكريم بين «قسوة القلب ونسيان المَقاصِد» و«طول الأَمَد»؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[2]؛ وفي تفسير

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) الحديد: ١٦.

هذه الآية يقول صاحب الظلال رحمه الله: «إنَّ هذا القلب البشري سريع التقلُّب، سريع النسيان، وهو يشفُّ ويشرق؛ فيفيض بالنور ويرفُّ كالشعاع؛ فإذا طال عليه الأَمَد بلا تذكير ولا تذكُّر؛ تبلَّد وقسا وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم! فلا بُدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع، ولا بُدَّ من الطَّرقِ عليه حتى يرقَّ ويشفَّ؛ ولا بُدَّ من اليقظة الدائمة كي لا يصيبه التبلُّد والقساوة»[1].

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ٦/ ٣٤٨٩.

١٠ - التربية على القول الواحد

آفةٌ تربويةٌ وعلميةٌ تربَّى عليها أغلب أبناء التيار الإسلامي، يتوارثها الإسلاميون جيلًا بعد جيل، شَقَّت أخاديد الخلاف بين الدُّعاة والكِيَانات الدعوية، وأَجَّجَت نار معارك التفسيق والتبديع بين أبناء التيار عامةً؛ ألا وهي آفة «التربية على القول الواحد».

فبعض الكِيَانات الدعوية تَتبنَّى رأيًا فقهيًّا مُعيَّنًا وتُلقِّنه لأبنائها دون التوضيح بأنه رأي يَسُوغ فيه الخلاف؛ مما يترتب على ذلك تَبنِّي الأتباع للرأي الفقهي دون إحاطةٍ كاملةٍ بالآراء الأخرى في المسألة؛ فيتعصَّب الطالب لذلك الرأي، بل يرى كلَّ مَن على غير رأيه مُبتدِعًا وعلى ضلالةٍ وغير مُتَّبِع لسُنة النبي ﷺ، ولا سيَّما أنَّ المُحرِّك لذلك التعصُّب هو الدافعُ العَقَدِيُّ الذي لا يقبل الغَبَش داخل ذهن المُعتقِد. والأمثلة على ذلك كثيرة ولا تُحصى؛ منها: (حُكم الصلاة بالنِّعَال – قضية النِّقاب – مسألة التسبيح باليد اليُمنى فقط أو بكلتا اليدَيْن – عدد ركعات صلاة التراويح – مسألة جَهْر المُصلِّي بالذِّكْر بعد الصلاة أو لا – قضية دخول الأطفالِ المساجدَ – حُكم الأخذ اللحية – حُكم الإسبال)، وما شابَهَها من الخلافات التي استنزَفَت طاقة العاملين بالدعوة!

وقد أَوْرَدَ صِدِّيق حَسَن خان رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا عن إنكار الناس بعضهم على بعضٍ في كثيرٍ من سُنَن الصلاة المُختَلَف فيها وفي هيئتها، ولم يَرِد فيها نَصٌّ قطعيٌّ يُحدِّدها؛ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الغرائب أنَّها صارَتْ في هذه الدِّيار وفي هذه الأعصار عند العامة ومَن يُشابههم ممَّن يظنُّ أنه قد ارتفع عن طَبَقتهم[1]؛ من أعظم المنكرات، حتَّى إنَّ المُتمسِّك بها يصير في اعتقادِ كثيرٍ في عِدَاد الخارجين عن الدِّين! فترى الأخ يُعادي أخاه، والوالد يفارق ولده إذا رآه يفعل واحدةً منها[2]، وكأنه صار مُتمسكًا بدِينٍ آخَر، ومُنتقِّلًا إلى شريعةٍ غير الشريعة التي كان عليها! ولو رآه يزني، أو يشرب الخمر، أو يقتل النَّفس، أو يَعُقُّ أَحَد أَبَوَيْه، أو يشهد الزُّور؛ لم يَجْرِ بينه وبينه من العداوة ما يجري بينه وبينه بسبب التمسُّك بهذه السُّنَن أو ببعضها!»[3].

إشكاليةُ «التربية على القول الواحد» إشكاليةٌ مُرَكَّبة؛ لأنها عبارة عن (تعصُّبٍ لرأيٍ فقهيٍّ، جَهْلٍ بالآراء الأخرى)، فهي درجة أشد من التعصُّب؛ لأنها تُحوِّل الخلافَ الفقهيَّ إلى خلافٍ عَقَديٍّ؛ فيرى صاحبُ القول الواحد مَن يخالفه مُبتدِعًا وعلى ضلالةٍ وغير مُتَّبِعٍ لسُنة النبي ﷺ.

من إشكاليات "التربية على القول الواحد":

الانشغال عن الكليات:

من آفات «التربية على القول الواحد»؛ الانشغالُ بالجزئيات (وهي: جدالات

---

(١) «ممَّن يظنُّ أنه قد ارتفع عن طَبَقتهم»: يقصد مَن يطلبون العِلْم ويتكبرون على الناس به، ويظنون أنفسهم بهذا العِلْم أنهم أفضل من الناس؛ وبالتالي يستنكرون عليهم أيَّ مسألة يخالفونهم فيها؛ تعالُمًا وتعالِيًا عليهم.

(٢) أي: من هذه السُّنَن التي يفعلونها بهيئةٍ مُخالِفةٍ لمذهبهم.

(٣) صديق حسن خان. **الروضة الندية شرح الدرر البهية**. دار الأرقم، برمينجهام. ط٢، ١٤١٣هـ. ١/ ٢٦٦. باختصار يسير.

في الخلافات السائغة) عن الكليات (وهي: هموم الأمة الإسلامية الكبرى)، فلو رتَّبْنا أمور الأمة وفقًا لأهميتها؛ ففي أيِّ مَرتبة ستقع تلك الجدالات بالنسبة لِهَمِّ أُمة الإسلام ومشكلاتها الكبرى؟! بلا شك سيَفْصِل بينها وبين الهموم الكبرى آلاف المراتب، وذلك بافتراض أنها مشكلة من الأساس! لأنَّ الأمر هو جدال في خلاف سائغ تَحوَّل إلى مشكلة في ذهنِ طالبٍ بسبب تَلَقِّيه إياه بشكل خاطئ؛ حيث أَفْهَمُوه أنَّ المسألة فيها رأي واحد فقط، ومَن يأتي لك بأقوال أخرى فهو مُبتدِع وعلى ضلالة!

من أكبر مساوئ تلك الإشكالية استنزاف طاقة الأفراد العاملين في الدعوة في الجدال والمعارك الكلامية، بدلًا من أن تُوَجَّه للهموم الكبرى التي تحتاج إلى تلك الطاقات! ودَرْءًا لتلك الإشكالية؛ فقد قَعَّدَ لنا أهلُ العِلْم قاعدة «تقديم خَيْرِ الخيرَيْن، وتأخير شَرِّ الشرَّيْن»؛ قال ابن تيمية رحمه الله: «ليس العاقل الذي يَعْلَم الخيرَ من الشرِّ؛ وإنما العاقل الذي يَعْلَم خَيْرَ الخيرَيْن وشرَّ الشرَّيْن»[١]؛ والمعنى هو: تقديم الخيرِ ذي المَرتبة العُليا على الخيرِ ذي المَرتبة الدُّنيا، وتأخير الشرِّ ذي المَرتبة العُليا عن الشرِّ ذي المَرتبة الدُّنيا. وللأسف كثير من العاملين في حقل الدعوة لا ينتبهون إلى أهمية هذه المُفاضَلة، فيُقدِّمون المفضول على الفاضل! وهذا يَحدُث عند تزاحُم -أو تعارُض- المصالح والمفاسد؛ وفي ذلك أيضًا يقول السعدي رحمه الله في منظومته:

الدِّينُ مَبْنِيٌّ عَلَى المَصَالِحِ — في جَلْبِها وَالدَّرْءِ للقَبائِحِ
فَإِنْ تَزَاحَمْ عَدَدُ المَصَالِحِ — يُقَدَّمُ الأَعْلَى مِن المَصَالِحِ

---

(١) ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**. تحقيق: عبد الرحمن محمد قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة. ب.ط. ١٤١٦هـ. ٢٠/ ٥٤.

وَضِـدُّهُ تَزَاحُـمُ المَفَاسِـدِ يُرْتَكَبُ الأَدْنَى مِن المَفَاسِدِ[١]

«وقد أَخَذَ التعصُّب المَذهَبي من أهل العِلْم -على اختلاف طوائفهم- أوقاتًا عزيزةً كثيرةً وجهودًا مُضْنِيَةً عظيمةً أَمْضوها في خدمة الفقه المَذهَبي المُتعصِّب؛ انتصارًا له وردًّا على مُخالِفيه، فأَغْرَقهم في جزئياته وفَوَّت عليهم الاهتمام بإقامة كليات الدِّين ومقاصده السامية الكبرى؛ كالأُخُوة، والعدل، واجتماع الكلمة، والتعاون على البِر والتقوى، ونَشْر الإسلام بين غير المسلمين!»[٢].

«ولكي يتَّزن الطَّرْح؛ فإنَّ الاهتمام بهذه المسائل لا حَرَج فيه، وإعطاءها حقها مطلوب. الشيء الذي نعترض عليه هو أن تصبح هذه القضايا جُلَّ هَمِّنا بل كُلَّ هَمِّنا، ومدار حديثنا، وملء مَجالسنا بل ملء قلوبنا وعقولنا! إلى متى نَظَل نَدُور ثم نَدُور ثم نَدُور في مثل هذه القضايا ونترك القضايا الكبرى، وقضايا الاعتقاد، وقضايا الواقع، وقضايا التخلُّف العِلْمي، والتخلُّف التقني، والتخلُّف الاقتصادي، قضايا البحث عن موطئ قَدَمٍ لهذه الأمة الإسلامية؟! إلى متى تَظَل هذه القضايا مُهدَرة ونحن نشتغل بغيرها من هذه القضايا الجزئية الفرعية؟!»[٣].

قَطْع أَوَاصِر التعاون بين الكِيَانات:

من إشكاليات «التربية على القول الواحد»؛ تَحوُّل الخلاف من خلافٍ فقهيٍّ

---

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي. **القواعد الفقهية (المنظومة وشرحها)**. وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المملكة العربية السعودية. ط١. ١٤٢٨هـ. ص١١٤، ١١٨، ١٢١.

(٢) خالد كبير علال. **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي**. دار المحتسب، عمَّان. ب.ط. ١٤٢٩هـ. ص١٦٠.

(٣) سلمان العودة. **محاضرة بعنوان «الإغراق في الجزئيات»**. بتصرف.

إلى خلافٍ عَقَدِّي؛ لأن القول المُعتمَد عند مُتبَنِّيه في المسائل السائغة يراه سبيل الاتباع الوحيد للكتاب والسُّنة، وما غايَرَه يكُون عَكْسَ ذلك وبدعةً وضلالةً! وقد وَصَفَ ابن قيم الجوزية رحمه الله ذلك الإشكال؛ فقال: «نَصَبوا لمَن خالَفَهم في طريقتهم الحَبَائِل، وبَغَوْا له الغَوَائِل، ورمَوْه عن قَوْس الجهل والبَغْي والعناد، وقالوا لإخوانهم: إنا نخاف أن يبدِّل دينكم أو أن يُظْهِر في الأرض الفساد»[1]! فما بالك بالتعصُّب المصحوب بالجهل؟!

وقد عانَت أُمة الإسلام من تلك الظاهرة أحقابًا؛ فمثلًا «مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة؛ اختلف فيها الفقهاء وتضارَبَتْ حولها الروايات؛ فمنهم مَن قال بالجهرِ بها في الصلاة، ومنهم مَن قال بالسرِّ بها في الصلاة؛ فأحدَثَ ذلك تعصُّبًا مَذهَبيًّا بين السُّنِّيِّين؛ ومن ذلك أنَّ جماعةً من الحنابلة ببغداد أحدَثوا فتنةً في المجتمع عام (٣٢٣هـ)، عندما اعترضوا على كل ما يرونه مُخالِفًا للشرع -وفقًا لمَذهَبهم-، كاعتراضهم على مَن يجهر بالبسملة في الصلاة؛ الأمر استدعى تدخُّل الشرطة ضِدَّهم، فأمَرَت بألَّا يُصلِّي حنبليٌّ بالناس إلا إذا جَهَر بالبسملة في صلاتَي الصبح والعشاء، فلم يرتدع الحنابلة واستمروا في عُنْفهم ومُشاغَباتهم تجاه الشافعية، ولم يُوقفوا ذلك إلا بعدما أصدَرَ الخليفةُ «الراضي بالله»[2] توقيعًا عنيفًا زَجَرهم فيه، وهدَّدهم بالقتل، والتنكيل، والتشريد، وحَرْق البيوت»[3].

«والأعجب من ذلك ما حدث في المسجد الأموي بدمشق من وجود

---

(١) ابن قيم الجوزية. **إعلام الموقعين عن رب العالمين**. تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١١هـ. ١/ ٦، ٧.

(٢) من خلفاء الدولة العباسية، كانت فترة ولايته (٣٢٢هـ - ٣٢٩هـ).

(٣) خالد كبير علال. **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي**. ص٨٧، ٨٨.

أربعة محاريب؛ محراب لكل مذهب من المذاهب الأربعة (الحنفي، المالكي، الشافعي، الحنبلي)؛ حيث تُصلِّي كل جماعةِ مذهبٍ في محرابها ولا تُصلِّي في المحاريب الأخرى! وهذه المحاريب ما زالت موجودةً في الجامع الأموي إلى يومنا هذا كشواهد تاريخية!»[١].

وبتطبيق ذلك على الكِيَانات الدعوية العاملة للدِّين؛ فإنه سيئول بهم إلى نفس المصير الذي آلَ بالسابقين؛ وهو مصير الفُرقة وتحويل الخلاف المَذهَبي إلى خلاف عَقَدي، وهو ما يَقْطَع الأَواصِر وسُبُل التعاون، ويقف حائلًا أمام أيِّ مشروعٍ للتكامُل بين الفصائل العاملة تحت لواء الدِّين؛ فيتحوَّل الأمر من اختلافِ تكامُلٍ وتعاوُنٍ وتَآزُرٍ إلى اختلافِ تباغُضٍ وتنابُذٍ وتناحُرٍ.

تأمَّلْ هذا السؤال وهذه الإجابة البَديعة التي تَحمِل في طَيَّاتها وَسَطية الإسلام: «**سُئِلَ ابن تيمية** رحمه الله **عن أهل المذاهب الأربعة**: هل تَصِحُّ صلاةُ بَعْضِهِم خَلْفَ بَعْضٍ أم لا؟ وهل قال أَحَدٌ من السَّلَف إنه لا يُصلِّي بَعْضُهم خَلْفَ بَعْضٍ؟ ومَن قال ذلك فهل هو مُبتَدِع أم لا؟ وإذا فَعَلَ الإمَامُ ما يَعْتَقِدُ أنَّ صلاته معه صحيحة والمأموم يَعْتَقِدُ خِلَافَ ذلك؛ كإمامٍ رَعَفَ[٢] أو احْتَجَمَ أو أَكَلَ لَحْم الإبل وَصَلَّى ولم يتوضأ، والمأموم يَعْتَقِد وُجُوب الوضوء من كل ذلك. وإذا شُرِطَ في إمام المسجد أن يكُون على مَذهَبٍ مُعَيَّنٍ، وكان غَيْرُه أَعْلَمَ بالقرآن والسُّنة منه ووُلِّيَ؛ فهل يجوز ذلك؟ وهل تَصِحُّ الصلاةُ خَلْفَهُ أم لا؟

فأجاب رحمه الله **قائلًا**: نَعَمْ، تَجُوز صلاةُ بَعْضِهِم خَلْفَ بَعْضٍ كما كان الصحابة

---

(١) فتحي حسين ملكاوي. **التراث التربوي الإسلامي**. مركز معرفة الإنسان للدراسات والأبحاث والنشر والتوزيع، عمَّان. ط١، ١٤٣٩هـ. ص٤١٧. بتصرف.

(٢) أي: سال الدم من أنفه.

والتابعون ومَن بَعْدَهُم من الأئمة الأربعة يُصَلِّي بَعْضُهُم خَلْفَ بَعْضٍ مع تَنَازُعِهِم في هذه المَسائِل المذكورة وغيرها. ولَم يَقُلْ أَحَدٌ من السَّلَف إنه لا يُصَلِّي بَعْضُهُم خَلْفَ بَعْضٍ، ومَن أَنْكَرَ ذلك فهو مُبتَدِعٌ ضالٌّ مُخالِفٌ للكتاب والسُّنة وإجماع سَلَف الأُمة وأئمتها. وقد كان الصحابة والتابعون ومَن بعدهم؛ منهم مَن يقرأ البسملة ومنهم مَن لا يقرأها، ومنهم مَن يَجْهَر بها ومنهم مَن لا يَجْهَر بها، ومنهم مَن يَقْنُت في الفجر ومنهم مَن لا يَقْنُت، ومنهم مَن يتوضأ من الحجامة والرُّعَاف والقَيْء وأَكْل لَحْم الإبل ومنهم مَن لا يتوضأ من ذلك. ومع هذا كان بعضهم يُصَلِّي خَلْفَ بَعْضٍ؛ مثل ما كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرأون البسملة لا سِرًّا ولا جَهْرًا. وصلَّى أبو يوسف خَلْف الرشيد وقد احتَجَمَ -وأفتاه مالكٌ بأنه لا يتوضأ-؛ فصلَّى خلفه أبو يوسف ولم يُعِد. وكان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الحجامة والرُّعَاف؛ فقيل له: فإن كان الإمام قد خَرَج منه الدَّمُ ولم يتوضأ؛ تُصَلِّي خَلْفَه؟ فقال: كيف لا أُصَلِّي خَلْفَ سعيد بن المُسَيِّب ومالكٍ؟!»[1].

«ومن آثار التعصُّب المَذهَبي؛ ضَعْفُ رِباط الأُخُوة الإسلامية القائم على الدِّين، وحلول التعصُّب المَذهَبي محله كرباط يجمع أبناء الطائفة الواحدة، ويباعد بينهم وبين أبناء الطوائف الأخرى، كما يؤدى إلى تكريس التعصُّب والشِّقاق، والتنافُر والتناحُر، واختصاص كل طائفة بمساجدها ومدارسها وطلابها وأساتذتها وأحيائها السكنية!»[2].

ويقول ابن تيمية رَحِمَهُ الله مُبيِّنًا الفساد الذي يُسبِّبه التقليد الأعمى والتعصُّب

---

(١) ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**. ٢٣/ ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٥. باختصار.

(٢) خالد كبير علال. **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي**. ص١٥٨، ١٥٩.

المذموم: «التفرُّق والاختلاف المُخالِف للاجتماع والائتلاف حتى يَصِير بعضُهم يُبْغِضُ بعضًا ويُعَادِيه، ويُحِبُّ بعضًا ويواليه على غير ذات الله ﷻ، وحتى يُفْضِي الأمرُ ببعضهم إلى الطَّعْن والهَمْز واللَّمْز، وببعضهم إلى الاقتتال بالأيدي والسلاح، وببعضهم إلى المُهاجَرة والمُقاطَعة حتى لا يُصلِّي بعضُهم خَلْف بعض؛ وهذا كله من أعظم الأمور التي حرَّمها الله ورسوله، والاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله. وكثير من هؤلاء يَصِير من أهل البدعة بخروجه عن السُّنة التي شَرَعها رسولُ الله ﷺ لأُمته، ومن أهل الفُرقة بالفُرقة المُخالِفة للجماعة التي أَمَر اللهُ بها رسولَه»[(١)].

وقد حذَّر اللهُ ﷻ من ذلك التنازُع المُؤدِّي إلى الفُرقة والفشل؛ فقال: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾[(٢)]؛ قال مجاهد رحمه الله: «أي: نَصْركم، وذَهَبَت ريحُ أصحاب رسول الله ﷺ حين نازعوه يوم أُحُد»[(٣)]، وهي نتيجة حتمية لاختلافٍ حُمِّلَ فوق ما يَحتَمِل، وحوَّله المُتعصِّبون إلى خلافٍ عَقَدِيٍّ فنَصَبوا عليه ميزان الولاء والبراء، وهو -في الأصل- خلاف سائغ قائم على اجتهادٍ في مسألةٍ فقهيةٍ تَسَامَحَ مَن اجتهدوا فيها مع بعضهم بعضًا، ولم يقصدوا باجتهادهم الوصول إلى تلك الفُرقة!

الصِّدَام مع المحيط الاجتماعي:

قد يكون الفرد المُتبَنِّي رأيًا فقهيًّا واحدًا في مسألة ما يعيش في مجتمعٍ يَتبنَّى رأيًا فقهيًّا مُغايِرًا؛ فيترتب على ذلك صِدَام مع محيط الفرد الاجتماعي -من

---

(١) ابن تيمية. **مجموع الفتاوى**. ٢٢/ ٣٥٧، ٣٥٨. باختصار.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) ابن جرير الطبري. **جامع البيان في تأويل القرآن**. ١٣/ ٥٧٦.

أسرة أو عائلة أو أصدقاء- في مسائل فقهية ساغَ فيها الخلاف؛ حيث يظن الفرد المُتَرَبِّي على القول الواحد أنه يدافع عن أصلٍ من أصول الدِّين، وفي الحقيقة هو يدافع عن رأيٍ لمَذهَبٍ فقهيٍّ، أو بمعنى آخَر: يدافع عن اجتهادٍ بشريٍّ في استنباطِ حُكمٍ شرعيٍّ في مسألة ما!

وهذا الصِّدَام -في الأغلب- يكون له أثر سلبي على دعوة الأفراد؛ لِما يُسبِّبه من جِدَال وتعصُّب كل فَرْد لما يتبنَّاه من أقوال، والدعوة إلى الله ﷻ لا تَقْبَل تلك السُّلُوكيات المُنَفِّرة؛ فالدعوة تحتاج إلى لِينِ الجانِبِ وسهولةِ الكلامِ؛ «فالناس في حاجةٍ إلى كَنَفٍ رحيمٍ، وإلى رعايةٍ فائقةٍ، وإلى بَشَاشةٍ سمحةٍ، وإلى ودٍّ يَسَعهم، وحِلْمٍ لا يَضِيق بجَهْلهم وضَعْفهم ونَقْصهم، في حاجةٍ إلى قلبٍ كبيرٍ يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويَحمِل همومهم ولا يَعْنِيهم بِهَمِّه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمامَ والرعايةَ والعطفَ والسماحةَ والودَّ والرِّضاءَ؛ وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس»[(١)].

قال يونسُ الصَّدَفيُّ[(٢)] رحمه الله حينما ناظَرَ الشافعيَّ رحمه الله: «ما رأيتُ أعقَلَ مِن الشَّافعيِّ؛ ناظَرْتُه يومًا في مسألةٍ ثمَّ افْتَرَقْنا، ولَقِيَني، فأخَذَ بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألَا يستقيم أن نكُون إخوانًا وإن لم نتَّفق في مسألةٍ»[(٣)]؛ وهو دليل على أنَّ الجدال والخلاف يُورِث الشِّقَاق في القلوب، بدليل تذكير الشافعي للصَّدَفي بعهد الأُخُوة، ولكن ليس كل الناس كالشافعي في صفاء ونقاء القلب، ولا كلهم

---

(١) سيد قطب. **في ظلال القرآن**. ١/ ٥٠٠، ٥٠١.

(٢) من كبار العلماء في مصر؛ صَحِبَ الشافعيَّ طويلاً ولازَمَه وحدَّثَ عنه، تُوُفِّي عام (٢٦٤هـ).

(٣) شمس الدِّين الذهبي. **سير أعلام النبلاء**. ١٠/ ١٦.

كالصَّدَفِي في الاستجابة للنصيحة!

فالأَوْلَى في دعوة الناس والمجتمع أن نبحث عن المساحات المشتركة وليس نقاط الخلاف، ولا سيَّما أنَّ نقاط الخلاف ليست في دائرة الخلاف العَقَدِيِّ الذي يستحق المُفاصَلة أو المُصادَمة، ولكنها في دائرة الخلاف الفقهي السائغ الذي لا يستدعي الفُرقة والصِّدام والمعارك مع المحيط المجتمعي للداعية؛ «فإنَّ صاحب الرسالة يَتَحَبَّب إلى المَدْعُوِّين، ويسعى إلى كَسْب مَحبَّتهم له ومَيْل قلوبهم إليه؛ لأنَّ ذلك أَعْظَم مُعِينٍ على قبولهم منه دعوتَه واتباعهم له، وبدونه لن يحصل التأثير الإيجابي بالمُتابَعة وإن أُقِيمَت الحُجَج ونُصِبَت الأدلة؛ لأن البُغض للداعي يَصُدُّ عن قبول دعوته وإن كانت حقًّا؛ قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1]؛ فالاستجابة والمُتابَعة أَعْظَم مُقتضَيات المَحبة، وهما -في نفس الوقت- أَعْظَم آثارها»[2].

رَدُّ فِعْل الطالب بعد معرفة الحق:

«لكُلِّ فِعْلٍ رَدُّ فِعْلٍ؛ مُساوٍ له في القيمة، مُعاكِسٌ له في الاتجاه»؛ أَحَد أَهَم وأَشْهَر قوانين «نيوتن» الفيزيائية، وهو قانون لا تقتصر تطبيقاته على الفيزياء فقط، بل هو قاعدة مُعتبَرة في الأعراف البشرية والحياة أيضًا، والصَّدَمات الحياتية تُحْدِثُ بعدها -غالبًا- رُدُود أفعالٍ عنيفةٍ وبعيدةٍ عن التوسُّط والاتزان.

وهذا ما حَدَث -سَلَفًا- مع بعض الفِرَق المُنحرِفة عَقَديًّا؛ مثل ما حَدَث مع «الجَبْرِيَّة» الذين قالوا بأنَّ الإنسان مَجبور على أفعاله؛ كَرَدِّ فِعْلٍ عنيفٍ على

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) علي عمر بادحدح. **مقومات الداعية الناجح**. ورقة بحثية. ص٩.

نَفْي «القَدَرية» للقَدَر! ومثل ما حَدَث مع «المُرْجِئة» الذين قالوا بأنَّ العمل ليس داخلًا في حقيقة الإيمان وأنَّ أصحاب المعاصي مؤمنون كامِلو الإيمان بكمال تصديقهم؛ كَرَدِّ فِعْلٍ عنيفٍ على «الخَوَارِج» الذين كفَّروا بالكبيرة!

وقياسًا على قضية «التربية على القول الواحد»؛ فبَعْدَ معرفة الطالب بمُتَّسَع الآراء الأخرى في المسائل التي لُقِّنَها بقولٍ واحدٍ، وكَمِّ الجدالات والمعارك التي خاضَها ظنًّا منه أنه يدافع عن الدِّين، وفي النهاية تَبيَّن له أنه يدافع عن رأيٍ مَذهَبيٍّ بشريٍّ اجتهاديٍّ؛ فإنَّ هذه الصَّدْمة تجعل عنده رَدَّ فِعْلٍ غير مُتوازِنٍ تجاه مسائل الفقه عامةً، وقد يَصِل عدم اتزانه إلى التشكيك في المسائل القطعية، والاختيار بين الآراء دون انضباطٍ في التقليد؛ وهو ما يُشَكِّل رَدَّ فِعْلٍ مُبالَغٍ فيه!

وأخيرًا: إنَّ «التربية على القول الواحد» داءٌ مُرَكَّبٌ؛ فهي تعصُّبٌ لمَذهَبٍ، أُضِيفَ إليه جَهْلٌ بآراء المذاهب الأخرى! مَثالِبها وَقَفَت حائلًا مَنيعًا أمام تعاوُن وتآلُف وتآزُر كِيَانات الدعوة -على تنوُّع توجُّهاتها-، واستنْزَفَت طاقة الأُمة وأبنائها هَبَاءً، وتُعَدُّ عيبًا لأيِّ عملية تربوية، ضَرَرها أكبر من نَفْعها -إن كان لها نَفْع من الأساس-!

وعلاج تلك الإشكالية يتمثَّل في: تدريس الطالب الفقهَ بمنهجيةٍ علميةٍ سليمةٍ مُتكامِلةٍ مُتماسِكةٍ مُتدرِّجةٍ، وعَرْض المسائل الفقهية -التي ساغ فيها الخلاف- عَرْضًا مُنصِفًا، وتناوُلها تناوُلًا حياديًّا كما فَعَلَ الأئمةُ المُتقدِّمون. بالإضافة إلى تدريسه مَدخلًا لعِلْم الفقه لمعرفة تاريخ نشأة المذاهب وأسبابها، وكذلك تعليمه آداب وأخلاق الخلاف. كل ذلك سيُجَنِّب الطالبَ كثيرًا من المعارك الفارغة واستنزاف الطاقات، وسيُجَنِّبه تَبنِّي رأيٍ فقهيٍّ يَظَل يُنافِح عنه ويَعْقِد عليه الولاء والبراء، وستُنسَفُ الإشكالية عنده من جذورها؛ لأنه سيَعْلَم أن لا إشكالية من الأساس.

١١- الأوقاف أَم الصَّدَقات؟

أصابَ عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه أرضًا بخيبر، فأتى النبيَّ ﷺ يَسْتَأْمِرُه[١] فيها، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ أَرْضًا بِخَيْبَرَ لَمْ أُصِبْ مَالًا قَطُّ أَنفَسَ عِنْدِي مِنْهُ؛ فَمَا تَأْمُرُ بِهِ؟ فقال ﷺ: «إِنْ شِئْتَ حَبَسْتَ أَصْلَهَا وَتَصَدَّقْتَ بِهَا»، فَتَصَدَّقَ بِهَا عُمَرُ رضي الله عنه؛ أَنَّهُ لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ وَلَا يُورَثُ، وَتَصَدَّقَ بِهَا فِي الفُقَرَاءِ، وَفِي القُرْبَى، وَفِي الرِّقَابِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ، وَابْنِ السَّبِيلِ...[٢]. بهذا الحديث؛ قد شرَّع النبيُّ ﷺ سُنة «الوَقْف» في الإسلام. والوَقْف شرعًا هو: «حَبْسُ مالٍ يُمْكِن الانتفاع به مع بقاء عَيْنه، بقَطْعِ التصرُّف في رقبته على مَصرَفٍ مُباحٍ موجودٍ»[٣]. وقيل هو: «تَحْبيس الأصل وتَسْبيل المَنفَعة»[٤].

---

(١) يستشيره.

(٢) رواه البخاري. باب: الشروط في الوقف. حديث رقم (٢٧٣٧). واللفظ له. ومسلم. باب: الوقف. حديث رقم (١٦٣٢).

(٣) البكري الدمياطي. **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين**. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق. ط١، ١٤١٨هـ. ٣/ ١٨٦.

(٤) الحجاوي. **زاد المستقنع في اختصار المقنع**. تحقيق: محمد عبد الله الهبدان. دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية. ط٢، ١٤٢٨هـ. ص٢٥٧.

وتلك الفكرة المُلهِمة التي سنَّها رسولُ الله ﷺ أبدَعَ المسلمون في تطبيقاتها حتى صارت من أرْوَع إضافات أُمة الإسلام للحضارة الإنسانية كافةً؛ فتأسَّسَت أوقاف كثيرة في كثير من المجالات؛ مثل: (الصحة - العبادة - التعليم - السفر)؛ حتى وَصَل إلى الوَقْف في (تجهيز العرائس - مساعدة المَكفوفين - تمهيد الطُّرُق)؛ لينتفع بها المسلمون وغيرهم، ما داموا يعيشون في دولة الإسلام.

وميزة الوَقْف تَكْمُن في أنه يَضْمَن دَيْمُومَة العمل الخيري دون توقُّف، بعكس صدقات المرة الواحدة؛ بسبب وجود مَصدر تمويلٍ مُتجدِّد لفكرة العمل الخيري، ولا يجوز لصاحب الوَقْف التصرُّف فيه ببَيْعه ولا بهِبَته ولا بتَوْريثه؛ لذلك عُدَّ الوَقْف أفضل سُبُل تمويل العمل الخيري.

الأوقاف التعليمية:

على مَرِّ تاريخ الدول الإسلامية كانت هناك أوقاف كثيرة للمدارس والتعليم[1]؛ وقد أَوْرَدَ الإمام محمد عبده رحمه الله كلامًا عن تنافُس الأمراء والسلاطين في إنشاء المدارس وإعلاء مكانة العِلْم والعلماء؛ فقال رحمه الله: «إنَّ وُلاة الأقاليم والوزراء كانوا يُنافِسون الخلفاء في إعلاء مقام العِلْم والعلماء، وبَسْط اليد في الإنفاق على بيوت العِلْم ومساعدة الفقراء على طَلَبه؛ فانتشر من ذلك ذَوْق العِلْم، ووُجِدَت اللَّذة في تحصيله بين الناس. وقد أنفَقَ الوزيرُ «نِظَام المُلْك» مِائَتَيْ أَلْف دينارٍ على بناء مَدرَسةٍ في بغداد،

(١) اكتفَيْتُ بذِكْر بعض الأوقاف الخاصة بالمدارس والتعليم لأنها محل حديثي، لكن الأوقاف في التاريخ الإسلامي لم تنحصر في هذا المجال فحَسْب؛ إذ إنَّ التاريخ الإسلامي يزخر بالمدارس الوقفية، والأربطة الوقفية -سيأتي معناها-، والمستشفيات الوقفية، والمرافق العامة المدنية الوقفية.

وجَعَلَ لها من الرِّيع ليَصْرِف في شئونها خمسةَ عشرَ أَلْف دينارٍ في السَّنة»(١).

وقد شَهِدَ ذلك ابنُ جُبَير رَحِمَهُ اللهُ في رحلته؛ حيث قال: «وَجَدتُّ في بغداد نَحْو ثلاثين مَدرَسةً، كلها كالقصر البديع، وأَعْظمها وأَشْهرها «المدارس النظامية» التي بناها الوزيرُ «نِظَام المُلْك»، ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات مُحبَّسَة تَصِير إلى الفقهاء المُدرِّسين وإلى الطلاب. ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس شَرَفٌ عظيمٌ وفَخْرٌ مُخلَّدٌ؛ فَرَحِمَ اللهُ واضِعها الأول، وَرَحِمَ مَن تَبِعَ تلك السُّنة الصالحة»(٢).

وممَّا يُضرَب به المثل في استمرارية فعالية الوَقْف في التعليم؛ الكتاتيب؛ حيث إنه «لمَّا كان تعليم الأولاد يُعَدُّ أمرًا شرعيًّا وواجبًا دينيًّا تَقَع مسئولية القيام به على عاتق الآباء؛ تَوَلَّي أولياء الأمور والمُحسِنون من المسلمين أمرَ إنشاء الكتاتيب والإنفاق عليها، وشارَكَ في هذا الفضل المُعلِّمون الذين كانوا يقومون بمهنة التدريس احتسابًا، ولا سيَّما في العهد الأول للإسلام. ثم انتشرت الكتاتيب العامة الموقوفة بعد ذلك عبر العصور، حتى أصبحت الكتاتيب تَضُمُّ الأطفال اليتامى والفقراء والمساكين، حتى أصبحت كتاتيب «الضَّحَّاك بن مُزَاحِم»(٣) عام (١٠٥هـ) تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف طفل، كما أصبحت بالشام كتاتيب موقوفة لتعليم أبناء المسلمين حول الجامع الأموي بدمشق. ثم تَلَا بعد ذلك الكتاتيب في مصر وفي عهد المماليك ثم الدولة العثمانية، وخصوصًا

(١) الإمام محمد عبده. **الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية**. دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ط٣، ١٩٨٨م. ص١٠٧. بتصرف يسير.

(٢) ابن جبير. **رحلة ابن جبير**. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت. ط١. ب.ت. ص٢٠٥. بتصرف واختصار.

(٣) هو التابعي والمُفسِّر المعروف.

الكتاتيب التي أقامتها في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حتى جاء عهد المَلِك «عبد العزيز» فتَمَّ الاستغناء عنها بالمدارس النظامية المجانية»[١].

«وقد أَنشأ السلطانُ «قايتباي»[٢] رَحِمَهُ اللهُ المدرسةَ الأشرفيةَ في مكة المكرمة عام (٨٨٢هـ)، وأَمَرَ بدريس المذاهب الأربعة فيها، ووَقَفَ عليها أوقافًا كثيرة من مصر. كما أَنشأ في المدينة المنورة -بعد الحريق الثاني للمسجد النبوي عام (٨٨٦هـ)- رِباطًا[٣] يُشْرِف على المسجد النبوي والمدرسةَ الأشرفيةَ عام (٨٨٧هـ)، وأرسَلَ إلى المدرسة خزانةً كبيرةً من الكتب والمصاحف وجَعَلها وَقْفًا على طلبة العِلْم، كما خَصَّص لطلابها مُخصَّصات مالية»[٤]. وقد ذَكَرَ السَّمْهودي رَحِمَهُ اللهُ أنَّ السلطان «قايتباي» قد اتخذَ أوقافًا عظيمةً بَلَغَ مُتَحَصَّل ريعها من الحَب (٧٥٠٠) إرْدَب[٥][٦].

---

(١) طارق عبد الله حجار. **تاريخ المدارس الوقفية في المدينة المنورة**. الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة. العدد العشرون بعد المائة. ١٤٢٨هـ. ص٤٧٦، ٤٧٧. بتصرف واختصار يسير.

(٢) من سلاطين المماليك، وهو أيضًا مَن أنشأ قلعة قايتباي بالإسكندرية.

(٣) جمع رِباط «أربطة»؛ وهو مأوى لإقامة الفقراء وغيرهم من رُوَّاد العِلْم (مُعلِّمين ومُتعلِّمين).

(٤) أحمد هاشم بدرشيني. **أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي: دراسة تاريخية حضارية وثائقية من واقع دور أرشيف القاهرة**. رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي. جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية. ١٤٢١هـ. ص١٠٠- ١٠٢. بتصرف واختصار.

(٥) الإرْدَب: يساوي (١٥٠) كيلو جرامًا.

(٦) السمهودي. **خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى**. تحقيق: محمد الأمين الجكيني. ب.ط. ب.ت. ٢/ ١٩٤.

الوَقْف أَم الصدقة؟

من أكثر التحديات التي تُهدِّد أي مشروعٍ دعويٍّ أو تربويٍّ؛ قِلَّةُ الموارد المالية أو انعدامها -أحيانًا-. ومن خلال ما ذُكِرَ؛ يتضح أنَّ الوَقْف وسيلة عملية ومثالية لتمويل المشاريع الخيرية عامةً والمشاريع التعليمية خاصةً، وهذا ما أَوَدُّ الإشارة إليه في هذا المقال؛ بأن تَتَّجه الكِيَانات الدعوية والتربوية إلى تأسيس أوقافٍ لها قَبْل البدء بإنشاء العمل نفسه، وذلك لضمان استمرارية العمل دون توقُّف.

إنَّ اعتماد الكِيَانات على «صدقات المرَّة الواحدة» يَضَع العمل الدعوي والتربوي تحت تهديدٍ دائمٍ بالتوقُّف؛ بسبب عدم ثبات مصدر التمويل، بالإضافة إلى كثرة القيود والوصايات المشروطة من صاحب الصدقة، فكل صاحب صدقة له شرط في العمل وله مزاج مُستقِل عن المُتبرِّع الذي قبله والذي بعده؛ مما يَضُرُّ بالكِيَان ككل.

قد تستصعب بعض الكِيَانات تأسيس وَقْفيات بحجة ضخامة التكاليف، والعجيب أنك لو حَسَبتَ تبرُّعات الصدقة الواحدة التي جمعها ذلك الكِيَان؛ سَتَجِدُ أنها تُغَطِّي تكاليف الوَقْف وزيادة، ولكن هناك فَرْق بين قائمٍ على كِيَانٍ ينظر تحت قدمَيْه ويكتفي بـ«السمكة»، وآخَر ذي نَظَرٍ بعيدٍ يريد تعلُّم كيفية «الصيد» لِئَلَّا يُكرِّر احتياجه إلى السمكة كل مرة!

إنَّ خطوة تأسيس الوَقْف خطوةٌ مُهِمَّةٌ قبل تأسيس أيِّ عملٍ دعويٍّ أو تربويٍّ، والشواهد التاريخية التي ذَكَرتُها سابقًا دليلٌ على أنها ليست فكرةُ مُستجَدَّةً على المسلمين، بل هي مُتأصِّلة فيهم بقِدَم وجود حضاراتهم، فنحن

أَوْلَى بإعادة تطبيقها، وتفعيل تلك الوسيلة التي تَرَكَها لنا النبيُّ ﷺ ومَن تَبِعَه من السلف الصالح رضي الله عنهم.

ما من كِيَانٍ إلا وله تبرُّعاتٌ أو صدقاتٌ للإنفاق على عمله، والواجب على القائمين على العمل تخصيص جزء من تلك التبرُّعات أو الصدقات إلى تأسيس الوَقْفيات؛ لكي يعتمد الكِيَان على نفسه ويتخلَّص من تحدي التمويل المُزعِج، وليس من اللازم أن يكون الوَقْف ضخمًا أو يُقدَّر بالملايين، وإنما يكفي البدء بوَقْفٍ قليل التكلفة ثم تكبيره مع الوقت، فالمهم أن تكون الفكرة حاضرةً في ذهن القائمين؛ للاستغناء عن «صدقات المرَّة الواحدة» وسؤال المُتبرِّعين.

وَجْه المُقارَنة	الوقف	الصدقة
شروط المُتبرِّع	واحدة	عديدة
استمرارية العمل	مُستمِر	مُتقطِّع
إمكانية توفُّره	صعب	سهل

نصائح في إنشاء الوقف:

وفقًا للواقع الذي نعيشه، والتجارب التي شاهدتُّها في الكيانات الدعوية والتربية؛ يُمْكِنني اختصار النصائح في النقاط الآتية:

١- يجب أن يَتَحَرَّز الكِيَانُ الدعويُّ عند تأسيسه الوَقْف إذا كان تحت حُكمٍ استبداديٍّ؛ لأنَّ الحُكم الاستبدادي لا يتورَّع -لحظةً واحدةً- عن مُصادَرة تلك الأوقاف وضَمِّها إليه؛ وبالتالي ستَضِيع جهودُ أعوامٍ من

بَذْلٍ بقَطْع التمويل عنه؛ مما يعني بالضبط: قَطْع الحَبْلِ السُّرِّيِّ للكِيَان! والحل في ذلك هو عدم الإفصاح عن العلاقة بين الوَقْف والكِيَان، لا بإشهارٍ ولا بتعيين مُسمًّى يدل على التبَعِيَّة؛ وذلك لتجنُّب أي محاولة رَبْطٍ بين الكِيَان والوَقْف، وإبعاده عن المُناوَشات، وإن تَمكَّن الكِيَانُ من جَعْل الوَقْف خارجيًّا بحيث لا يجتمع الوَقْف والكِيَان في نفس الدولة؛ لكان ذلك أفضل.

٢- يجب تنويع الأوقاف، وذلك في حال تَوَفُّر سيولة مالية؛ فالتاجر الماهر هو مَن يُنوِّع تجارته ويضعها في مجالات مُتعدِّدة، بحيث إذا تعرَّض لخسارةٍ أو كَسَادٍ في قطاعٍ مُعيَّنٍ؛ يتحمَّل الخسارةَ قطاعٌ واحدٌ فقط ولا تتأثر بقية القطاعات؛ عَمَلًا بالحكمة الصِّينيَّة الشهيرة: «لا تَضَع كُلَّ البَيْض في سَلَّةٍ واحدةٍ».

٣- يجب أن يُسنَد أمر الوَقْف إلى مُختصٍّ كُفْءٍ، ويتفرَّغ لهذا العمل -إذا اقتضى الأمر-؛ ليحقِّق الوَقْف أفضل نتيجة وأقصى فائدة ربحية. وقد كان أصحاب الوَقْفيات -فيما مضى- يُعَيِّنون شخصًا كُفْئًا مُختصًّا لرعاية الوَقْف، كان يُسمَّى بـ«ناظِر الوَقْف»، وكان يقوم على شئونه، وتنظيمه إداريًّا وماليًّا، وتنفيذ شرط الواقف عليه.

١٢- مُراعاة البُعد النفسي للمجتمع

عن أُم المؤمنين عائشة < أنَّ النبي ﷺ قال: «لَوْلَا أَنَّ النَّاسَ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِكُفْرٍ، وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النَّفَقَةِ مَا يُقَوِّي عَلَى بِنَائِهِ؛ لَكُنْتُ أَدْخَلْتُ فِيهِ مِنَ الْحِجْرِ خَمْسَةَ أَذْرُعٍ، وَلَجَعَلْتُ لَهَا بَابًا يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ، وَبَابًا يَخْرُجُونَ مِنْهُ»[١].

هذا الحديث من الشواهد الشهيرة في السيرة النَّبَوية التي تدل على رعاية المصالح ودفع المفاسد، وعند التعارُض تأتي بجَلْب أرجح المَصلَحتين ودفع أكبر المَفسَدتَيْن، ولكن هناك وَجْه استفادةٍ آخَر من الحديث؛ وهو مُراعاة البُعد النفسي للمجتمع -من غير الفرائض-؛ خشيةَ ما قد يئول إليه من مفاسد أعظم.

بمعنى أنَّ الكِيَان الدعوي عليه مُراعاة مُحيطه المجتمعي الذي يعمل فيه، ولا يُقبِل على أعمال يتصادم بها مع المجتمع -من غير الفرائض-؛ كما يقول ابن بطال رحمه الله: «إنَّ النفوس تُحِب أن تُسَاس بما تَأْنَس إليه في دِين الله، من غير الفرائض»[٢]. وفي شرح الحديث النَّبَوي السابق يقول ابن الجوزي رحمه الله: «وهذا

---

(١) رواه مسلم. باب: نقض الكعبة وبنائها. حديث رقم (١٣٣٣).

(٢) ابن بطال. **شرح صحيح البخاري لابن بطال**. تحقيق: أبو تميم ياسر إبراهيم. مكتبة الرشد، الرياض. ط٢، ١٤٢٣هـ. ١/ ٢٠٥.

تنبيه على مُراعاة أحوال الناس ومُداراتهم، وألَّا يُبْدَهُوا بما يُخشَى قِلَّة احتمالهم له[١]، أو بما يخالف عاداتهم، إلا أن يكون ذلك من اللازمات»[٢]. ويقول النووي رحمه الله ذاكرًا بعض فوائد الحديث: «ومنها تألُّف قلوب الرَّعية وحُسْن حِيَاطتهم وألَّا يَنْفِروا، ولا يَتعرَّض لِما يَخاف تَنْفِيرهم بسببه، ما لم يَكُن فيه تَرْك أمر شرعي»[٣].

وقد راعَى الإسلام البُعد النفسي للمجتمع عبر اعتبار اعتماده العُرفَ والعادةَ في التشريع، بشرط ألَّا يكون مُخالِفًا لنصوص الوحيَيْن. كما أنَّ قاعدة «العادة مُحَكَّمة» هي من القواعد الفقهية الكبرى التي اتفق العلماء عليها، وتَدخُل في عامة أبواب الفقه، ويتفرَّع عليها ما لا يُحصى من المسائل؛ وقد قال الشافعي رحمه الله في الاستدلال بالعُرف والعادة: «فما قيل عن رسول الله ﷺ فعن الله قيل، فإن قيل هيئات القبوض في البيع، وكيفية الأحراز في السرقة، وغالب العقود في المعاملات؛ ليس لها أصل في الكتاب ولا في السُّنة؛ قلنا قد قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[٤]، والعُرف ما يَعْرِفُه الناس ويتعارفونه فيما بينهم مُعامَلة؛ فصار العُرف في صفة القبوض والأحراز والنفوذ مُعتبَرًا بالكتاب»[٥].

---

(١) ألاَّ يُفاجئهم الداعية بالمسائل الفقهية (الاجتهادية) التي يُخشَى عدم تقبلهم لها.

(٢) ابن الجوزي. **كشف المشكل من حديث الصحيحين**. تحقيق: علي حسين البواب. دار الوطن للنشر، الرياض. ب.ط. ب.ت. ٤/ ٢٦٣. بتصرف يسير.

(٣) النووي. **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**. ٩/ ٨٩.

(٤) الأعراف: ١٩٩.

(٥) منصور بن محمد السمعاني. **قواطع الأدلة في الأصول**. تحقيق: محمد حسن الشافعي. دار الكتب العلمية، بيروت. ط١، ١٤١٨هـ. ١/ ٢٩.

وقد تكلَّم الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في اعتبار العُرف والعادة، وضَرَب مثالًا على ذلك بمسألة «كَشْف الرأس» من حيث كونها من خوارم المروءة وقادحة في العدالة أم لا؛ فقال: «فإنه يختلف بِحَسَب البقاع في الواقع؛ فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد المشرقية، وغير قبيح في البلاد المغربية؛ فالحُكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك، فيكون عند أهل المشرق قادحًا في العدالة، وعند أهل المغرب غير قادح»(١).

ولذلك قال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعُرْفُ في الشَّرعِ له اعتِبار لِذَا عليه الحُكمُ قد يُدار(٢)

ومن الأخطاء التي ترتكبها بعض الكِيَانات الدعوية؛ مُصادَمتُها مع الناس والمحيط المجتمعي عند دعوتهم، وعدم مُراعاة البُعد النفسي والأعراف السائدة؛ عبر اختيارِ أقوالٍ مَذهَبيةٍ وفتاوى بعيدةٍ عن العُرف المُعتبَر في المجتمع، رغم تَوَفُّر غيره من الأقوال والفتاوى المُعتبَرة التي تتوافق مع طبيعة المجتمع النفسية وتتلاءم مع أعرافه؛ مما يَخلُقُ حاجزًا بينهم وبين المجتمع، ويَشُقُّ أخاديد النُّفُور دون داعٍ!

تنشأ تلك المُمارَسات المُنَفِّرة بسبب ما يُسمَّى بـ«استيراد حالة التديُّن»؛ عبر تأثُّر بعض الدُّعاة أو الكِيَانات بنَمَطِ تديُّنٍ مُعيَّنٍ في مجتمعٍ أو دولةٍ ما، فيستورده كما هو بحذافيره؛ بمَذهَبه وبأقواله المُعتمَدة، حتى بمَظهَره الخارجي، ويحاول

---

(١) الشاطبي. **الموافقات**. تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان. دار ابن عفان، القاهرة. ط١، ١٤١٧هـ. ٢/ ٤٨٩.

(٢) محمد مصطفى الزحيلي. **القواعد الفقهية وتطبيقاتها في المذاهب الأربعة**. دار الفكر، دمشق. ط١، ١٤٢٧هـ. ١/ ٣٠٢.

التعايش به داخل المحيط المجتمعي الذي من المُمكِن أن يكون مُخالِفًا له في الأقوال الفقهية المُختارَة لديه أو في الأعراف السائدة.

ليس عيبًا أن يتأثَّر كِيَان دعوي بمنهج فكري مُعيَّن في دعوته، ولكن يُطبِّقه بما يلائم محيطه المجتمعي وأهل بلده، مُراعيًا العُرف المجتمعي في المَظهر والمَلبس والأقوال والأفعال؛ كي لا يَفْقِد الداعية أحَدَ أهم مُقوِّماته في دعوة قومه؛ وهو «القبول النفسي»؛ من خلال اشتراكه معهم في أنماط معيشتهم وأسلوب حياتهم، وطُرُق تعبُّدهم -فيما لا يخالف الفرائض-؛ مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾[1]؛ «ومُخاطَبة القوم بلسانهم المُبيِّن لهم؛ تَعْنِي أن نَدْخُل إليهم من حيث يَهتَمُّون، ومن حيث يَفهَمون، ومن حيث يَتأَثَّرون»[2].

استيراد حالة التديُّن:

من أكثر الأمثلة في عصرنا الحالي الواضحة على «استيراد حالة التديُّن»؛ ما حَدَث مع بعض الكِيَانات السَّلَفية التي نَقَلَت التجربة من دُوَل الخليج إلى كثير من الدُّوَل الأخرى، وللأسف نقلوها بحذافيرها دون مُراعاةٍ لأي بُعد نفسي للمجتمع المحيط بهم؛ فكثير من الدُّعاة يعيشون في بلاد لا ترى عدم تغطية الرأس من القوادح، ولكنك تَجِدُ كثيرًا من هؤلاء الدُّعاة مُتأثِّرين بمشايخ الخليج -الذين يُغَطُّون رءوسهم-؛ فتَجِدُ الداعية من هؤلاء يَلْبَس «الطَّاقِيَّة»[3]

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) يوسف القرضاوي. **فتوى بعنوان «الدعوة إلى الله بين اليابانيين»**. موقع (www.al-qaradawi.net).

(٣) لباسٌ للرأس مُختلِف الأنواع والأشكال.

أو «القَلَنْسُوَة»[١] أو «الشِّمَاغ»[٢] أو «الغُتْرَة»[٣]، أو يرتدي في خطبة الجمعة أو الدروس ما يسمى بـ«البِشْت»[٤]؛ ليقول للجمهور بلسان حاله: أنا غَيْركم، أنا على الجهة الأخرى من شاطئكم!

وعلى مستوى النساء؛ فنَجِدُ كثيرًا من نساء التيارات السَّلَفية -خارج دول الخليج- قد انتقَبْنَ -وفي هذا فَضْل وحِشْمة بلا شك-، ولكنَّ كثيرًا منهُنَّ لَبِسْنَ النِّقاب على الطِّرَاز الخليجي! فلماذا لا يَلْبَسْنَ النِّقاب على الطِّرَاز الذي يَحمِل هُوِيَّة المجتمع المحيط بِهِنَّ؟!

وعلى مستوى المذاهب والفتاوى المُعتمَدة؛ فقد اعتمَدَتْ بعض الكِيَانات تدريس المَذهَب «الحنبلي» لأنه المُعتمَد عند مشايخ الخليج، في حين أنَّ المَذهَب الرائج في دولتهم قد يكون مُغايِرًا؛ مما يَخلُقُ حالةَ نُفُور بين هؤلاء الدُّعاة -المُتأثِّرين بمشايخ الخليج- وبين كثيرٍ من المؤسسات الدِّينية وعامة الناس المُتديِّنة! وليس هناك أدنى مشكلة في تدريس مَذهَب مُعيَّن وترجيح أقواله، ولكن في إطار التعلُّم الحقيقي والتقليد الحُر، وليس في إطار «استيراد حالة التديُّن». كما اعتُمِدَت أغلب فتاوى سَلَفية الخليج في النوازل المُعاصِرة؛ وهو ما أوقَعَ كثيرًا من الكِيَانات الدعوية في حَرَجٍ شديدٍ بسبب اختلاف الأنظمة والظروف السياسية، ودرجة التغريب والعَلْمَنة، وعوامل أخرى!

---

(١) غطاءٌ للرأس من الصوف أَو القطن ونحوهما.

(٢) لباسٌ للرأس يتكَوَّن من قطعةٍ قماشيةٍ تُصنَع -عادةً- من القطن أو الكتان، ومُزخرَفة بألوانٍ عديدةٍ؛ أشهرها اللونان (الأحمر والأبيض، أو الأسود والأبيض)، مُربَّعة الشكل، ويتم ثَنْيها -غالبًا- بشكل مُثلَّث، وتُوضَع على الرأس، وأحيانًا على الكتف.

(٣) قطعةُ نسيج تُوضَع على رأس الرجل وتتدلَّى إلى كتفَيْه، وقد يُوضع فوقها عِقَال أو غطاء الرأس.

(٤) كساءٌ من صوف غليظ النَّسْج، لا كُمَّيْن له، يرتديه أهل الريف في الشتاء.

إنَّ ما حَدَث من «استيراد حالة التديُّن» قد شَقَّ أخاديد النُّفُور بين تلك الكِيَانات وبين المجتمع الذي شعر بأنَّ تلك الكِيَانات لا تنتمي إليه، وضَرَب على تلك الكِيَانات حالةً من العُزْلة المجتمعية صَعَّبَتْ عليهم مُهِمَّة الاندماج بين الناس لدعوتهم، ولم يكن فيه أدنى مُراعاةٍ للبُعد النفسي للمجتمع!

المجتمع التركي -مثلًا- لم تَظْهر فيه تلك المشكلة؛ بسبب النزعة القومية الشديدة لديه، وهذا من باب «مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ»، فالنزعة القومية دائمًا تتعارض مع مفاهيم كثيرة في الإسلام، ولكن في تلك الحالة كانت دافعًا إلى التمسُّك بأعراف المجتمع، فتجد المُتديِّنين منهم مُتمسِّكين بالنَّمَط التركي؛ حيث إنَّ رجالهم ونساءهم يَرْتَدُون الزِّيَّ الخاص بالمُتديِّنين، لكنهم -في نفس الوقت- يَرْتَدُونه وفقًا للنَّمَط التركي.

رعاية السَّلَف للبُعد النفسي للمجتمع:

نَهَي النبيُّ ﷺ معاذًا عن الإطالة في الصلاة لمَّا اشتكى البعض من ذلك، وقال له ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنتَ؟»[(١)]؛ فنهاه ﷺ عن الإطالة -وهي مُسْتَحَبة في الأصل-؛ سدًّا لذريعة ما قد يَحدُث من نُفُورٍ عند بعض الناس.

وقد راعَى علماء السَّلَف ذلك الأمر عند توجيه الناس وفتواهم؛ فقال القَرَافي رحمه الله: «ينبغي للمُفتِي إذا وَرَدَ عليه مُستفتٍ لا يُفْتِيه بما هو عادته حتى يسأله عن بلده، وهل حَدَثَ لهم عُرف في ذلك اللَّفْظ اللُّغَويِّ في ذلك البلد أم لا؟

(١) رواه البخاري. باب: من شكا إمامه إذا طول. حديث رقم (٧٠٥). ومسلم. باب: القراءة في العشاء. حديث رقم (٤٦٥).

وإن كان اللَّفْظ عُرفيًّا؛ فهل عُرْف ذلك البلد مُوافِق لهذا البلد في عُرْفه أم لا؟»[1].

«حتى إنَّ الشافعي رحمه الله خالَفَ بعض آرائه حينما ارتحل من العراق إلى مصر؛ لِما تجدَّد له من العِلْم بالنصوص ما لم يَكُن عنده من قبل، ولِما رآه من أحوالٍ اجتماعيةٍ تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق»[2].

أدرَكَ عُمَر بن عبد العزيز رحمه الله ذلك البُعد النفسي بقوله لمَّا وَلِي: «إِنِّي أُعالِج أمرًا لا يُعين عليه إلا الله؛ قد فَنِيَ عَلَيْهِ الْكَبِيرُ، وَكَبُرَ عَلَيْهِ الصَّغِيرُ، وفَصُحَ عَلَيْهِ الأعجميُّ، وَهَاجَرَ عليه الأعرابيُّ، حتى حَسِبُوه دِينًا»[3]، فعلى الرغم من أنَّ قول عُمَر قد قيل في مَعرض التغيير والإصلاح؛ فإنَّ فيه دلالة على مُراعاة البُعد النفسي للمحيط المجتمعي الذي يحيا فيه الداعية، وعلى الرغم من قول عُمَر عن استقرار البدع عند الناس: «حتى حَسِبُوه دِينًا»؛ فإنه ترفَّق في تغييره رعايةً للبُعد النفسي لديهم، فمن باب أَوْلَى احترام الداعية ما تبنَّاه الناس قرونًا من آراءٍ فقهيةٍ اجتهاديةٍ مُعتبَرةٍ، واحترام أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم -ما لم تخالف قَطْعِيَّات الشريعة-.

نقطة نظام:

لكل قاعدةٍ ضابطُ إعمالٍ لها، وضابط قاعدة مُراعاة البُعد النفسي للمجتمع

(١) ابن فرحون. **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. ط١، ١٤٠٦هـ. ٢/ ٧٨.

(٢) محمد الكدي العمراني. **فقه الأسرة المسلمة في المهاجر**. دار الكتب العلمية، بيروت. ب.ط. ٢٠٠١م. ص١٥١. بتصرف.

(٣) ابن عبد الحكم. **سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه**. تحقيق: أحمد عبيد. عالم الكتب، بيروت. ط٦، ١٤٠٤هـ. ص٤٢.

هو أنَّ «نُفُور الناس ليس بمصلحةٍ أعظم من مصلحة القيام بالواجب»؛ فمصلحة عمل الواجب مُقدَّمة على مُراعاة أعراف الناس؛ لأنَّ إعماله بدون ضابط سيُؤدِّي إلى توقُّف كافة الأحكام الشرعية -الواجبة- بدعوى مُراعاة نُفُور الناس.

وقد وُقِّعَت في عهد النبوة المُبارَكة وقائع كثيرة تَدُل على تقديم «الواجبات» على «الأعراف»؛ ومنها:

١- مُخالَفته ﷺ لعاداتهم في الحج؛ فعن عائشة < قالت: «كَانَتْ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا[١] يَقِفُونَ بِالمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الحُمْسَ[٢]، وَكَانَ سَائِرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَلَمَّا جَاءَ الإِسْلاَمُ أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ، ثُمَّ يَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا»[٣].

٢- مُخالَفته ﷺ لعاداتهم في العُمرة؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كَانُوا[٤] يَرَوْنَ أَنَّ العُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الحَجِّ مِنْ أَفْجَرِ الفُجُورِ فِي الأَرْضِ»[٥].

فالشاهد أنَّ مُراعاة البُعد النفسي للناس يكون في الأمور التي فيها سَعَة ومرونة، وليس في الواجبات أو الفروض القطعية؛ والمُوازَنة بين المصالح والمفاسد في حالة التعارُض بأن تُفْعَل أقل المَفسَدتَين لدَفْع أعلاهما.

---

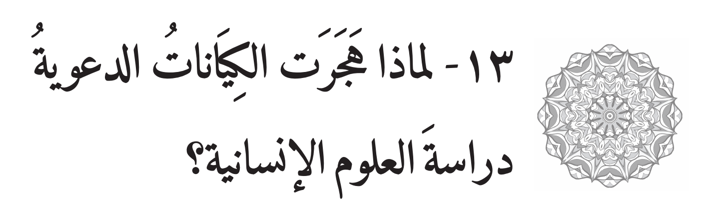
(١) أي: مَن تَبِعَها واتخذ دِينها دِينًا.

(٢) هُم قريش، وسُمُّوا «حُمْسًا» لأنهم تحمَّسوا في دينهم؛ أي: تشدَّدوا.

(٣) رواه البخاري. باب: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾. حديث رقم (٤٥٢٠). ومسلم. باب: في الوقوف وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾. حديث رقم (١٢١٩).

(٤) يقصد أهل الجاهلية.

(٥) رواه البخاري. باب: التمتع والإقران والإفراد بالحج، وفسخ الحج لمن لم يكن معه هدي. حديث رقم (١٥٦٤). ومسلم. باب: جواز العمرة في أشهر الحج. حديث رقم (١٢٤٠).



١٣- لماذا هَجَرَت الكِيَاناتُ الدعويةُ دراسةَ العلوم الإنسانية؟

الظاهرة:

بالتأمُّل في التخصُّصات الأكاديمية للمُنتمِين إلى الكِيَانات الإسلامية عامةً والقيادات خاصةً؛ يُلاحَظ أنَّ أغلبها تخصُّصات عِلْمية؛ كالطب والهندسة وبقية فروع العلوم التطبيقية، وأنَّ التخصُّصات في العلوم الإنسانية ليس لها نصيب وسط دراستهم؛ مما كان له أثر سلبي على التوازن المعرفي داخل الكِيَانات، وانعكس ذلك الخَلَل في التعامل مع النوازل السياسية وفَهْم وتقدير الحَرَاك الاجتماعي؛ فمثلًا «في جماعة الإخوان المسلمين -وهي تُعَدُّ من أكبر الكِيَانات الإسلامية-؛ ستَجِدُ (١٥) فردًا من أصل (١٨) في عموم الجماعة ينتمون لخلفيات طبية وهندسية وتقنية -وفقًا لآخِر تمثيل رسمي لها قبل الانقلاب في مصر-؛ وهو ما يعني أنَّ ما يزيد عن (٨٥٪) من صُنَّاع القرار داخل أكبر حركة إسلامية ينتمون إلى حقول الطب والهندسة والتِّقَانة[١]، مُتخفِّفين من بقية العلوم الإنسانية[٢].

---

(١) عِلْم الصنائع والفنون والأساليب المُستخدَمة في مُختلَف فروع الصِّناعة.

(٢) محمد فتوح. تقرير بعنوان «**مهندسون وأطباء فقط.. لماذا هجر الإسلاميون دراسة العلوم الإنسانية؟**». موقع (www.aljazeera.net/midan).

تتكرَّرت نفس الإشكالية عند التيارات السَّلَفية -على تنوُّع البلدان-، فالقيادات السَّلَفية تتنوَّع بين خريجي التخصُّصات الشرعية، أو العلمية كالطب والهندسة والتِّقَانة، لكن ليس لهم نصيب من العلوم الإنسانية سوى القليل.

أهمية العلوم الإنسانية:

«العلوم الإنسانية هي: مجموعة من الحقول المعرفية التي تهدف إلى البحث في حياة الإنسان ونشاطاته؛ باستخدام مناهج بحثية ودراسية مُتنوِّعة تعمل على دراسة الخبرات، والأنشطة، والبُنى، والصناعات المرتبطة بالبشر وتفسيرها»(١).

وتتضمَّن العلوم الإنسانية: (الأدب، والتاريخ، وعِلْم الاجتماع، وعِلْم النفس، والفلسفة، والأديان، وعِلْم اللِّسَانِيَّات(٢)، والأَنْثُروبُولوجي(٣)، والاقتصاد، والسياسة، والقانون)، وتتميز تلك العلوم بصِلَتها الوثيقة بالإنسان والمجتمعات، وتفسير وتحليل سلوكهما.

تتمثل أهمية العلوم الإنسانية في أنها الأدوات المُستخدَمة في فَهْم الواقع، وفَهْم ظواهر المحيط المجتمعي بشكل أمثل؛ مما يترتَّب عليه تفاعُل مناسب للظواهر، وتتقاطع العلوم الإنسانية مع المجالات الشرعية في مساحات مشتركة؛ كونها وسائل مُستخدَمة في تطبيق ما حرَّرْته المجالات الشرعية من أحكام وقواعد؛ فتزيد من دقة النتائج والمُخرَجات.

---

(١) أحمد سالم. **السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية**. ص٥٨٩.

(٢) عِلْمٌ يَهْتَمُّ بدراسة اللُّغة من حيث: تراكيبها، وتطَوُّرها، وعلاقات اللُّغات فيما بينها.

(٣) ويُسمَّى أيضًا بـ«الإناسة» أو «عِلْم الإنسان»؛ وهو يبحث في: أصل الجنس البشري، وتطوُّره، وأَعْرافه، وعاداته، ومَعتقَداته، وفي السُّلالات البشرية وخصائصها ومُميزاتها.

«وإذا كانت العلوم التراثية الدِّينية هي طريقَ تحريرِ النظر في المنهج الذي ستتمُّ بواسطته مُحاكَمة الواقع وظواهره وقضاياه مِعياريًّا؛ فإن العلوم الإنسانية هي طريقُ تحريرِ النظر في هذا الواقع وتُبيِّن ظواهره وقضاياه ومَسائله توصيفًا وتشخيصًا»[١].

فدراسة التاريخ تجعلنا نستفيد من الخبرات الإنسانية الماضية؛ كَوْن التاريخ هو وعاءَ التجربة الإنسانية. ودراسة عِلْم الاجتماع والأَنْثُروبُولوجيا تساعد في فَهْم الفرد وسلوكه ونوازعه، وفَهْم المجتمعات البشرية، ويتقاطع عِلْم الاجتماع والأَنْثُروبُولوجيا مع المجال الشرعي في فقه الواقع والنوازل. ودراسة عِلْم التربية تتقاطع مع مجالات العمل والإصلاح. وكذلك عِلْم السياسة فإنه يعتني بفَهْم الظواهر السياسية ويتقاطع بشكل كبير مع المجال الفكري والتعامل مع الأنظمة والنوازل السياسية. «فالعلوم الإنسانية هي التي تدفع الفكر إلى الحركة لا إلى الجمود، وهي التي تَحْفِزُ على إنتاج المعرفة بدلًا من استهلاكها، وهي التي تستَفِزُّ العقل من أَجْل الدفاع عن حقه في طرح رؤى بديلة بدلًا من الاستسلام للوضع الراهن (أو الراكد!)؛ وبهذا تتميَّز الدراسات الإنسانية عن الدراسات العلمية الصِّرْف المُتعامِلة مع بيئةٍ خارجيةٍ تتطلب حلولًا صارمة لمشكلات علمية ومنهجية، حلولًا إذا اتخذَتْ من التعدُّدية مَبدأً؛ فربَّما تنهار البناية فوق رءوسنا أو تنفجر آلات المصانع في وجه العُمال»[٢].

وعلى إثر أهمية العلوم الإنسانية وتكامُلها مع العلوم الأخرى؛ يقول مالك

---

(١) أحمد سالم. **السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية**. ص٥٨٩، ٥٩٠.

(٢) مجموعة مؤلفين. **الجامعات والبحث العلمي في العالم العربي**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة. ط١، ٢٠١٧م. الفصل العاشر.

ابن نبي رحمه الله: «إنَّ العلوم الأخلاقية والاجتماعية والنفسية تُعَدُّ اليوم أكثر ضرورةً من العلوم المادية؛ فالعلوم المادية تُعَدُّ خطرًا في مجتمعٍ ما زال الناس يجهلون فيه حقيقة أنفسهم -أو يتجاهلونها-، فمعرفةُ إنسانِ الحضارة وإعداده أشقُّ كثيرًا من صُنْع مُحرِّكٍ أو آلة مُتطوِّرة»[1].

فالعلوم الإنسانية هي شريكٌ للعلوم التطبيقية والشرعية، ولا يُمْكِن القول بتفضيل أحد العلوم على الآخر، فالعلاقة بين تلك العلوم علاقةٌ تكامليةٌ وليست تنافسية؛ حيث إنه «ما من شكٍّ أنَّ العلوم الإنسانية هي القاعدة التي تقوم عليها العلوم التطبيقية، ولا يُمْكِن لباحثِ العلوم التطبيقية أن يَستغني عن الدراسات الإنسانية التي تُنير له الطريق، وتضع أمامه القواعد التي يسير عليها؛ من خلال التجارب السابقة، والتطوُّر الإنساني للعلوم التطبيقية»[2].

ظهرت نتائج فَقْر الكِيَانات الإسلامية بأدوات العلوم الإنسانية جَلِيَّةً؛ من خلال تعاملهم غير المُوفَّق مع بعض النوازل الشرعية والسياسية واستشراف المستقبل، وكانت اختبارات الربيع العربي خير شاهد، كما أظهرَتْ نتائجَ ليست جيدة في تعاملهم مع محيطهم المجتمعي من ناحية الإصلاح والدعوة، كما أدت إلى أزمات في إدارة الكِيَانات نفسها من الداخل!

إنَّ نَقْص العلوم الإنسانية عند الكِيَانات الإسلامية؛ أفرزَ نتائجَ خاطئةً ومُخرَجاتٍ مُشوَّهةً في التعامل مع المجتمعات الإنسانية القائمة أساسًا على

(١) مالك بن نبي. **وجهة العالم الإسلامي**. دار الفكر، دمشق. ط١، ١٤٢٣هـ. ص٣٨. بتصرف يسير.

(٢) محمود أحمد درويش. **مناهج البحث في العلوم الإنسانية**. مؤسسة الأمة العربية للنشر والتوزيع، جمهورية مصر العربية. ط١، ١٤٣٩هـ. ص٧.

المُتغيِّرات النفسية؛ فباتت تَقِيس النَّبْض المجتمعي بِلُغةٍ كَمِّيَّةٍ، فكان الضَّرَر أكبر من النَّفْع؛ «إذ إنَّ العقلية العِلْمية والتقنية إن انتقَلَتْ للنظر في الاجتماع الإنساني؛ فلا بُدَّ لها من التخلُّص من أمورٍ في مَنطِق تفكير المعرفة التقنية، وإن لم تتخلَّص منها وتَفْصِل بين نطاق المعرفة التقنية والمعرفة الإنسانية؛ فسَتَقَع في إشكاليات وأخطاء كثيرة وكبيرة، وكثير من هؤلاء الكوادر الإسلاميين لا يملكون مَنطِق المعرفة العلمية ولا الإنسانية؛ فإنَّ مالك المعرفة التقنية لا يستطيع الفصل بينها وبين مجال الاجتماع الإنساني وطبيعته المختلفة عن المعرفة التقنية»(١).

سبب المشكلة:

تعدَّدت دوافع إقبال الإسلاميين على التخصُّصات التطبيقية؛ أبرزها «الوجاهة الاجتماعية» التي كانت تمنحها تلك الكليات التطبيقية لمُنتسبِيها؛ مما يزيد من مجال تأثيرهم الدعوي. كما كان الخطاب الدعوي التحفيزي في حِقبة السبعينيات الذي طالب بضرورة وجود «الطبيب المسلم» و«المهندس المسلم»؛ له دور رئيس في توجُّه الإسلاميين نحو تلك التخصُّصات كمُتطلَّب دعوي، «وقد زاد تشجيع الكوادر على هذه الكليات عند التيارات الإسلامية التنظيمية؛ لأنه يَسمح لهم -عن طريق الدعوة في الجامعات- باستقطاب كوادر من «كِريمة المجتمع»، كما أنه طريق للعمل السياسي والأهلي بعد ذلك، خاصةً على مستوى النقابات»(٢).

«عندما أردنا أن ننفتح على العالَم الجديد والجامعة؛ قلنا لأبنائنا: تعلَّموا

---

(١) محمد فتوح. تقرير بعنوان **«مهندسون وأطباء فقط.. لماذا هجر الإسلاميون دراسة العلوم الإنسانية؟»**. موقع (www.aljazeera.net/midan).

(٢) أحمد سالم. **السبل المرضية لطلب العلوم الشرعية**. ص٣٢، ٣٣.

الطب والهندسة. وخرَّجنا مجموعةً كبيرةً من شبابٍ خِدْمِيٍّ لا علاقة له بالفكر أصلًا! بينما المَدرَسة التي من شأنها أن تُكَوِّن مُغَيِّري العالَم هي مَدرَسة الفكر والعلوم الإنسانية، تلك التي هَجَرَها الإسلاميون؛ حتى أصبحوا عاجزين عن فَهْم الحَرَاك الاقتصادي والحَرَاك الاجتماعي؛ لأننا لم ندرس الاجتماع ولا التربية ولا السياسة ولا الاقتصاد ولا العمران!»(١).

مثَّلَت الظروف الاقتصادية دافعًا آخَر وراء اهتمام الإسلاميين بدخول كليات التخصُّصات التطبيقية؛ «فَمَعَ بداية السبعينيات؛ تزامَنَ صعود التعليم الهندسي مع صعود رأسمالية المقاولات، التي كانت أكثر القطاعات استعدادًا للاستجابة إلى مُحاوَلات السُّلطة لتحفيز نُمُو الرأسمالية الخاصة بعد التراكُم الذي حقَّقَتْه في نهاية الستينيات. واعتُمِدَ تنفيذ سياسة الانفتاح عليها؛ فشَهِدَت فترة السبعينيات صعود دور نقابة المهندسين، وبَدَا وكأنَّ المهندسين وجمعية التخطيط المصرية قد مارسوا وأعطوا لأنفسهم حقًّا رقابيًّا على الدولة وسلطتها؛ بحكم أنهم المُنفِّذون لمشروعاتها الاستثمارية والتنموية»(٢)؛ ومن ثَمَّ كان دخول تلك الكليات بمَثَابَة ضمانة مالية لمستقبل حامل تخصُّصها؛ ومن هنا سُمِّيَت بـ«كليات القمة».

وقد تأثَّر مزاج أغلب الإسلاميين بمزاج المجتمع الساعي بكل ما يملك وراء دفع أبنائه إلى الدخول إلى تلك الكليات، واعتبارها فرصة لا يُقاوَم إغراؤها؛ ومن ثَمَّ فالذين لم يَحصُلوا على مجموعِ درجاتٍ يؤهِّلهم لـ«كليات

---

(١) عبد الفتاح مورو. **محاضرة بعنوان «من إطاحة الاستبداد إلى حماية التحوُّل الديمقراطي: قراءات في النموذج التونسي»**.

(٢) زينب البقري. **مقال بعنوان «عصر المهندسين: من ريادة الأعمال إلى المبادرات الشبابية»**. موقع (www.ida2at.com).

القمة»؛ اختاروا كليات التخصُّصات الإنسانية ودَرَسوها لمجرد الحصول على شهادة جامعية؛ لمجرد الحصول على الشهادة فقط، وليس من باب سَد ثَغْرٍ تحتاجه الأُمة.

التجربة التُّركية:

التجربة التُّركية التي خاضها حزب «العدالة والتنمية» كانت خير دليل على أهمية العلوم الإنسانية؛ فكوادر الحزب التي كانت من الجيل الثاني الإسلامي في تركيا الحديثة، والتي لم تتوافق مع كوادر الجيل الأول «نَجْم الدِّين أَرْبَكَان» و«محمد رَجَائي قُوطَان»، فأَسَّسَ كوادرُ الجيل الأول حزبَ «العدالة والتنمية». واللَّافِت للنظر أنَّ كل قادته من دارسي العلوم الإنسانية؛ فـ«أردوغان» تخرَّج في كلية «الاقتصاد والعلوم الإدارية» جامعة مرمرة. ورفيقه في تأسيس الحزب «عبد الله غُل» تخرَّج في كلية «الاقتصاد» جامعة إسطنبول، ثم حصل على الدكتوراه في «الاقتصاد». وثالثهما «أحمد داود أُوغْلُو» كان تخصُّصه في «العلوم السياسية والعلاقات الدولية»، وحصل على الماجستير في «الإدارة العامة»، ثم الدكتوراه في «العلوم السياسية والعلاقات الدولية».

وفي العموم؛ نجح ذلك الجيل -بفضل الله- في الصعود إلى سُدَّة الحُكم، وإدارة البلاد بشكلٍ ناجحٍ عامةً وفي المناحي الاقتصادية والسياسية خاصةً، والقدرة على مُواجَهة أَعْتَى المُؤامَرات والنوازل؛ حتى صارت تركيا كِيَانًا فاعلًا في كل النزاعات، وأَجْبَرَت الدُّوَل الكبرى على احترام مكانتها -وبالطبع لكل تجربة مآخذ وتحفُّظات-. ولا شك أنَّ الشهادات الجامعية لم تَكُن المُؤهِّل الوحيد لهم ليَصِلوا إلى ما وصَلوا إليه، ولكن تبحُّرهم بعد ذلك -بالمُمارَسة

والاطلاع- في العلوم الإنسانية؛ كان له دور كبير في ضبط رؤيتهم للمستقبل وأدائهم السياسي والاقتصادي.

وأخيرًا: إنَّ العلوم الإنسانية لا غِنى عنها لكل مَن أراد أن يتعامل ويتفاعل مع المحيط البشري، وبغيابها يختل ميزان المعرفة والتقدير لدى الكِيَانات الإسلامية والدُّعاة والإصلاحيين؛ والمطلوب -باختصار- من الكِيَانات هو:

١. تخصيص نُخَب للاهتمام بالتبحُّر ودراسة العلوم الإنسانية؛ بهدف التخصُّص والتكامل مع التخصُّصات الشرعية؛ انطلاقًا من قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾(١).

٢. تدريس مَداخِل من العلوم الإنسانية لغير المُتخصِّصين؛ بحيث يَتوَفَّر لديهم القَدْر الضروري والكافي لضَبْط الميزان المعرفي؛ أي: تدريسهم ما لا يَسَع الفرد جهله من العلوم الإنسانية.

(١) التوبة: ١٢٢.

الخاتمة

يقول النبيُّ ﷺ: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»[1]؛ أي اطلبوا السَّدَاد واعملوا به، وإن عجزتُم عنه فقارِبوه. والسَّدَاد هو: وَضْع الشيء في موضعه تمامًا. والمُقارَبة هي: وَضْع الشيء في موضعه على جهةٍ تُقارِب الكمال. والتربية تحتاج إلى المُقارَبة؛ لأنَّ السَّدَاد فيها عزيز، فالتربية تساوي بناء الإنسان، وعملية بناء الإنسان ليست عمليةً رياضيةً لا تحتمل الخطأ -ولو بنسبة بسيطة-، بل هي عملية مَرِنة تحتمل الخطأ وتكتفي بالمُقارَبة وتطبيق الأغلب وليس الكل، كبقية العلوم الإنسانية التي استحال تطبيقها بالتمام.

التدوينات السابقة كانت بِضْعَ لَبِنَاتِ نُصْحٍ في بناءِ المُقارَبة؛ مُوَجَّهة لبقيةٍ من رجال الإسلام يخوضون حربًا صعبةً للحِفَاظ على جَذْوَات الإيمان مُشتعِلةً داخل نفوس الشباب المسلم، وحمايته من سِهَام التغريب والعَلْمَنة والشبهات والشهوات؛ أولئك الرجال الذين قدَّموا الكثير من التضحيات، ونالوا شرف

---

(١) رواه البخاري. باب: القصد والمداومة على العمل. حديث رقم (٦٤٦٣). ومسلم. باب: لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى. حديث رقم (٢٨١٨).

الاستعمال لخدمة دِين الله ﷻ، وَوَرِثُوا ذلك الشرفَ الرَّبَّانيَّ بالعمل في حقل الدعوة، لا يبتغون سوى ملء سفينة النجاة بأكبر عددٍ من الرُّكَّاب؛ لإنقاذهم من أعاصير الضلال!

الفهرس